المجموعة التاريخية العثمانية العربية ١٩٠٨ - ١٩١٨

مذكرات عبدالله دبوس

ضابط بيروتي في الجيش العثماني





إعداد وتحقيق: محمد السعيدي

ضابط بيروتي في الجيش العثماني

مذكرات عبد الله دبوس

١٨٩٨ - ١٩٦٣

لمناسبة مرور مئة سنة على انتهاء حرب كونية وحشية ١٩١٨-٢٠١٨

و٩٩ سنة على إعلان دولة لبنان الكبير

مقدّمة ثقافية انثروبولوجية للأستاذ عبداللطيف فاخوري

مقّدمة (ملاحظات)، د. فواز طرابلسي

إعداد وتحقيق محمد السعيدي

دار الفارابي

الكتاب: ضابط بيروتي في الجيش العثماني

مذكرات عبد الله دبوس ١٨٩٨-١٩٦٣

إعداد وتحقيق: محمد السعيدي

الغلاف: نبال محمد الحلو

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان

ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)

ص.ب: ١١/٣١٨١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: آذار ٢٠١٩

ISBN: 978-9953-71-565-0



عبدالله دبوس ١٩٢٠



عبدالله دبوس ناظراً في مدرسة أبو بكر الصديق



عبدالله دبوس إلى اليمين ومحمد سعيد دبوس إلى اليسار

في قيادة وإدراة جميعة الكشاف المسلم

مقدمة معد المذكرات

قارئ المذكرات سيعيش تفاصيلها لتنقله مئة سنة عبر الزمن إلى مدينة دروبها وطرقها بعضها حجارتها مرصوصة حيث الساحات (يومذاك لم تكن تتبع بعد المسارب الصحية) أحياناً وأخرى ترابية داخلية مغبرة صيفاً وموحلة شتاءً فتسير محاطاً بأسوار حجرية للبيوت الميسورة أو بأشجار الصبار ويجانبها ممر واطئ حجري ضيق وطويل وهو عبارة عن حيز ضيق يسمى الساقية يسمح بانسياب المياه فيها موجهة لسقاية الزرع، واذا ما اقتربت من البيوت فتمر بين أزقة وزواريب تضيق أو تتسع.

لماذا مذكرات دبوس؟

كون صاحب المذكرات بيروتياً من (رأس بيروت) وقد وصف منطقته وبيته والبيئة الاجتماعية والمدى الجغرافي ووضع عائلته الاقتصادي-الاجتماعي وعلاقاتها بمن حولها في اوائل القرن العشرين ما ولّد عندي رغبة في أن أدع القارئ يقترب من ذلك الزمن بالخريطة والصورة عما تكلم عنه السيد عبدالله دبوس. سنوات المذكرات وما بعدها كانت من أخطر المراحل وأهمها مرّت فيها المنطقة ورسمت واقع ومستقبل خريطة بلاد الشام والشرق الأوسط كله بجغرافيته السياسية والادارية بتطوراته الاجتماعية-الاقتصادية والثقافية والديموغرافية نتيجة المعاهدات والاتفاقات العلنية والسرية. ففي قلب السلطنة نفسها عشرات الإثنيات منها ما شُرِّدَ وهُجِّر مرات عدة في حقب مختلفة من مواطنهم إلى مواطن أخرى، أحياناً تم التفاوض في تبادل عشرات الآلاف من إثنية ما مقابل آلاف من إثنية أخرى.

كانت حياة عبدالله دبوس على مفترق طرق بين عمله مع عائلته وتقاطع تطلعاته العلمية الأكاديمية وتلبية هواياته وتطلعات عائلته.

أنت بيروتي

نعم. قد تصيب السائل برعشة. أقلقهم أن يقوم ابن بيروت من تحت الأنقاض. ويعيد إعمارها، حتى الأوروبي الذي سكنها قبل عشرين سنة أو خمسين سنة أبى إلا أن يعود إليها ويعيش عملية إعادة إعمارها. العاصمة، بيروت دبوس مناسبة ليعود القارئ بعيداً إلى ما قبل مئة سنة. فبدايةً لم تحوِ المذكرات صورة أو هامشاً، حاولت إضافة صورة لكل مكان ذكرَ، والوقوف على حوادث هامة وحساسة بل مفصلية وأرفقتها بتفسير في الهامش وكل شخصية مرّ اسمها بين السطور وضعت لها صورة وتعريفاً وكي لا أثقل على القارئ فما ورد من أسماء أعلام وأحداث في كتب سابقة لن أكرر التعليق عليها. وقبل قراءة المذكرات وضعت صوراً للمدينة التي عاش فيها من نهايات القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين، وهي محاولة تقريب القارئ قدر الامكان بواسطة صورة من ذلك الزمان واستعادة الظروف المعيشة التي أحاطت بعائلة عبدالله دبوس البيروتية، (والده عبدالحميد محمد رسلان دبوس، ووالدته عائشة طبارة).



ما تبقى من بيت دبوس وإلى يمين الصورة كانت مدرسة الفرير التي خربتها الحرب
(من مجموعة الأستاذة أسامة كلاب سنة ٢٠١٠)

وكمساعدة لمخيلة القارئ على تكوين فكرة واستحضار البيئة العمرانية المدينية الاجتماعية الحاضنة التي ربوا في وسطها وكبروا.

بيروت مطلع القرن العشرين إبان نهايات الاحتلال التركي(الحرب العالمية الأولى) وبدايات الاستعمار الفرنسي إلى جانب عائلات بيروتية مختلفة الطوائف والمذاهب في منطقة رأس بيروت وشارع الحمرا وقريطم (العلّية) إلى عين المريسة والمنارة وجل البحر فالروشة وشوران فرملة البيضاء فدير مار الياس (الجناح) ثم الباشورة والمصيطبة فزقاق البلاط والأشرفية فالأسواق التجارية وبقايا بوابات سور بيروت وبـ(التسميات الحالية) منطقة البرج أو ساحة الشهداء (المصهر الطائفي / الوطني) وساحة رياض الصلح والسرايا الصغيرة والكبيرة والشوارع بأسمائها القديمة والعصرية التي عملوا فيها وتعاملوا معها، والروابي المتفرعة والشواطئ البحرية المحيطة بهم وبيروتهم التي بدأت تتجاوز السور المحيط بها قبل مئة سنة. من محتويات الصور من مساكن البيارتة وبقية مباني المدينة

ومزارع ومستوى التقسيم المدني وأغراضه وهندستها وساحاتها ومؤسساتها والملابس المتنوعة الدالة على انتماءاتهم الاجتماعية ومواقعهم أحياناً ووسائل نقلهم الآخذة في التطور وشوارعهم وطرقاتهم ومدارسهم ومعابدهم ومتاجرهم الكبيرة والصغيرة، و(حلم أولاد دبوس الدراسة في الجامعة الأميركية) نموذج عن كثير من العائلات ربطت العلم والتقدم الاجتماعي بالتعلم ونهل المعرفة ودور الصحافة المحلية والعربية في نقلها للأخبار العلمية والأحداث والاختراعات والاكتشافات. بيروت المتوسطية جغرافياً والوسيطة اقتصادياً للداخل وللخارج. مرّ ببيروت الكنعانيون الفينيقيون، الفراعنة، الآراميون الآثوريون والفرس والرومان سكان المدن الساحلية والداخلية شمالاً وجنوباً مع الزمن كانوا عرضة لهجمات منذ آلاف السنين لاجتياحات وغزوات وهي تتعرض للتغير والتنوع في تركيبتها الديموغرافية وأصابها التطور والتحول فانصهرت فيها طوائف وإثنيات وأعراق عدة تلبننت (مصريون/ تركمان/ جركس/ أرناؤوط/ أرمن/ آثوريون/ أكراد/ بدو بر الشام/ جزائريون-مغاربة، ثم مع الانتداب الفرنسي أيضاً سنغاليون ومن بلاد المغرب العربي). بيروت المتوسطية نافذة يطل منها على عوالم وأسواق وشعوب غرباً وشرقاً، كانت كلما توسع مرفأها وتعصرن تزداد أهميتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. (بيروت الناهضة مع خطوط الترامواي الداخلية ونشوء المصارف العائلية- المحلية والأجنبية بجانب تغير السلطة والحكام في العاصمة استانبول مركز القرار السياسي والإداري. ومنذ رحلة الأمير فخرالدين إلى أوروبا وإنتاجات مطبعة عبدالله زاخر يتلمس الباحث المتغيرات المتسارعة حيناً والبطيئة جداً أحياناً أخرى المتغيرات المادية (الاجتماعية -الاقتصادية) بين منطقة وأخرى (كسروان عن جبل عامل) (جبل لبنان عن طرابلس وجوارها) والبقاع المنسي لولا زحلة وبعلبك وتأثيرها في الحياة الثقافية ودور المدارس المحلية والتبشيرية مما أدى التحدي التبشيري إلى ضرورة تقديم كفاءات عليا من وجوه وقيادات سياسية واقتصادية وعسكرية ودينية وثقافية تماشي تطور المجتمع وتمسك زمام أموره برؤيتها وتتابع حماية مصالحهما المشتركة بأيدٍ محلية عبر مؤسسة فرنسية»كاثوليكية« كلية القديس يوسف التي سميت فيما بعد بالجامعة اليسوعية. وكان للأميركان البروتستانت في بناء الكلية الإنجيلية

السورية الأهداف الفرنسية نفسها وسميت فيما بعد الجامعة الأميركية في بيروت وكان التنافس على أشده فيمن يقدم ويخرج الكفاءات العلمية التي صهروها وقولبوها لتسلم قيادة البلد الآخذ في التطور والنمو وتوجيهها في قنوات عدة مع إغراءات تمويلية أحياناً صحافية أو مصرفية وهي في حقيقتها فروع مع تسهيلات وإطلاقها مع بروباغندا في الدول العربية وترويجها أيضاً بمساعدة أندية وجمعيات ذات فروع تصب في أهداف واحدة للمصلحة الأميركية والفرنسية بحسب جامعة الخريجين. ولعبت الصحافة المحلية والعربية دوراً في بث الأخبار والإعلام والمعلومات العلمية والتسريع في التطورات السياسية القومية والثقافية القومية العربية والسورية واللبنانية.

علماً أنه تعرضت الخريطة الجغرافية السياسية العثمانية مرات عدة وما تتضمنه من مدن وقرى موزعة على ولايات بين ضم وإعادة تركيب جديد قبل قيام لبنان الكبير شهدت بيروت الولاية بيروت المدينة أحداثاً جليلة ومصيرية منذ ١٩١٤ سياسياً واقتصادياً وثقافياً وديموغرافيا الأمر الذي أدى إلى متغيرات متتابعة وهجرات أهل الريف مع قيام لبنان الكبير باتجاه المدن الساحلية، وكانت حصة بيروت هي الأكبر من جميع الطوائف ومن جميع المناطق وتغلغلها المديني وتكرار النزوح أديا إلى تراكم سكاني داخلي شجع نشوء أحزمة بؤس حول المدن غذّتها باليد العاملة (قوى منتجة/ وقوة استهلاكية) وآخر ما شهدناه (وليس آخراً) الحروب الجاهلية - العبثية التخريبية (١٩٧٥-١٩٩٠) والأغبياء باسم الوطنية(مسلمين - مسيحيين) تم تهديم وسط المدينة(السوق) تاريخها، ذاكرتها، الجامع للناس واختلط ترابها بدماء اللصوص والمدافعين عنها، والأسواق (الذاكرة) تصير أحجاراً متراكمة، وتحت غطاء تحسين المدينة وإعادة إعمارها جرى بغموض وصمت سرقة حقوق أصحابها، وأراضٍ تباع وتشرى بإشراف وتناتش مرجعيات البلد زعماء وقادة (قدامى ومحدثي نعمة) بمعرفة قضاتها وتواقيعهم، حاملة عناوين جديدة وأسماء مستعارة لأناس آخرين. وأمن لا يساعد أصحاب المؤسسات وعمالها وزبائنها على قضاء حاجاتهم وتناولها. والفوضى مطلقة واستباحة أملاك الغير (مغتربين/ مهجرين/ مشاعات) على جميع الأراضي المذهبية، بحيث يصبح التفلت من أي قيم باسم الأمن عملاً طبيعياً، ويصبح

كل شيء ممكناً ومباحاً، وباسم المستقبل والتغير والحفاظ على مصالح الطائفة في ظل حروب أو في ظل التحرير. وباء القبضايات واللصوص المسلحين وزعمائهم السياسيين. استعادة الصورة ليست هي موضوعنا إنما للاقتراب من المدينة والتعرف عليها التي عاش فيها وأحبها عبدالله دبوس صاحب المذكرات. الصور لإغناء المذكرات والذكرى وإعطائها حيوية وحركة، وإغناء خيال القارئ. بسبب الفجوة الزمنية التي تقارب المئة سنة أتمنى ان تكون قد أفادت وأصابت وسيلتي صور بيروت ما قبل عبدالله دبوس.

ملاحظة: كتب المرحوم الأستاذ عبد الله دبوس مذكراته قبل وفاته (١٩٦٣) ببضع سنوات ولم يتم التدخل في مبناها أو معناها. أتينا عليها بعلّاتها كما وصلتنا، رغبة منا في الحفاظ على لغة الكاتب والإبقاء عل جو وبيئة ذات الطابع التاريخي بمضمونها كما هو تركها.

ولمزيد من المعلومات حول ماجريات الحياة في بيروت المدينة تحديداً والتمركز المؤسساتي فيها المتسارع رأيت انه ممكن تزويد القارئ بالمعلومات الموثوقة من (دليل بيروت/ تقويم الاقبال ١٣٢٧ -١٩٠٩) للشيخ عبد الباسط الإنسي لإضفاء أجواء الحياة وتلمس مستوى التقدم والتمدن. الدليل يُعطى مجاناً مع مذكرات دبوس

محمد السعيدي

مقدمة ثقافية

عبد اللطيف فاخوري

مؤرخ بيروت ومحامٍ

كانت الدولة العثمانية تجري قرعة سنوية يخضع لها الشبان الذين سيجندون. فكان يؤتى بمواسير حديدية (مثل مكوك ماكينة الخياطة) توضع في الماسورة ورقة بيضاء ومن يسحبها من الشبان يترك حرّاً. أو توضع ورقة مكتوب عليها لفظة «عسكري» يجبر من سحبها على أداء الخدمة العسكرية. وكانت الدولة العثمانية في أواخر عهدها بحاجة ماسة إلى العسكر فكانت الأوراق البيضاء قليلة جداً. كما أن الدولة في بعض السنوات لم تكن تقبل البدل النقدي أي خمسين ليرة عثمانية ذهبية، بل كانت تفرض على من تصيبه القرعة للخدمة أن يؤمن رجلاً بدلاً منه. وكان مجلس القرعة يعقد في القشلة الهمايونية - التي أصبحت اليوم السراي الكبير بحضور أعضاء لجنة التجنيد وتسمى «قومسيون لمّ العسكر» والمشايخ والقاضي ونقيب الأشراف وكبار الضباط. تسجل أسماء المطلوبين في بطاقات خاصة ثم تسجل أرقامهم في بطاقات أخرى ويُنادَوْنَ اسماً اسماً ويطلب من كل واحد أن يسحب ماسورة يفتحها بنفسه أو يفتحها له أحد الضباط - إذا كانت ركبتاه تصطكان - وينادى خالية أو عسكري. فتصرخ والدة الشاب أو زوجته مزغردة أو مولولة حسب نتيجة القرعة. وتعرف نتيجة القرعة بالنسبة للشاب من مجرد فتح الماسورة لإخراج الورقة منها فإذا تساقطت منها حبات رمل فمعنى ذلك أنه كتب على الورقة بتجنيد الشاب، فقبل استعمال ورق النشّاف كانت ترش حبات رمل على ما يُكتب فإذا لم تسقط حبات الرمل فيعني إعفاء الشاب.

وقد علق في ذهن البيارتة أن كثيراً من الشباب الذين استدعوا للخدمة العسكرية في

البلقان والقرم واليمن استشهدوا في تلك البلاد وتركوا عائلات افتقرت وباعت أملاكها . ففي حرب البلقان وحدها استشهد من بيروت خمسة وخمسون شاباً تركوا ثكالى وأرامل وأولاداً صغاراً زغب الحواصل لا معيل لهم.

صدر سنة ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦م قانون عُرف «بقانون أخذِ عسكر» نصّ على أن مدة الخدمة العسكرية عشرون سنة موزعة على ثلاث مراحل: ست سنوات خدمة نظامية في السلك العسكري، وثماني سنوات خدمة في سلك الرديف، وست سنوات خدمة في سلك التحفظ. وكان على كل شاب أن يحمل معه باستمرار الوثيقة العسكرية. وكان رجال شعبة العسكر يسألون من يصادفونه من الشبان: ناردة وثيقة ؟ أي أين الوثيقة، فمن لم يكن يحملها سيق إلى مكان التجنيد. يذكر أنه أثناء مغادرة الموظفين الأتراك بيروت في شهر تشرين الأول سنة ١٩١٨م إثر خسارة الدولة العثمانية الحرب، تجمع الناس لرؤية انسحابهم، ولما شاهدوا حسن حسني رئيس شعبة العسكر والمكلف بملاحقة الشبان، أخذوا يهتفون: حسن حسني ناردة وثيقة؟ وشاعت حينذاك أغنية تقول: حسن حسني ناردة وثيقة الخ.

****

لا عجب أن يبدل الجندي في السنة الواحدة رأياً برأي وعاطفة بعاطفة. فالجندي حرّم على نفسه أو حُرّمت عليه كل متعة من متع الدنيا فلا نزهة ولا راحة ولا حظ له في النوم العميق ولا الطعام الهنيء والفراش الوثير واللباس النظيف.

يمكن القول إن صاحب المذكرات حين يتحدث عن نفسه فهو يتحدث عن كل نفس ويصف شعور كل واحد وعواطفه فالحرب تجعل الناس مختلفين وهم متشابهون ومتشابهين وهم مختلفون. تقول الحق وتقول الحياة القوة وتقول الكتب حقوق الإنسان وحريته وتقول الحياة شهوة التسلط وغريزة السيطرة ونزعة الاستغلال. والذين يساقون إلى الحرب لا يعرفون دسائس السياسة ولا التزاحم على الرئاسة فلا تسألوا هذه الحرب عما صنعته بحقوق الإنسان واسألوا التاريخ عما صنعته في المجتمعات. منيت المجتمعات العربية عموماً وبيروت خصوصاً بضروب من الحروب والنكبات لو أنزلت على جبل شامخ لتصدع ولو أصاب غيرها معشار ما أصابها لدرست حضارتها وعفت رسومها.

ولايزال الذين عاصروا آخر حروب الدولة العثمانية يذكرون ويروون عن أسلافهم المآسي والضحايا التي خلفها نظام أخذ العسكر ممن استدعي إلى الجبهات ولم يعد نظام البدلات النقدية وما بيع من أملاك لتسديد تلك البدلات.

قال عبد العزيز عوض عن نظرة الناس إلى الخدمة العسكرية: «مما زاد في نفور السكان منها إرسال المكلفين بها إلى بلاد بعيدة كاليمن والروملي وكريت والجبل الأسود وبغداد ...». وتبقى الحرب العالمية الأولى التي اكتوى العالم بحديدها ونارها والتي كان مردها في الظاهر إلى الخلاف في أصلح نظام لعيش الأفراد والأمم.

يخيل إلى من يقرأ المذكرات أن صاحبها مغرم بأن يورد بالتفصيل حوادث يومياته لا يدع شاردة ولا واردة، ما يسوء منها وما يسرّ، ما يبعث القلق وما يوحي بالطمأنينة، ولكنه التاريخ المعيش ممن عايشه وتلظى بناره، على عكس المنظرين والمحللين والمعقبين والمراسلين. ويلفت النظر إلى أن صاحب المذكرات لم يدع فيها فراغاً كالذي عرفناه لدى كتبة التاريخ أي المؤرخين عن بعد من ورود عبارة «بياض في الأصل «فمذكراته لا بياض فيها وهي تغني عن القراءة بين السطور.

لم يشهد عصر من العصور صداماً كالذي شهدته الحرب العالمية الأولى وشقيقتها الثانية ، وليس في الحرب ما يبعث على الفخر فالحروب كلها مصيبة وبلاء. طغت الحرب الشاملة على كل شيء، وملكت على الشعوب أهواءهم ومشاعرهم وأفكارهم كافة حتى لم يبق من كان في معزل عنها أو سلم من شرّها. إذا كانت للحروب قواعد وأعراف أخلاقية نظرية إلا أنه لم يكن للمحارب في الواقع أن يتحرج من إثم أو يتعفف عن جرم فما الحرب إلا القتل والحرق والهدم والنهب.

****

من مآثر علماء الحديث أنهم قالوا بالأمانة في نقل الحديث وفرضوا وجوب تحري النص لأجل الوقوف على المعنى الأصلي. والتاريخ علم في تحريه الحقيقة وكعلم يطلب الحقيقة كما هي، لا كما يجب أن تكون. فعلى المؤرخ أن يثبت الأخبار كما رواها صاحبها لا كما كان يجب عليه أن يرويها وكتب التاريخ ملأى بالمآرب والأهواء:

فما كتب التاريخ في كل ما روت لقرائها إلا حديث ملفق
نظرنا لأمر الحاضرين فرابنا فكيف بأمر الغابرين نصدقْ

كان ابن خلدون في مقدمته أسبق من غيره في النظر إلى التاريخ كعلم مستقل له منهجه وقواعده وأحكامه كما قال: «قانونه في تمييز الحق من الباطل في الإخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه وحينئذ فإذا سمعنا عن شيء من الأحوال الواقعة في العمران، علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه، وكان ذلك لنا معياراً صحيحاً يتحدى فيه المؤرخون الصدق من الكذب وكان هذا علم مستقل بنفسه فإنه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني. وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى وهذا شأن كل علم من العلوم وضعياً كان أو عقلياً...».

وقد فرّق البعض بين لفظتي تاريخ (بألف لينة) وتأريخ (بالهمز) فالتأريخ هو العلم بحوادث الماضي زمنياً. أما التاريخ فهو ما حققه الإنسان في مختلف وجوه نشاطه. ودرج المؤرخون المسلمون على التأريخ بالحوليات، فيذكرون الوقائع والأحداث سنة فسنة إلا أن شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي وضع كتاباً سماه «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ» أشار فيه إلى الاختلاف في أصل كلمة تاريخ. ورجّح أنها عربية يقال أرّخت وورّخت الكتاب أي بينت وقت كتابته. في حين رجّح محقق الكتاب فرانز روزنتال أنها مستمدة من كلمة سامية تعني القمر أو الشهر. ولذلك قال الجوهري التاريخ تعريفه الوقت والتوريخ مثله فتكون كلمة تاريخ هي التوقيت حسب القمر»

ويؤكد السخاوي أن موضوع التاريخ هو الإنسان والزمان، بما يشمل أحداث الماضي وتسجيل دراسته وتحليل هذه الأحداث. أما فائدته فهي معرفة الأمور على وجوهها. وكفى دليلاً على جلالة علم التأريخ وفضله أن الله تعالى قصّ على نبيه عليه الصلاة والسلام أخبار الأنبياء الماضين والأمم السالفين ففي هذه القصص الإظهار للنبوة والاستدلال على الرسالة والتأسي بالأنبياء والتثبيت للرسول، وفيها التهذيب والتأديب والترغيب، فهي عبرة وموعظة. قال ابن دريد في المقصورة التي كانت تدرّس في الجامع العمري الكبير في بيروت في القرن التاسع عشر:

فكن حديثاً حسناً لمن وعى ... وإنما المرء حديث بعده

ولا ينكر فضل التأريخ وفائدته، لأن ما كان في أحداثه من استقامة الأحوال كان جديراً بالتذكر والتقليد. وما كان فيها من اختلال كان مصدراً للتنبيه والتحذير. فالاطلاع على الأخبار مرآة الناظر بصدق فيرغّب في المحاسن ويرهّب من القبائح، ولولا كتب التاريخ لنسي أكثر الأخبار والأحوال. قال العماد الأصفهاني: «ليست أمة أو دولة إلا ولها تاريخ يرجعون اليه ويعولون عليه، ينقله خلفها عن سلفها وحاضرها عن غابرها، تقيد به شوارد الأيام وتنصّب به معالم الأعلام، ولولا ذلك لجهلت الدول ومات في أيام الأواخر ذكر الأوائل. فالتاريخ علم يحتاج إليه الملك والوزير والقائد البصير وغيرهم. أما الملك فيعتبر بما مضى من الملوك والدول، وأما الوزير فيعتبر بأفعال من تقدمه من ذوي الحزم والعزم، وأما قائد الجيوش فيطّلع على مكائد الحرب ومواطن الطعن والضرب. وأما غيرهم فيستمعونه على سبيل المسامرة، فيقدموا على الخيرات ويتجنبوا المنكرات». وانتقد السخاوي بعض كتبة التاريخ فمنهم من ادعى المعرفة فأعرض عن التواريخ، ومنهم من اقتصر على الحروب والفتوحات مع أن من أنصف يعلم أنه ليس من العلم فتح البلد الفلاني في سنة كذا ولا أن عدد الجيش كان كذا، ومنهم من لم يستوعب القول فاقتصر على القشر دون اللبّ. وهذا يعني أن مقاصد المؤرخين مختلفة وأهواءهم متباينة، فلا بد أن يكون المؤرخ عالماً عادلاً، لا يتعصب لصديق ولا يغضّ من عدو، حسن العبارة، عارفاً بمدلول الألفاظ لا يغلبه الهوى فيمدح ويذم. قال الشاعر عن أهمية كتب التاريخ:

عوّل على كتب التاريخ واغن بها ... فكم تهزّ لها الأعطاف من طربِ
ولا تعوّل على من قال في سفِه ... السيفُ أصدق إنباء من الكتبِ

****

إذا كان التاريخ المدون الذي تتعلمه الناشئة في المدارس والجامعات هو تاريخ القواد والحكام والمستبدين وانتصاراتهم المغموسة بالدم والمضرجة بالنار، فإن تاريخ المقهورين والمحكومين موجود في مذكراتهم وذاكرتهم ومعاناتهم. فلا يعرف الشوق إلا من يكابده

ولا الصبابة إلا من يعانيها، وعبد الله دبوس أفضل من يعبر عنها بمذكراته التي لم يكتب مثلها بما حوته من صدق وعاطفة وشوق وألم. وتكمن فرادة هذه المذكرات في أنها الوثيقة الحقيقية ليوميات الحرب العالمية الأولى، والتي لم يسبق لأحد ممن شارك فيها أن دوّن وقائعها وواقعاتها، وقلّة من البيارتة الذين جُندوا وشاركوا في الحرب، أرّخ لها. ولم نعثر من ذكرياتهم إلا على رسائل لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة من جنود طابور بيروت على الجبهة الروسية العثمانية عامي ١٨٧٦ و١٨٧٧م وجدت لدى الدكتور عمر فروخ نشرها الدكتور حسن زعرور وكذلك حوادث شهدها وعاشها في جناق قلعة محيي الدين جلول المشهور بـ «بيروتلي عرب محيي الدين» ورواها لابن خاله القاضي محمود نعمان.

وفي ترجمة لعبد الله دبوس أنه ولد سنة ١٨٩٨ في رأس بيروت. درس في كلية دار العلوم التي أسسها عبد الجبار خيري وشقيقه عبد الستار بمساعدة الشيخ توفيق الهبري واتخذت مقراً لها في شارع كليمنصو الحالي. عمل عبدالله في محل والده في سوق أبي النصر بعد أن استدعي شقيقه محمد سعيد للخدمة العسكرية إلى أن استدعي سنة ١٩١٦ فانتسب إلى الكلية الحربية في استانبول وعاد بعد انتهاء الحرب سنة ١٩١٨ إلى بيروت وانتسب إلى الجامعة الأميركية ليتخرج فيها سنة ١٩٢٤ ويسافر إلى فرنسا ليتابع في جامعة السوربون ودراسة تربية الأطفال، وبعد عودته إلى بيروت سنة ١٩٣٠ عين ناظراً في المدرسة العثمانية (الكلية الإسلامية) لصاحبها الشيخ أحمد عباس الأزهري وكانت بإدارة الدكتور بشير القصار. ثم عمل ناظراً لمدرسة أبي بكر الصديق التابعة لجمعية المقاصد الخيرية الاسلامية إلى سنة ١٩٣٦ حين تفرغ لقيادة حزب النجّادة. وكان لنشاطه الكشفي والرياضي في جمعية الكشاف المسلم الدور الأول في تنشئة الشباب وكانت آخر مهماته وظيفة مفتش للشباب والرياضة في وزارة التربية الوطنية حتى وفاته سنة ١٩٦٣. وقدر لعبد الله دبوس أن يزور استانبول مع فرقة الكشّافة صيف ١٩١٤ قبيل نشوب الحرب وشاهدوا السلاملك وسمعوا أنور باشا.

وأسرة دبوس من أسر بيروت القديمة، ومعنى دبوس لغةً «المقمعة» وهي عصا من خشب أو حديد في رأسها عقدة كالكرة كان الجنود يتسلحون بها أطلقت في زمننا على إبرة

تمسك بها المرأة شعرها أو تزينه. ذكر أبو شامة في «الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية «أنه الدبوس كان من أسلحة صلاح الدين الشخصية. وكان الجندي يتقلده تحت الركبة منذ عهد نور الدين زنكي. وذكر القلقشندي أن الدبوس كان مخصصاً في الغالب لتحطيم الخوَذ. ذكر ماير في «الملابس المملوكية «أن الدبابيس صنعت من الحديد أو الصلب برؤوس كروية أو مضلعة وعلى سطوحها هيئة نتوءات مثلثة الشكل ولها مقابض مستديرة أو مضلعة.

عرفت أسر حملت شهرة دبوس في البقاع وجبيل وبيروت. وأقدم ما عرف من أبنائها أحمد بن عمر دبوس الذي حكم البقاع سنة ١٧٩٠م وكان أصل والده أضاباشي (حارس) عند الأمير ملحم في بيروت، وبعد وفاة الأمير رحل عمر بعياله إلى الشام وكان يتردد إلى الأمير يوسف إلى أن غضب عليه الأمير بشير وقتله. وأشار الأمير حيدر الشهابي في تاريخه إلى أن أحمد بن عمر دبوس كان شاعراً فصيحاً وله قصائد وتخميسات حسان وأورد الأمير حيدر إحدى الرسائل إلى الأمير حسن قاسم الشهابي تظهر مقدرته اللغوية والشعرية.

ويمكن القول بان أصول أسرة دبوس البيروتية تعود في تاريخها القريب إلى مدينة جبيل وانتقلت إلى بيروت مع عائلات كثيرة معروفة كالجبيلي والحسامي وعبلى والشعار ودرويش وسعيدون ورضوان (من هذه العائلة الأخيرة رضوان حسن الغول الذي نسبت إليه محلة البسطة كما ذكرنا في كتابنا «منزول بيروت») ومنهم الدعة الجبيلي وشديد الجبيلي ويكداش الجبيلي ويونس نقولا الشهير بأبي عسكر وقسطنطين الجبيلي. يذكر ان آل القباني سكنوا في مدينة جبيل ثم تحولوا إلى بيروت. وتفيدنا وثيقة شرعية مؤرخة في الحادي عشر من شهر ربيع الآخر ١٢٥٩هـ/ ١٨٤م أن عائدة بنت علي دبوس وأولادها محمد وسعيد وزليخة وخان زادة وآمنة أولاد قبلان دبوس كانوا يملكون بستاناً ودكاناً في جبيل. وعرف من أبناء أسرة دبوس في بيروت شيخ العطارين نبهان دبوس الذي ذاعت شهرته في الآفاق حتى غلبت شهرته على حرفته فأصبح العطار يعني دبوس. يذكر أن نبهان رفع لافتة على محله الجديد في سوق أبي النصر باسم دبوس الأصلي لأن البعض من التجار سمى محله دبوس، حتى أن عمر الزعني أنشد يقول: (إنزل على درج الأربعين واطلع شمال ويمين، على كل

آرمة فيترين بتلاقي دبوس، وما بقا تعرف الأصلي دبوس إلا من ورقة النفوس). وفي أغاني الأطفال في بيروت قولهم دبوس حديد يغرز بالإيد، دبوس الماس يغرز بالراس... الخ.

****

تبدأ مذكرات عبد الله دبوس بذكر جمعية تركيا الفتاة المسيطرة على الحكم وأعضائه أنور وطلعت ونيازي وجاويد وجمال، ويعقّب: «أعلن هؤلاء رغبتهم في إصلاح الدولة ومنع الرشوة والفساد ونشر التعليم وجعلوا شعار الدولة حرية عدالة مساواة ... ولكن الذي ثبت أن هـــؤلاء لم يكن عندهم شيء من مقومات الإصلاح ولم يعمل أحدهم على إصلاح نفسه بل أمعنوا في ممارسة الموبقات والاستهتار وحياة البذخ..».

وقبل الدخول في تفاصيل المذكرات لا بد من الإشارة إلى أمرين: أولهما أن نظام التجنيد وسوْق الشباب إلى الحرب ألحق أضراراً بعائلاتهم التي تركت بلا معيل، فضلاً عن انقطاعهم عن التعليم ومكابدة عائلاتهم البدلات النقدية والملاحظة الثانية أنه في الزمن الذي كان شباب بيروت في جبهات القتال علقت المشانق في بيروت ودمشق، وكانت تتلى القصائد بمدح وتحية أنور باشا وجمال باشا كما ذكر في الرحلة الأنورية سنة ١٣٣٤ / ١٩١٦م منها قصيدة للشيخ محمد الكستي مطلعها:

السعد هلل في الوجود وكبّرا ... واليمن من أفق المعالي أسفرا
لا زال بدر السعد أنور مشرقاً ... وجمال وجه العزّ فينا مسفرا

كما ألقى قصائد وخطباً، علي العشي شيخ السجادة (الطريقة) السعدية وحسن بيهم والشيخ عبد الباسط الأنسي وعمر نجا والشيخ مصطفى الغلاييني وحسين الحبال.

****

يمكن تشبيه مذكرات عبد الله دبوس ببحر لا ساحل له فعلى من أراد معرفة تفاصيل حياة الجندي في جبهات القتال أن يقرأ المذكرات لمعرفة ما افتقدناه عند أكثر المؤرخين والباحثيـــن ولاسيما من تبنى آراء المستشرقين عموماً والمغرضين منهم خصوصاً.

يبدأ الكاتب بالتجنيد الإجباري في بيروت الذي أداره حسن حسني وساق بقوله «كل

من عليها عسكر «(ص ٦١) ولا إعفاء إلا بالمال والرشوة والشهادات المزورة وإنزال العقاب بكل متمرد وناقم ومعارض ويصف الاتحاديين بعصابة أرادت إلقاء الرعب في نفوس السوريين فأرسلت جمال باشا الذي ظن أنه يمثل دور الحجّاج ... ويذكر عبد الله دبوس خروجه والبيارتة إلى حرج بيروت حيث كلية المقاصد اليوم لمشاهدة الباشا قبل إنشاء الديوان العرفي في عاليه وفي يقين الكاتب أن عدداً كبيراً من أهالي سوريا لم يكن راضياً عن الجمعيات التي تعتمد على مساعدة فرنسا (ص٦٤).

وفي إشارة إلى قسوة التدريب العسكري نقرأ في المذكرات أن الصف يجب أن يكون مستقيماً كالخيط طولاً وعرضاً أثناء المشي والعدو فإذا أطلق الضابط رصاصة من مسدسه عند أذن الجندي الأول وجب أن تمرّ بمحاذاة الجندي الأخير فضلاً عن التدريب بالبندقية في أوضاع مختلفة (١٠٥). ويشير الكاتب إلى معاهدة سان ستيفانو الجائرة بين روسيا والدولة العثمانية بعد حرب القرم. يذكر عبارة كانت تردد في بيروت تقول «شروط المسكوب» التي فرضت على الدولة العثمانية ومنها وجوب تعليق سيوف الضباط العثمانيين تحت السترة (ص ٤١ و١١٧).

وتشيد المذكرات ببسالة الجندي التركي وتفوقه بالسلاح الأبيض في معرض ذكر إحدى المعارك مع جيوش النمسا وهنغاريا (ص ٨٣).

وكانت فرصة تجنيد عبد الله دبوس وسفره إلى استانبول لزيارة أستاذيه في دار العلوم عبد الجبار وعبد الستار فسُرّا به ونشرا صورته في مجلة كانا يصدرانها وأعلماه بوعد أنور باشا لهما بإنشاء مدرسة وعندما شكا إليهما قسوة صغار الضباط قال له عبد الجبار منتفضاً : لا يا حبيبي الفاسد هو أنور باشا بالذات والناس على دين ملوكهم (ص ٩٨).

وفي معرض مشاركة الكاتب في جبهة السلط وأريحا بمجابهة ثلاثين ألفاً من الجيش الإنكليزي مزودين بأحدث المعدات والألبسة والأطعمة والأدوات الصحية وأسباب الرفاهية من حمامات وسجائر وثلج ويقابله الجندي العثماني بجسد عار إلا من سترة وسروال وقطعة من جلد الخيول للتخفيف من ألم القدم وطعام مؤلف من رغيف أسود

وقمل يعشش في الثياب البالية والملاريا الفتاكة ومع إخلاص وإطاعة يعجز القلم عن وصفهما (ص ١٧٧).

يميز الكاتب بين طبقتين من المجندين البيارتة. فأبناء بيهم وسرسق وطبارة وبسترس وغندور وطراد وأمثالهم لا يصلحون للحرب وقد ألفوا حياة الترف فنظم حسن حسني منهم طابوراً واعداً بعدم سوقهم إلى ساحة الوغى فاشترى كل منهم ثياباً عسكرية غالية وتفننوا في زركشتها وتفصيلها وتدربوا في ساحة القشلة العسكرية (السراي الكبير) امام حشد من المتفرجين وقدموا هدايا ففازوا بالأذونات المنوعة واحد مريض وآخر توفيت جدته وثالث وضعت زوجته فيناموت في بيوتهم ويأتون صباحاً إلى الثكنة بعرباتهم وخدمهم ثم تمكنوا من إيجاد أسباب إعفائهم من التدريب (ص٨٤-٨٥).

أما من خضع للخدمة العسكرية مع عبد الله دبوس من البيارتة من مسلمين ومسيحيين فقد ذكر منهم سعيد بكداش ويوسف زينة ويوسف فايد وفؤاد دبوس ويوسف ونقولا سالم وكامل الصباح وسعيد الصباح ورباح البابا وحبيب غندور وفؤاد غندور ورائف فانوس وداود خطاب وكامل طبارة ويوسف غزيري وعزيز مومنه (ص٨٦-٨٧). وكان عبد الله ينضم بعد التدريب إلى رفاق آخرين من البيارتة كراشد الحوري وعبد الرحمن حمود ومصطفى سنو وعزت طبارة (ص١٢٥) وكان أكثر البيارتة لا يأكل القروانة وهو طعام لعشرة جنود وكان البعض يأخذ نصيبه من الفاصوليا أو الفول أو الحمص في صحن فيعمد إلى غسله وتتبيله وإضافة التوم والحامض والزيت (ص ٩٥) وكان التمارض وسيلة ناجعة مع هدية إلى الطبيب للإعفاء من الاشتراك في المناورات وكان البعض يدعك ميزان الحرارة فترتفع الحرارة إلى الأربعين.

من المعروف أن الجيش ضمّ أفراداً من شعوب مختلفة أكراد وأرمن وشركس وسريان وأرناؤوط وعرب إلا أنه لم تنشأ رابطة بين المذكورين و«السكناج «اي اليهود القادمين من يافا أو القدس (٩٣). أما توزيع الألبسة فكان الضابط أرتين يسأل الطالب عن اسمه فإذا تبينه عربياً طرده وشتمه الخ (٩٦).

وجد الكاتب فرصة للاستماع إلى الأنغام التركية المشتركة في الأغاني العربية والتركية

والفارسية فتعلم كثيراً من الأغاني الشعبية والعسكرية (١٠٤) وعند وصوله إلى حلب استمع إلى منيرة المهدية أم كلثوم ذلك العصر كما سماها (١٥٠). ويشرح لنا كيف أُسر وكيف فرّ من الأسر حتى وصوله إلى بيروت.

وبعد،

في تاريخ الإنسانية تنتهي جولة في الحروب وتهدأ بانتظار جولة جديدة وتتم الإشادة بالبطولات ونسيان المعاناة وتعلق الأوسمة والنياشين وتقام أنصاب التكريم، وتستمر الحياة والدنيا لمن غلب.

تقديم

فواز طرابلسي

١١ شباط ٢٠١٩

لست أكتب لتقديم الكتاب فهو مزوّد بثلاثة مقدمات من معدّ المذكرات محمد السعيدي والأستاذ عبد اللطيف فاخوري وابنة صاحب المذكرات سميرة دبوس. وهي تكفي وتفي بالغرض.

أكتب لإسداء الشكر والتحية الى محمد السعيدي على الجهد الذي بذله لتحرير هذه المذكرات ونشرها الى جانب العديد من الوثائق والمذكرات الأخرى المتعلقة بفترة الحرب العالمية الأولى. فإلى جانب العناية بترقين النص وتحريره، زوّده بشروح وهوامش مستفيضة عن شخصيات وحوادث ومواقع وما يناسب من خرائط وصور.

يكتسب هذا الجهد أهميته بسبب ندرة الشهادات والمذكّرات عن الأراضي اللبنانية خلال الحرب العالمية الأولى وانهيار السلطنة العثمانية وتكوّن كيانات المشرق العربي تحت سيطرة الكولونيالية الجديدة لبريطانيا وفرنسا تحت تسمية «الانتداب». حتى إن نصيبها من «التأريخ» تكاد تختزله ثلاثة أحداث تأسيسية اتخذت مكانة أسطورية: المجاعة، اتفاقية سايكس-بيكو، اعلان بلفور.

فمن دواعي السرور أن يقرأ المرء سيرة شخصية عن تلك الحقبة. فالسِيَّر الشخصية وتواريخ العائلات والقرى والبلدات وأحياء المدن بل المدن ذاتها والمناطق، هي بمثابة اللحم الحيّ لكتابة تأريخ للبنان أكثر فأكثر احاطة وشمولاً.

المذكرات التي بين أيدينا هي قصة ضابط عربي من أبناء بيروت خدم في الجيش العثماني. وسوف أسمح لنفسي بأن أقرأها بما هي سيرة فرد تروي في الآن ذاته سيرة أمكنة ومسار حرب.

نقطة الانطلاق بيروت في العهد العثماني المتأخر وقد تحوّلت الى المرفأ الذي كوفئت عليه بعمادتها ولاية من ولاية السلطنة. انتشر سكانها خارج الأسوار إلى الروابي المحيطة بها. في رأس بيروت اسرة من العطارين، ارتبط اسمهم بتلك المهنة بحيث تماهت المهنة مع اسم الأسرة التي لا تزال تمارس العطارة الى أيامنا هذه. أسس عبد الله وشقيقه معملاً للفوّاشات وهي نوّاسات للإنارة على الزيت، بعد أن فقِد الكاز والبترول بسبب الحرب والحصار. الموقع، منطقة الحمرا [شارع الحمرا الحالي]، المسمّاة على الأرجح بسبب تربتها الحمراء، يعيش فيها مزارعون يزودون سائر المدينة بالخضار اسوة بسائر سكان ضواحي المدينة. وكان والد عبد الله أحد وجهاء المنطقة وبمثابة شيخ الصلح بين أبنائها. وكانت الأسرة على قدر من اليسر لكي يتمكن عبد الله وأخوه من الدراسة في «الكلية البروتستانتية السورية» [الجامعة الاميركية حالياً] وإن اضطر إلى مغادرتها عند وقوع القرعة عليه للتجنيد.

سمح التعليم لعبد الله بأن يدخل مدرسة الضباط ويتخرج ضابطاً من إستانبول وأزمير ويعيّن آمراً على سرية رشاش الماني متطور. في الجيش المتعدد الديانات والقوميات والاثنيات نعاين امتياز الضباط قياساً بالجنود مثلما نكتشف التميز الذي يحظى به مجندون من أرستقراطيي بيروت من آل بيهم وسرسق وطيارة وبسترس وغندور وطراد، الذين كان يعفون من معظم واجبات الجندية لقاء رشى (٨٤-٨٥)

في الحرب، نستعرض مع عبد الله دبّوس المعارك الرئيسة للحرب الدموية: حملة الجيش العثماني الثالث على جبهة القوقاز ضد الجيش الروسي، حيث يصاب بشرّ هزيمة، فينتقم قائده أنور باشا بافتتاح المجازر وحملات التهجير ضد الارمن. حملة الجيش الرابع التركي على سيناء وقناة السويس، التي وعد قائدها جمال باشا، أن لا يعود لبلاده إلا بعد أن يحتل القاهرة. ينهزم الجيش التركي أمام الجيش البريطاني الذي تفتح له معركة سيناء الطريق لاحتلال فلسطين. في الوقت عينه تصاب قوات الحلفاء، والقوات البريطانية خصوصاً،

بهزيمتين مدوّيتين. واحدة على مضائق الدردنيل، في جناق قلعة (غاليبولي)، حيث تصدّ القوات التركية هجوماً بحرياً وبرياً لإسقاط إستانبول، وهي المعركة التي سوف يبرز فيها الضابط مصطفى كمال ليواصل ادواره العسكرية في قيادة حرب التحرير الوطنية والتوحيد وتسلّم منصب أول رئيس للجمهورية التركية. أما الهزيمة الثانية هي القوات التركية للقوات البريطانية المتقدمة من البصرة لاحتلال بغداد في بلدة الكوت وقد انتهى الحصار عليها بعد أشهر باستسلام ١٣ ألف جندي بريطاني، سيقوا إلى الأسر الى بغداد مشياً على الأقدام.

تقع معظم العمليات العسكرية التي يشارك فيها عبد الله دبّوس شرقي نهر الأردن على خط سير قوات اللنبي والثورة العربية الزاحفة نحو دمشق بعد أن أتمّ اللنبي احتلال القدس وسائر الأراضي الفلسطينية. لا يخفي ابن بيروت عداءه للثورة العربية، يكتب: «انضم جيش الحجاز الهزيل الى الجيش البريطاني» (٧٢). ومن أولى المهمات التي ينفذها حملة القمع بحق بدو الكرك المسلحين مخافة أن ينضموا إلى الجيش العربي. هنا يترك لنا دبّوس وصفاً لبدو المنطقة أقل رومانسية بكثير من تلك التي صدرت عن مخيّلة تي. أي. لورنس الشغوفة. يصف رجال البدو جالسين أكثر النهار عند شيخ القرية يشربون ويدخّنون ولا يتكلمون إلا قليلاً، والنساء منهمكات بالعمل المنزلي والعناية بالمواشي والخيل والأطفال وصنع الجبن وغزل الخيوط، بينما الرجال عملاء مزدوجون للإنكليز والعثمانيين يتقاضون الأموال لقاء معلومات ينقلونها لهذا الطرف وذاك (١١٤-١١٥). ولا يلبث دبّوس أن يشارك في أبرز المعارك التي أعاقت تقدّم الجيش البريطاني في سيره الى دمشق، بما فيها معركة استرداد الطفيلة، من الجيش العربي، ومعركة الدفاع عن عمّان التي أجبرت الجنرال اللنبي على أن يغيّر خط سيره نحو احتلال دمشق. ويجدر التذكير بأن معظم القوات المسماة بريطانية في المنطقة تتكون من مجندين استراليين ونيوزلنديين وهنود وأغلبهم من الهنود المسلمين الذين يفرّون من الخدمة او يستسلمون بأعداد كبيرة عند اكتشافهم أنهم يقاتلون ضد عرب مسلمين، فيعاقبون بحملات إعدام جماعية (١٦٨).

يستسلم فوج دبوس إلى القوات الأسترالية، بعد كمين وحصار ونفاد الذخيرة وإصابة قائد الفوج. يقاوم دبّوس الأسير الإغراءات التي عرضها عليه الضباط الإنكليز فيما هو

جالس على مائدتهم العامرة لإطلاق سراحه لقاء الانضمام الى الجيش العربي، مكتفياً بأن يولّى الإشراف على جنوده الأسرى الجوعى وقد قضوا ثلاثة أيام بلا أكل ولم يقدّم لهم غير ماء وتمر وبصل، فغزوا بساتين داريا، ويصل فوج الأسرى الى دمشق وقد باتت في قبضة الجيش البريطاني والجيش العربي. بعد أن انسحبت منها القوات التركية بقيادة جمال باشا المرسينلي (الصغير/ الكجك) وقواته. يقارن عبد الله دبوس رخاء دمشق بـ«جوع بيروت» ناسباً الى الدمشقيين جني الأرباح الطائلة من التجارة والصناعات الحربية (١٦٠) واللافت أنه يتحدث عن جوع بيروت من دون أن يعلمنا بأي من معالمها المأسوية عندما يزور مدينته مرة لعيادة أمه المريضة وعندما يعود للاستقرار فيها.

يتمكن مؤلفنا من الفرار عند الوصول الى دمشق والسفر إلى بيروت مختبئاً فوق أكياس الطحين في عربة تجرّها الدواب لـ«نقل الطحين إلى بيروت الجائعة». يغادر دمشق مع بدء احتلال الإنكليز والجيش العربي للمدينة، ويكتب: «تركنا الضواحي مبلّلة بدماء الجنود الأتراك والألمان الذي ذبحهم الغوغاء بقصد السلب والنهب، وجنود الجيش العربي، بالكفّية والعقال، يجوبون الشوارع ويبادلون الجنود الإنكليز التحية، أليسوا من حلفائهم وشاركوا في فتح المدينة التاريخية العظيمة ولو أتوا متأخرين. تركت دمشق والقوم يهللون للحرية التي قيل لهم أنهم سينعمون بها» (١٩٣).

ليس واضحاً ما قصده عبد الله دبّوس بتأخر القوات البريطانية والعربية في فتح دمشق. يصعب الافتراض أنه كان يتوقع فتح المدينة قبل ذلك وهو أحد المدافعين عنها. مهما يكن، يعود عبد الله دبّوس لأسرته وقد أصابها بعض اليسر جراء صناعة الفواشات وبات لها معملاً يعمل فيه ٤٠ عاملة وعامل وانتاج بقيمة ٢٠ ليرة ذهبية عثمانية ما سمح له بالعودة إلى «الكلية البروتستانتية السورية» والمغادرة بعد التخرج لإتمام دراسته في باريس وتمويل دراسة أخيه الهندسة في بوسطن بأميركا.

بعدها، عاد عبد الله دبّوس للتدريس في الكلية الإسلامية والمقاصد الإسلامية. ولعله أتى هو نفسه متأخراً في تحقيق النقلة من الولاء العثماني إلى الولاء العروبي، عندما أسس وقاد «حزب النجادة» فترة الثلاثينات من القرن الماضي.

تعريف بعبد الله دبوس

سميرة دبوس

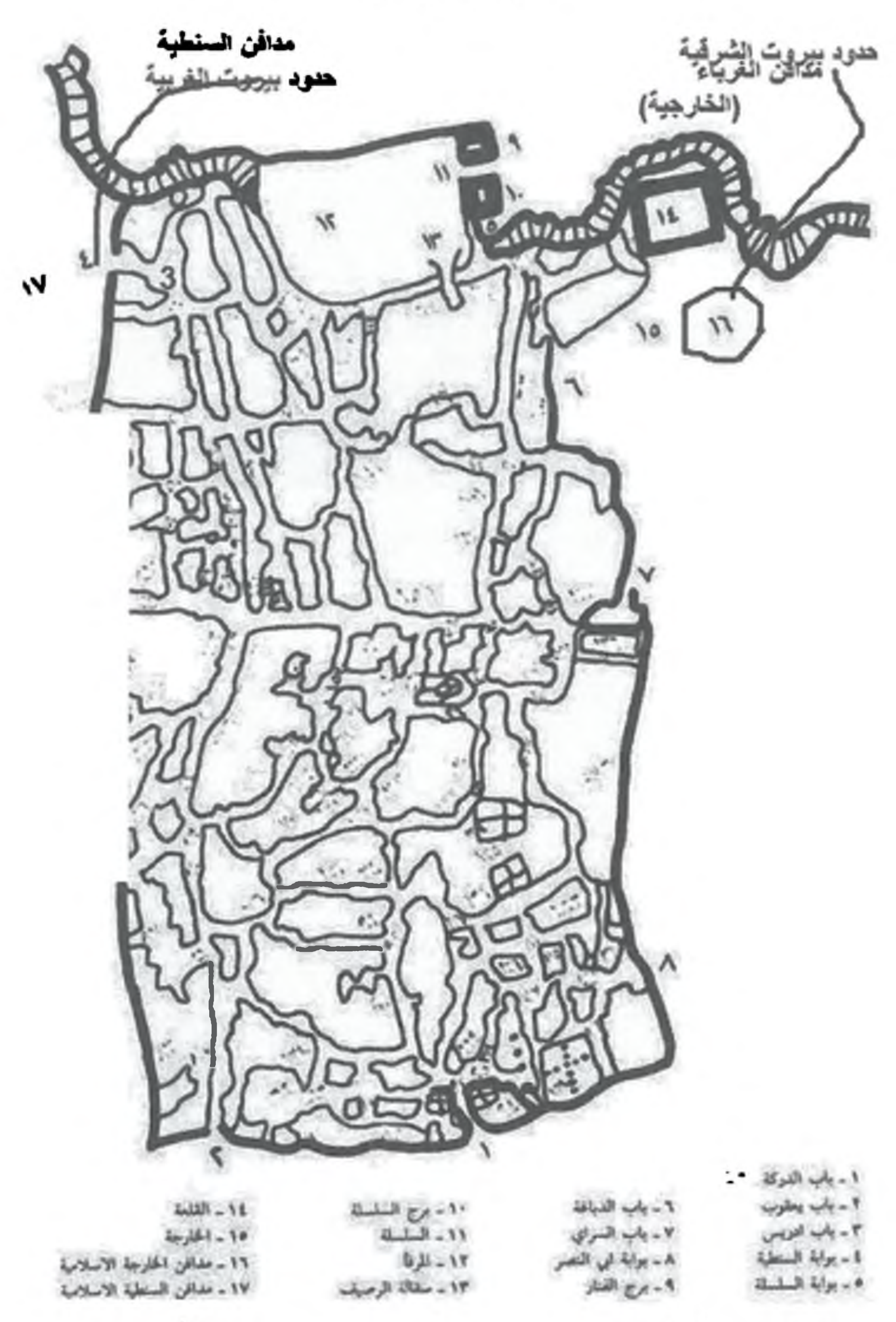
ولد عبد الله دبوس في بيروت سنة ١٨٩٨. درس في كلية دار العلوم وتابع في الكلية الحربية في استانبول سنة ١٩١٤ وعند انتهاء الحرب سنة ١٩١٨ عاد إلى بيروت ودخل الجامعة الأميركية وبعد تخرجه سنة ١٩٢٤ سافر إلى باريس ودرس في جامعة السوربون فن تربية الأطفال واللغة الفرنسية، تخرج سنة ١٩٣٠. بعد عودته إلى بيروت عمل ناظراً في مدرسة الشيخ عباس بإدارة الدكتور بشير القصار ثم ناظراً عاماً لمدرسة أبي بكر الصديق المقاصدية، استقال سنة ١٩٣٦ ليتفرغ لقيادة حزب النجادة، مارس أعمالاً تجارية واهتمامات شبابية ورحلات كشفية إلى أوروبا ومصر وتركيا. عُيّنَ مفتشاً للشباب والرياضة في وزارة التربية وبقي فيها حتى وفاته سنة ١٩٦٣.

كنت أقلب أوراق والدي فلفتت نظري مذكراته التي كتبها عن الحرب العالمية الأولى التي خاضها مع كل البلاد التي كانت تحت الحكم العثماني في ذلك الوقت.

كان متعلماً وهذا ما دفعه لأن يكون ضابطاً محترماً على أن يكون جندياً عادياً يعمل كالعبيد في تلك الحرب الإجبارية. رأيت ما كان عنده من عزة نفس وعنفوان فقد كان قدوة للكثيرين من جيله في الأدب والأخلاق والكرامة باعتراف الجميع، وهذا تجلى ان في تعليمه حين كان أستاذاً وإن في قيادته حين كان نجّاداً أو في نظامه حين كان كشافاً أو في تربيته حين كان أباً. تخرج في الكلية الحربية في استانبول وضاعت اوراق ترقيته لسوء حظه ونالها بعد ١١ شهراً من العذاب. وأخيراً وقبل انتهاء الحرب بقليل حصل على رواتبه المتأخرة وقدرها ست وستون ليرة ذهبية. خاض معارك قصيرة ولكن في أخطر المراحل

عند انهزام الأتراك وهناك الجوع والبرد والعناء والتعب والمرض. ذهب إلى بيروت في إجازة لزيارة أهله ولكنه وعد القائد بالرجوع في الوقت المحدد، وألحّت عليه والدته بأن يبقى يومين إضافيين ولكنه لم يستجب لها، وهو في طريق العودة إلى ساحة الحرب انتهت الحرب وانهزم الجيش وهنا سوء حظه للمرة الثانية. وقع في الأسر مع بقية الفرقة ولكن حظه تغير اذ هرب من الخيالة الهنود وكان في الشام ففر إلى بيروت ونجا من الأسر. كل ما ذكر هو مراحل عادية جداً تمر في الحروب لكن لو كان والدي موجوداً في حربنا هذه لما كتب هذه المذكرات، إذ إن حربنا (١٩٧٥-١٩٩٠) **أصعب وأوسخ وأخطر وقد دامت خمسة عشر عاماً**. مررت بكل مراحل الحروب ولا أريد ان أذكر شيئاً منها لأنها كانت الأعنف والأوسخ في الكرة الأرضية. وما دفعني إلى جمع هذه المذكرات هو حبي لوالدي ولذكراه الطيبة، وكتبتها لتبقى ذكرى لأولاده وأهله ومن عرفه. كان أسلوبه في الكتابة وكأنه يشرح عملية حسابية بكل وقائع سرد القصة، لم يك كاتباً ولا روائياً بل كان أستاذاً ومعلماً وقائداً ورائداً في تنظيمه فهو أحد مؤسسي الحركة الكشفية وحزب النجّادة في بيروت. تركت الألفاظ اللغوية والجمل والتعابير كما جاءت حرفياً كي أحافظ على طابع اللغة عنده. كان في الستين من عمره عندما كتب هذه المذكرات أي عن مرحلة كان عمره في ذلك الوقت سبعة عشر عاماً، وكان دائماً يقول إنه عامل جنود الفرقة كأولاده وهو كان بعمر أولادهم. وكنت في كل مرة ألغي كلمة المعاملة الأبوية وأضع مكانها المعاملة الأخوية إذ نسي أنه في ذلك الوقت كان عمره سبعة عشر عاماً. كان محباً للسفر وكان يقوم برحلات طلابية كشفية يزور بها أقطار العالم. ذهب إلى أولمبياد برلين سنة ١٩٣٦ وكانت رحلة مشهورة ضمت نخبة من الشباب منهم وزراء اليوم ومدراء وأساتذة، كما ضمت الرحلة بعض السيدات مثل السيدة أديبة قربان والسيدة ماري فيصل والسادة رامز أبيض وبرهان الحص وأنيس كرم عون ومحمد فليفل وعزت الداعوق وغيرهم.

بيروت داخل الســور



بيروت القرن الســابع عشر - مطلع التاسع عشر داخل السور وأبوابه منافذ إلى الخارج ومحمية بحراس ونقاط عسكرية ومدافنها خارج الســور



مرفأ بيروت سنة ١٨٤٢ ويُرى علم النمسا فوق وكالة نمسوية تجارية وشرقاً علم تركي فوق برج القلعة بريشة Leander Russ



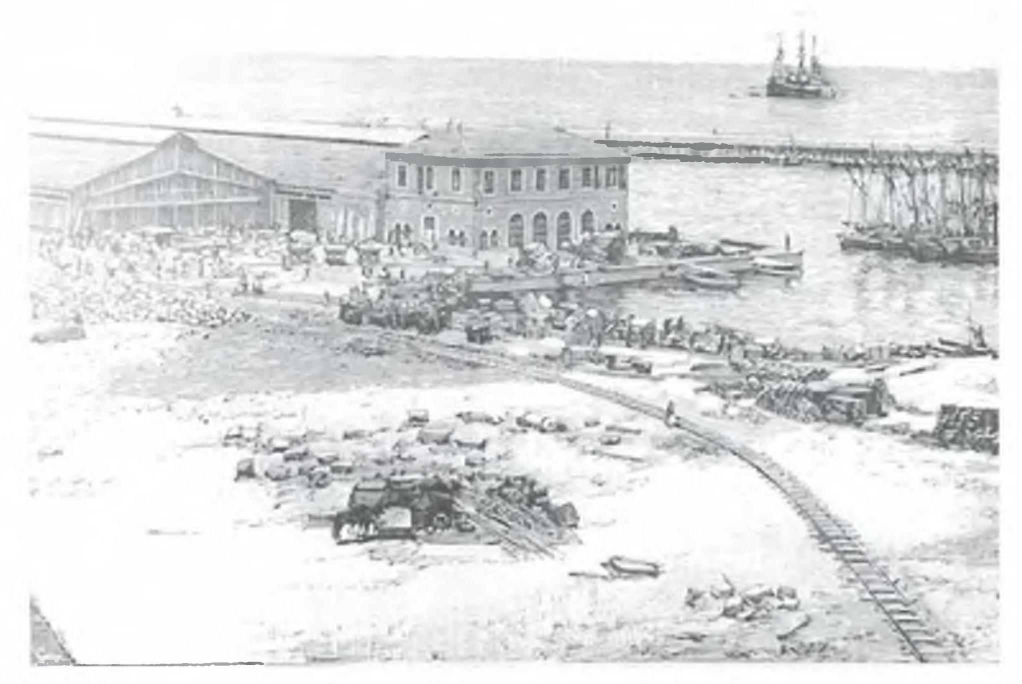
بيروت ١٨٧٣ محاطة بالسور المحمي بنقاط عسكرية برية وبحرية وطرقها الموصلة بالخارج



بيروت ١٨٤١ تنتظم وتتوسع وتنمو ومحاولات بطيئة للخروج من السور



تزايد سكان بيروت السور وضاقت عليهم ١٨٥٩ منازلهم فخرج من السور المتزوجون الجدد والأغنياء ويتزايد التوسع وتتعدد الأسباب ويرى الانتشار العمراني خارج السور

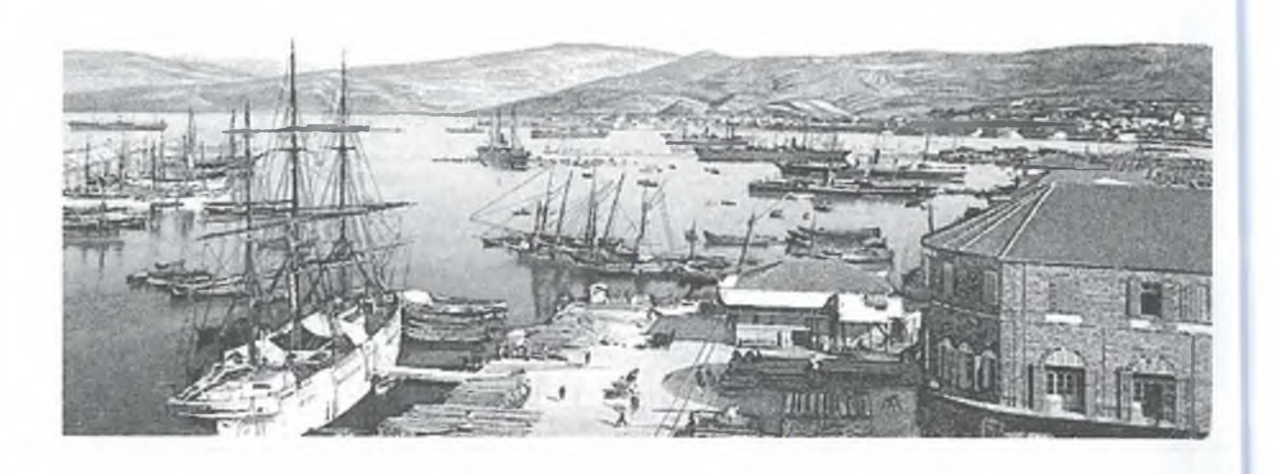


١٠ إطالة جسر(سنسول) كاسر للأمواج يحمي السفن مع أبنية جمركية وسكة حديد ومخازن للبضائع



توسع مدينة بيروت ١٨٧٠ عرضاً وطولاً(شرقاً وغرباً-شمالاً وجنوباً) بأحياء وعائلات وشوارع جديدة خارج السور

الامتداد العمراني المديني والبناء خايط ما بين أسلوب تركي هندسي أو بين إيطالي وفرنسي من الخارج وشرقي من الداخل متشابه مع كثير من مدن حوض البحر الأبيض المتوسط



الإقبال التجاري على مرفأ بيروت أواخر القرن ١٩ وتنامي الحالة الاقتصادية-الاجتماعية-الثقافية



آخر إجراء إداري(جغرافي/ سياسي) قامت به سلطات(المابين) العثمانية بتنظيم ولاية بيروت الإدارية منذ ١٨٨٨ حتى ١٩١٨ من اللاذقية حتى شمال يافا

منطقة وبيئة عائلة عبدالله دبوس بالصور



تلال عين المريسة



جزء من رأس بيروت في أواخر القرن التاسع عشر ويُرى (السهم) رأس عين المريسة بني عليه فندق السان جورج سنة ١٩٣٢ وإلى اليسار نزولاً جل البحر



صورة التقطت عام ١٨٨٠ لمدفن السنطية التي كانت خارج السور غرب المدينة، فيما بعد صارت ضمن الانتظام العمراني للمدينة وجزءاً منه ويبدو خلفها ميناء الحصن ومبانٍ سكنية من طبقتين وثلاث طبقات وأربع، بقي المدفن يستعمل حتى ثمانينات القرن الماضي ثم جُرفت الأرض مع بقية الأراضي التي وضعت اليد عليها (شركة سوليدير)



عين المريسة ١٨٨٦ والمباني الظاهرة في أحياء جديدة خارج السور وعمرها أكثر من ٤٠ سنة
وخلف الشباب إلى يسار الصورة فندقا قصر الشرق ويسول

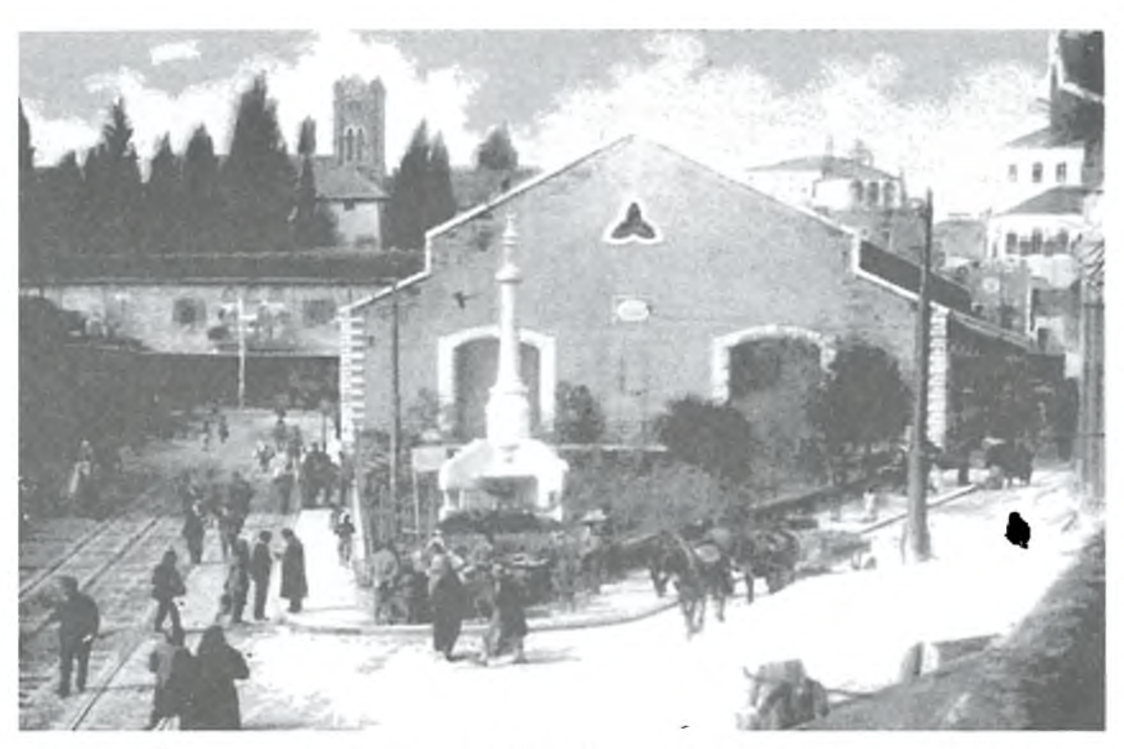


الروشة بعد سنة ١٩١٩ وترى أعمدة البرق الفرنسية (أوجيرو) في تلال قريطم
نصبت مع الانتداب الفرنسي

منارة رأس بيروت سنة ١٩٠٠ التي أوقفت عملها خلال سنوات الحرب ١٩١٤-١٩١٨
وعاودته إبان دخول القوات الانكليزية والفرنسية



بيروت من دون السور ونقطة عسكرية سنة ١٨٥٦ قبل استكمال بناء القشلة (الثكنة)،
ومستشفاها العسكري ويُرى جزء من القلعة البحرية ومساجد



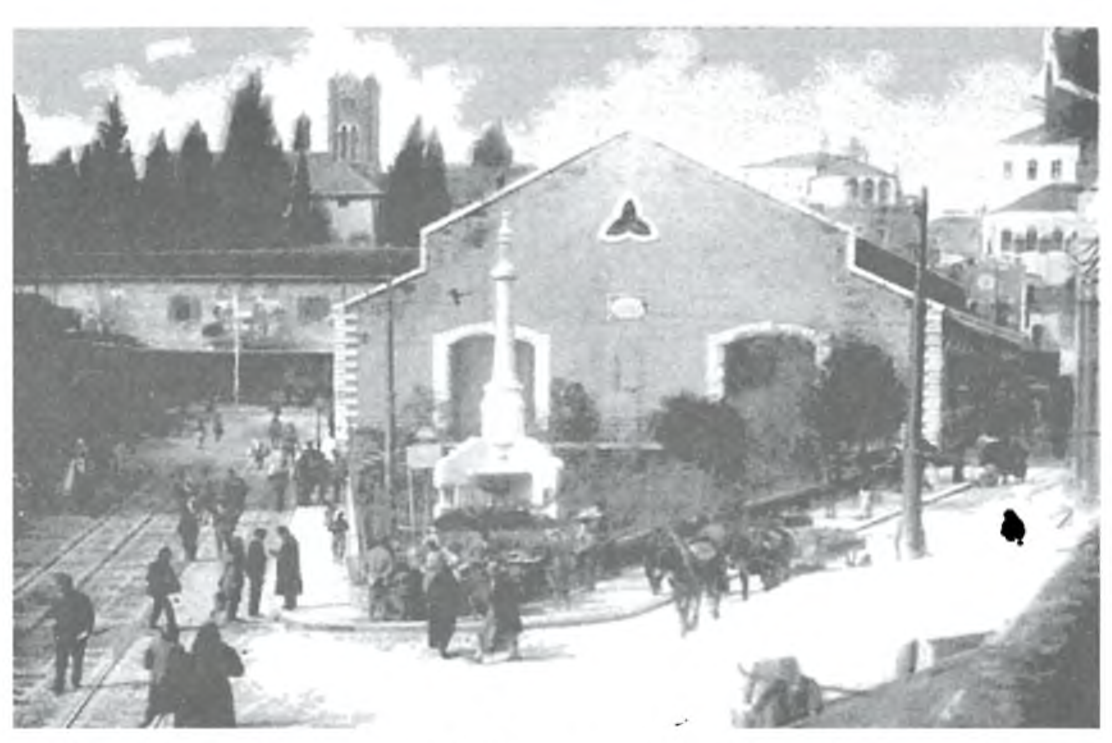
السبيل الحميدي (مقدم الصورة) أنشئ سنة ١٩٠٠ بمناسبة تولي السلطان العرش قبل ٢٥ عاماً من هندسة وابتكار مهندس ولاية بيروت المرحوم يوسف أفندي أفتيموس ودُشِّنَ بحضور الوالي رشيد بك وبعد ١٦ سنة بني خلفه السوق (المجمع) لبيع المواد الغذائية من الخضار والبقول والسمون والزيوت بني في عهد أحمد جمال باشا بالتنسيق مع الوالي عزمي بك ومتابعة عمر بك الداعوق رئيس بلدية بيروت (حالياً تدعى ساحة رياض الصلح) ويبدو طرف من الثكنة العسكرية ظاهراً إلى يمين أعلى الصورة (حالياً السرايا الكبيرة) وإلى اليسار برج ساعة المطبعة الاميركية أعلى وسط الصورة

منارة رأس بيروت سنة ١٩٠٠ التي أوقفت عملها خلال سنوات الحرب ١٩١٤-١٩١٨
وعاودته إبان دخول القوات الانكليزية والفرنسية



بيروت من دون السور ونقطة عسكرية سنة ١٨٥٦ قبل استكمال بناء القشلة (الثكنة)،
ومستشفاها العسكري ويُرى جزء من القلعة البحرية ومساجد

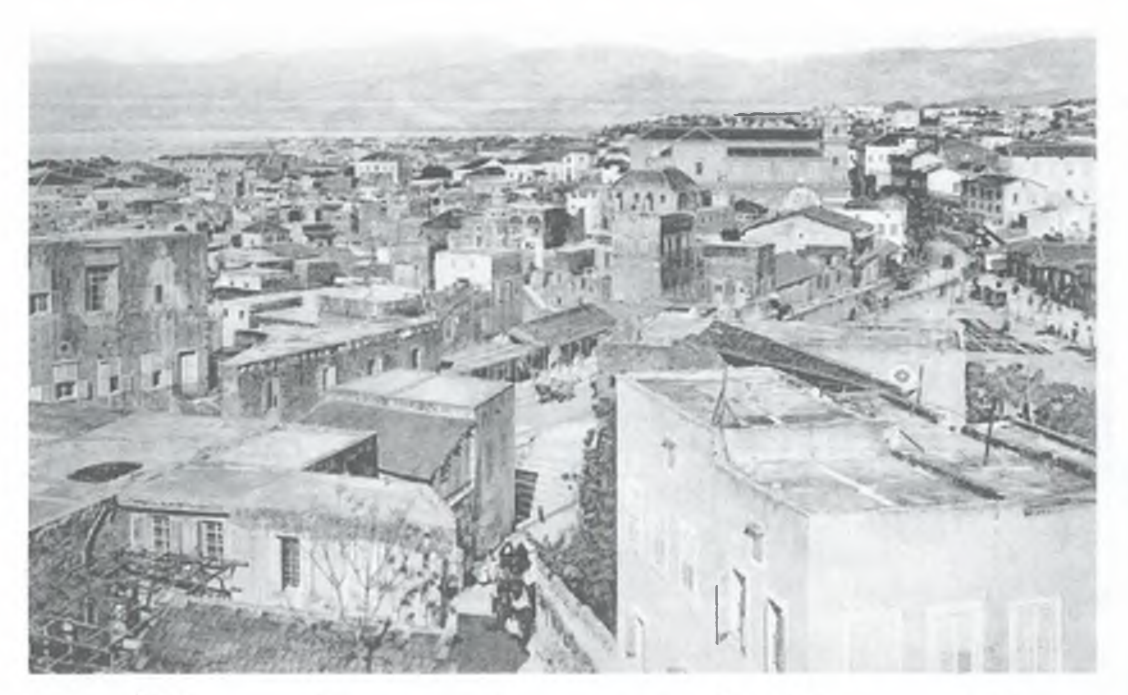
تعريف بعبدالله دبوس



السبيل الحميدي (مقدم الصورة) أنشئ سنة ١٩٠٠ بمناسبة تولي السلطان العرش قبل ٢٥ عاماً من هندسة وابتكار مهندس ولاية بيروت المرحوم يوسف أفندي أفتيموس ودُشِّنَ بحضور الوالي رشيد بك وبعد ١٦ سنة بني خلفه السوق (المجمع) لبيع المواد الغذائية من الخضار والبقول والسمون والزيوت بني في عهد أحمد جمال باشا بالتنسيق مع الوالي عزمي بك ومتابعة عمر بك الداعوق رئيس بلدية بيروت (حالياً تدعى ساحة رياض الصلح) ويبدو طرف من الثكنة العسكرية ظاهراً إلى يمين أعلى الصورة (حالياً السرايا الكبيرة) وإلى اليسار برج ساعة المطبعة الاميركية أعلى وسط الصورة



إلى اليمين كاتدرائية مار جرجس المارونية وفي أعلى الصورة برج المطبعة الأميركية وكانت في فترة الكلية الإنجيلية السورية قبل ١٩٠٠



إلى اليمين وسط الصورة كاتدرائية مار جرجس المارونية وسط بيروت هكذا بدا من مطبعة الأميركان قبل الـ ١٩٠٠ وتبدو في الخلف جبال المتن الشمالي وكسروان



يميناً يؤدي إلى سراي البرج وتوسعة الشارع بهدم البيوت القديمة ويساراً إلى باب إدريس أما نزولاً فسمي فيما بعد بشارع اللنبي



ساحة البرج / الوحدة/ المدفع، المدينة المتوسطية الناشئة بيروت



بيروت مطالع القرن العشرين من روابي الأشرفية

المذكرات

الفصل الأول

ست وستون ليرة ذهبية

الدولة العثمانية التي امتد سلطانها الى فيينا في اوروبا، ومراكش في شمال افريقيا وعدن وعُمان في الجزيرة العربية والهند وافغانستان في الشرق وتركستان والقوقاز والقرم في الشمال كان شأنها شأن باقي الامبراطوريات، شبت وترعرعت وبلغت أوج قوتها ثم



السلطنة العثمانية في أقصى اتساع لها

أخذت في الانحلال حتى أصبحت في اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مطمح انظار دول اوروبا فأطلقوا عليها اسم "الرجل المريض". وتداولوا حول تقسيم تركة هذا المريض فاتفقوا احياناً واختلفوا احياناً أخرى، وعمل السلطان عبدالحميد بما أوتي من دهاء ومكر على عرقلة هذا الزحف بزرع بذور الشقاق بين الدول الطامحة تارة وبالتهديد في إعلان حرب صليبية تارة اخرى. لكن هذا لم يحل دون انسلاخ الولايات والدول الواحدة بعد الأخرى. منها من انتزع استقلاله بمساعدة دول اوروبا ومنها من اغتصبته هذه الدول بطرقها الدبلوماسية الماكرة. كانت الامبراطورية العثمانية في عهد عبدالحميد عبارة عن بناء ضخم متصدع مهدد بالانهيار في كل لحظة وصاحبه يضع الدعائم الموقتة لتأخير هذا الانهيار ليظل قائماً حتى يومه الاخير. تربع السلطان عبدالحميد على عرش السلطنة العثمانية من ١٨٧٦-١٩٠٩.



السلطان عبدالحميد الثاني خليفة المسلمين الـ ٣٤ ابن السلطان عبدالمجيد الأول، ولد في ٢١ سبتمبر ١٨٤٢، (تولى الحكم عام ١٨٧٦، عزل عن العرش عام ١٩٠٩) توفي في ١٠\٢\١٩١٨.

مدة ٣٣ سنة انصرف فيها بكليته الى المحافظة على حياته. محاطاً بجهاز الجاسوسية الضخم (سر خفية) وجيش لجب من الحرس والقصور العديدة بمداخلها السرية، السلاح على انواعه في غرف النوم وقاعات الجلوس حتى ان ارجل الكراسي والمناضد مصنوعة من البنادق والمسدسات. أفراد الاسرة المالكة مسجونين في قصور يلديز.



جانب من قصر يلديز (النجمة) الذي كان مقر السلطان عبدالحميد الثاني منذ ١٨٨٩ وحتى عزله سنة ١٩٠٩.

كان يقضي ساعات الطويلة في التدرب على الرماية حتى اصبح بامكانه ان يكتب اسمه على لوحة الهدف برصاص المسدس. كل هذا التدبير كان لحماية روحه من الاغتيال الذي كان يترقبه كل يوم. كانت هوايته الرماية والمصنوعات الخشبية واقتناء التحف الثمينة من سائر اقطار العالم. ذات يوم كان السلطان عبدالحميد مع بعض وزرائه في مجلس لهو وكان قزم يقوم باعاجيبه ولما اخذ هذا القزم قضيباً من الحديد وادخله في زلعومه حتى اختفى طرفه الأخير في فمه أعلن السلطان دهشته فقال احد الوزراء واسمه فؤاد باشا. وكان يلقب بـ دلّي باشا او(فؤاد المجنون) لا تعجب يا سيدي فان بين وزرائك من يستطيع ابتلاع

دارعة باكملها. فغضب السلطان لهذه الغمزة وضرب الوزير على رأسه فالتوى الطربوش فوق رأسه تحت الشرّابة واحتمل دلّي باشا هذه الاهانة وضغط الطية في طربوشه وشاعت هذه الحادثة في استانبول فاخذ اهلها يلبسون الطربوش مع طية فيه ثم شاعت في جميع البلاد العثمانية، فكان الواحد يطوي طربوشه من دون ان يعلم سببها. لا تسل عن اسباب الترف والمجون ومئات الحريم والحواشي والرشوة من قمة الهرم الى اصغر المأمورين. فساد وسرقات وظلم واستهتار بأموال الدولة وقوانينها. على الرغم من هذا كله فالسلطان عبدالحميد يُنادى به من على منابر المساجد السلطان ابن سلطان البرين والبحرين



المشير فؤاد باشا(دلي) ١٨٣٥-١٩٣١

وخادم الحرمين الشريفين خليفة المسلمين المنتشرين في أقطار الأرض واستانبول مقر الخلافة الاسلامية والقبلة الثانية بعد الكعبة المشرفة. هذا هو وضع الدولة العثمانية في العقد

الأول من القرن العشرين وكانت أكثر الشعوب تتحضر للتمرد والثورة والسلطان يعمل على كبح جماح هذه الثورة في شتى أقطار الدولة العثمانية بالمسكنات الموقتة من دون تفكير بالاصلاح المنشود لكنه لم يستطع مقاومة الانقلاب الذي قام به رجال الجيش بزعامة أنور بك. كان للدولة العثمانية جيش مرابط في سيلانيك من أشهر مدن البلقان الواقعة على ساحل بحر ايجة، والضباط كانوا من خريجي المدرسة الحربية في المانيا.



النقيب أنور بك (١٨٨١-١٩٢٢)

ألف هؤلاء الضباط حزباً أسموه "جون تورك" أو الشباب الأتراك ورسموا الخطة لخلع السلطان عبدالحميد.



وفد نيابي ألفه الإتحاديون من ٤ نواب: يهودي والباني وارمني ولازي لتبليغ السلطان عبدالحميد بفتوى شيخ الاسلام بعزله عن العرش

فزحفوا بفرقة من سيلانيك الى استانبول على حين غفلة وهاجموا قصر يلديز وطوقوه من جميع اطرافه وعملوا على شل عمل الحرس المرابط ودخل انور بك ونيازي بك القصر الرئيسي وفاجآ السلطان جالساً على كرسيه وما ان شاهدهم حتى بادر الى خلع البندقية من الكرسي التي أعدها لساعة كهذه. فبادره انور بالقول: قبل ان تطلق النار انظر الى النوافذ من حولك فصعق السلطان إذ شاهد مئات البنادق مسددة اليه عبر النوافذ فالقى البندقية من يده وطلب الرحمة قائلاً: افعلوا ما تريدون شرط ان تبقوا على حياتي. فوعده انور خيراً،

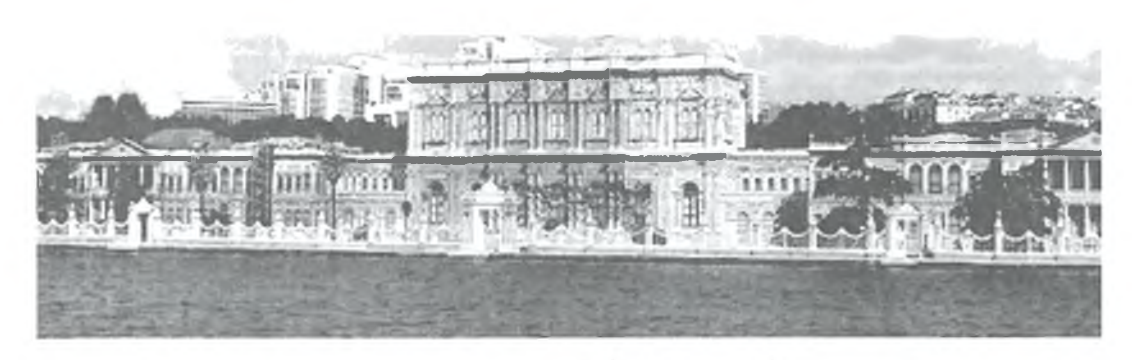


يساراً نيازي بك(١٨٧٣-١٩١٢) وانور يميناً يمثلان تركيا الفتاة التي قيدت السلطان عبدالحميد بشروط الدستور ويرى في الوسط مكمم الفم

وأبعدوه إلى سيلانيك ثم أعادوه إلى استانبول وأُسكن في قصر السلطنة على شاطئ البوسفور«دولمه بهجة» ليبقى تحت أعينهم مباشرة فبقي فيه سجيناً حتى وافته المنية ابان الحرب العظمى الأولى. ثم جاءوا بأخيه محمد رشاد وأقاموه على العرش، لكن هذا كان طاعناً في السن ضعيف الارادة، جاهلاً ذا كرش بارز ووجه متورم وعينين جاحظتين لا يرى فيه الناظر إلا كتلة لحم وشحم. فكان دمية في أيديهم يوقع على ما يقدمه له انور من الأوراق ويخضع لبروتوكولات «السلاملك» في ذهابه إلى المسجد ظهر كل يوم جمعة والعودة إلى قصره حيث تحييه الوف الجنود على جانبي الطريق وتعزف جوقات الموسيقى المتعددة.



السلطان محمد رشاد الخامس (و١٨٤٤/ حكم ١٩٠٩ - ت١٩١٨)



قصر دولمه بهجة (Dolmabahçe Sarayı)

أقيم القصر على الضفة الأوروبية من البوسفور في إستانبول في تركيا. استغرق بناء القصر من ١٨٤٣ و١٨٥٦ بطلب من السلطان عبد المجيد وهو السلطان العثماني الحادي والثلاثين، بكلفة خمسة مليون ليرة ذهبية عُثمانية مستخدمين فيه أربعة عشر طناً من الذهب ضمن بناء القصر لتذهيب سقوف القصر. كان مقر إقامة السلطان العثماني ومركز الإداري الحكم للسلطنة العثمانية من عام ١٨٥٦ حتى ١٨٨٩. وأعاد الاتحاديون السلطان عبدالحميد المعزول من منفاه في سيلانيك إلى «دولمة بهجة» في استانبول ليقيم فيه تحت أنظارهم حتى وفاته. ومنذ ١٩٢٢ إتخذه مصطفى كمال لـ «دولمة بهجة» قصرا جمهوريا منذ عام ١٩٢٢. (أرض القصر قبل بنائه كانت جزءًا من مياه البوسفور تم (ردمها) (دولمة) وجعلها حديقة غناء متعة (للنظر)(بهجة)).

ولقد حضرت هذا «السلاملك» مع فرقة الكشافة التي زارت استانبول في صيف ١٩١٤ قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى ووقفنا صفاً قرب المسجد الواقع عند المدخل الرئيسي لقصور يلديز وقدمت لنا الليموناضة وتحدث الينا انور باشا يومئذٍ وأعجب بالبعض منا الذين كانوا يحسنون اللغة التركية أذكر منهم المرحومين محمد سعيد دبوس وعبدالحليم اللاذقي ولفت أنور باشا نظرنا إلى ضيق الوقت ووجوب عزف المارش الشاهاني مرة واحدة لا مرتين. ولما أقبل السلطان في عربته واخذنا نعزف المارش طغى الحماس على ضارب الطبل فلم يتوقف وتابع الضرب ما اضطر الباقون إلى مجاراته في العزف مرة ثانية. وبعدها تحدث السلطان بصوت منخفض إلى ياوره الواقف على الأرض جانب يمين العربة، ثم أخذ يترجم لنا ما قاله السلطان فحييناه بالصرخات باشا باشا باشا وتابع سيره إلى الجامع تتبعه

عربة الحريم التي كانت تأتي معه فيدخل المسجد وهي تبقى في العربات تنتظر خروجه. كانت جمعية جون تورك قابضة على زمام الحكم ومن ابرز رجالها نيازي، انور، طلعت، جاويد وجمال، فكل هؤلاء حازوا لقب باشا الا نيازي الذي قتل قبل حوزتهم اللقب. وقد سيّر هؤلاء الفتية الدولة بحسب مشيئتهم، فكانوا على اتصال وثيق بالمانيا وكانت المانيا هي المسيّرة لهذه الحركة. أعلن هؤلاء رغبتهم باصلاح الدولة ومنع الرشوة والفساد ونشر التعليم، وجعلوا شعار الدولة (حرية عدالة مساواة) متشبهين بالثورة الفرنسية وانتظر الشعب تغييراً واصلاحاً منذ ١٩٠٨، لكن الذي ثبت ان هؤلاء لم يكن عندهم شيء من مقومات الاصلاح، ولم يعمل احدهم على اصلاح نفسه، بل أمعنوا في ممارسة الموبقات والاستهتار وحياة البذخ مع ان الفرصة سنحت لهم لتقويم الدولة واعادتها لسابق مجدها، لكن فاقد الشيء لا يعطيه.



طلعت بك (١٨٧٤-١٩٢١)



الإسم الحقيقي (داود) من الدونمة وعرف بـ محمد جاويد (١٨٧٥-١٩٢٦)

والشعار بقي أجوف، من دون تطبيق. أوجس المستعمرون والشعوب الطامحة للاستقلال خيفة في بادئ الامر لكنهم لم يلبثوا ان وقفوا على حقيقة قوة الدولة وباشروا اعمالهم العدوانية، فثارت شعوب البلقان، واحتلت ايطاليا طرابلس الغرب(ليبيا اليوم) فدافع انور باشا عن البلقان ووقف جيشه المتداعي يحاول صد هجوم جيوش البلقان المؤلفة من الصرب والجبل الأسود واليونان والبلغار.



أحمد جمال باشا (١٨٧٢-١٩٢٢)

زحفت هذه الجيوش حتى بلغت شط بحر ايجه عند ابواب استانبول، فقام البلغار بأشنع ما عرفه التاريخ من تقتيل وتدمير وأجمعت الدول العظمى على الوضع الراهن أي بسلخ جميع الولايات العثمانية من البلقان باستثناء استانبول عن الامبراطورية واعتبارها قسمة بين الدول الظافرة إلا ان انور باشا فاجأ مدينة ادرنة بجيش فدائي واستخلصها من البلغار بأعجوبة قبل اتخاذ القرار النهائي وبذلك بقيت ولاية ادرنة تحت الحكم العثماني إضافة إلى ولاية استانبول. ومنذ ذلك التاريخ عُرف انور ببطل ادرنة. أما ليبيا فقد دافع عنها رجالها دفاعاً مستميتاً ضد الايطاليين، وتسلّلَ أنور باشا سراً إلى ليبيا وأخذ ينظم الدفاع مع

السنوسي الكبير ملك ليبيا ودامت الحرب طويلاً ذاق فيها الايطاليون الأمرّين فلجأوا إلى الاعمال الوحشية فقتلوا النساء والاطفال والشيوخ، ورموا الأسرى من الطائرات المحلّقة لإرهاب الليبيين وفي عام ١٩١٢ هاجم الاسطول الايطالي مرفأ بيروت فأصاب الدارعة «عون الله» التي كانت راسية وسفينة التوربيد «ياووز» وقتل كثير من الناس. وفي استانبول دبر أنور باشا مقتل ولي العهد يوسف عزالدين الذي كان ضد جمعية الاتحاد والترقي منذ نشأتها وانقلابهم على السلطان عبدالحميد وتفردهم بالسلطة(١٩٠٨-١٩١٦).



غرق الدارعة التركية(عون الله) في مياه مرفأ بيروت وتضرر سفن وزوارق أخرى ومقتل مدنيين ومؤسسات مجاورة وانتشار حالة رعب في المدينة(المنظر من البحر)



ولي العهد يوسف عزالدين (١٨٥٧- ١٩١٦)

فأعطوه السم واعلنوا في الجرائد انه انتحر وحملوا بعض الاطباء على توقيع شهادة الانتحار وأرغموا ألوف العائلات التركية على الهجرة إلى اواسط الاناضول إتقاءً لشرهم.



الفريق محمد أسعد باشا (١٨٦٢-١٩٥٢) قائد جبهة الدردنيل وإلى يمينه العقيد مصطفى كمال (١٨٨١-١٩٣٨) مع ضباط ألمان وأتراك قادة الوحدات والتشكيلات العثمانية المقاتلة في جناق قلعة

أما مصطفى كمال بك فرغم انه كان من زملاء انور باشا وباقي الاعضاء الا انه كان مخالفاً لكل ما رسموه من خطط ولم يوافق على الانضمام إلى جمعيتهم رغم كل محاولاتهم، وقد برز بحرب الدردنيل في «جناق قلعة» حيث طرد الحلفاء ثم بعد ٤ سنوات طرد الفرنسيين

من كيليكيا واليونانيين من ازمير والانكليز من استانبول وأسَّس جمهورية تركيا الحديثة والنهوض بها إلى أعلى درجات القوة والمجد.

الوضع في تركيا سنة ١٩١٤ قبيل الحرب العالمية العظمى

في اول تموز سنة ١٩١٤ قامت فرقة من الكشاف العثماني برحلتها الثالثة إلى استانبول فكانت، هذه أول فرقة كشفية تأسست في الشرق عام ١٩١٢ في مدرسة دار العلوم وقامت برحلتها الأولى إلى صيدا سنة ١٩١٢ ورحلتها الثانية إلى دمشق سنة ١٩١٣ واللذان أسسا الحركة الكشفية في ديارنا هما عبدالجبار خيري وأخوه عبدالستار خيري اثنان من ابناء محافظة دلهي العشرة. وبعد ان نالا شهادة البكالوريوس قصدا إلى مصر ثم إلى بيروت ليتمما تحصيلهما العلمي في الجامعة الاميركية، الأول أستاذ في علوم الكيمياء والثاني أستاذ



الجامعة الأميركية في بيروت ١٩١٠

في علوم الفلك وكانا يتعلمان لقاء خدمة على المائدة وفي المكتبة، اذ انهما خرجا من دلهي على خلاف مع والدهما وزوجته. كان عبد الجبار غريب الأطوار يحمل فكرة كبيرة ويسعى إلى تحقيقها وهي فكرة الجامعة الاسلامية. كان يعتقد ان مقر الخلافة هو استانبول ويجب

ان يكون كعبة المسلمين الثانية لسائر اقطار الأرض على اختلاف اجناسهم والوانهم وانه لا مناص للتخلص من مخالب الدول الاستعمارية الممتدة إلى الاقطار الاسلامية إلا في جمع كلمة المسلمين ولا سبيل إلى جمع كلمتهم سوى بالخلافة في استانبول. لذلك قرر ان يقف حياته على بث الدعوة للجامعة الاسلامية، فشرع في انشاء مدرسة في بيروت اسمها دار العلوم، واخذ يبث دعوته بين الطلبة والأهلين متخذاً هذه المدرسة نقطة انطلاق وتقدم لمساعدته نفر من وجهاء المدينة أمثال المغفور لهم عمر الداعوق ونجيب العيتاني والشيخ توفيق الهبري وعبدالرحمن بيهم وأحمد أياس ورامز غزاوي وغيرهم. فازدهرت المدرسة وتميزت بالطرق التربوية الحديثة وكان النشاط بالغاً ذروته في الألعاب الرياضية والزراعية والصناعية والأشغال اليدوية، ما يألفه الأهلون بل عدّوه من أعمال اللهو وضياع الوقت وفي سنة ١٩١٢ عاد عبد الجبار من أوروبا يحمل فكرة الكشفية التي ظهرت في انكلترا سنة ١٩٠٨ فأسس الفرقة الأولى وأطلق عليها اسم الكشاف العثماني. كان أخي المرحوم محمد سعيد عريف الطليعة الأولى ونائب القائد وكنت انا عريف الطليعة الثانية. كان عبدالجبار دائباً على توثيق الصلة مع مقر الخلافة وانور باشا بالذات فتمكن من الحصول على فرمان أو تصريح شاهاني بالنص الآتي(غير حماية حضرة خلافت بناهي) أي ان مدرسة دار العلوم اصبحت تحت حماية الخلافة العظمى. فشملت الدولة هذه المدرسة برعايتها ووعد انور باشا بتقديم ما تحتاجه من المساعدة وقبل صيف سنة ١٩١٤ أعلن عبدالجبار عزمه على القيام برحلة مع فرقة الكشافة إلى استانبول، وارسل البرقيات إلى المراجع في استانبول فرحب انور باشا بهذه الزيارة واصدر اوامره باعداد اسباب الضيافة، ولما دخلنا ميناء استانبول وجدنا انور باشا يرافقه عدد كبير من الشخصيات التركية البارزة فرحب بنا وصافحنا واحداً واحداً وكان عددنا اربعين ثم رافقتنا الجماهير وموسيقى الجيش إلى الكلية السلطانية عند الباب العالي حيث قضينا في ضيافتها مدة اربعين يوماً. وقد رحب بنا أهل استانبول واعجبوا بمظهرنا وقدموا لنا انواع الشراب والحلوى مجاناً ورافقنا مفتش معارف العاصمة في زيارة المتاحف والآثار والمساجد والمنتزهات وكنا نلاقي ضروب الحفاوة والتكريم اينما حللنا وذهبنا بقيادة أخي محمد سعيد دبوس لحضور السلاملك في قصر يلديز. قمنا برحلة كشفية تتبعنا

فيها أثر الفرقة الكشفية التي أسسها احمد روبنسون حديثاً في الكلية السلطانية وقادها في رحلته الأولى إلى شيلة على شاطئ البحر الأسود، وكان أفرادها مسلحين ببنادق الماوزر.



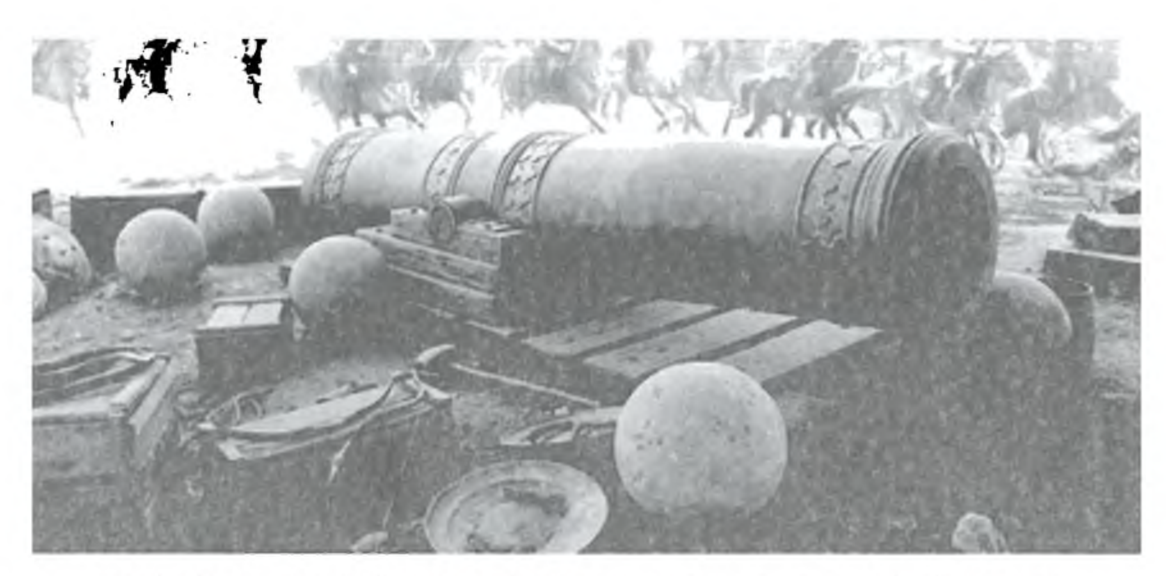
احمد روبنسون (١٨٦٨/ ١٨٨٦) Ahmet Robenson

فاجأنا هذه الفرقة في غابة وهي تعد طعام الغداء فانقضّ كشافونا من الجهات الأربع على كشافة استانبول من دون ان نترك لهم وقتاً يلجأون فيه إلى سلاحهم، فأعلن روبنسون استسلامه وأمر ان تستضيف كل طليعة منهم طليعة منا، وقد أعجب بهذه المفاجأة، وقال: هذا هو السبب الذي حملني على كتمان الرحلة عنكم لأن الفرقة حديثة العهد وقد خشيت ان نكون موضع ازدرائكم في تصرفاتنا الكشفية.



السلطان محمد الفاتح «ابو الخيرات» (١٤٣٢-١٤٨١)

زرنا في استانبول المتحف العسكري الذي ضم نماذج السلاح منذ ثمانمئة عام. السيف والمذاريق والمنجنيق والدروع والملابس والاعلام وفيها أعلام الدول التي أخضعتها واسلحتها المتنوعة وشاهدنا المدفع الذي استُعمل في هدم أسوار (القسطنطينية) استانبول بقيادة السلطان محمد الفاتح.



نموذج للمدفع العملاق معروض ضمن لوحة بانورامية ضخمة تمثل عملية فتح القسطنطية في المتحف التاريخي العسكري في استانبول

والطائرة التي قتل فيها فتحي وصادق أول طيارين تركيين قاما برحلة انتهت في بيروت فاستقبلهما عشرات الالوف من البيروتيين في روابي شوران.



الناس حول الطائرة على روابي رأس بيروت

ولدى عودتهما اصطدمت طائرتهما بقمة جبل في جنوب سلسلة جبال لبنان الشرقية فتحطمت وقضى البطلان نحبهما ودفنا في المسجد الأموي بجوار لحد السلطان صلاح الدين الأيوبي.



الطياران التركيان(فتحي وصادق) اللذان لقيا حتفهما قرب طبريا في شباط ١٩١٤

وشاهدنا سيف علي بن ابي طالب(ذو الفقار) وسيف خالد بن الوليد ولباس صلاح الدين الأيوبي الحربي. شاهدنا المجالس السلطانية المصنوعة من الشمع على اختلاف انواعها وازمنتها وشاهدنا الكثير من مخلفات الحروب والفتوحات من عهد السلطان

عثمان مؤسس الدولة العثمانية. قمنا بزيارة لمضيق الدردنيل والقلاع على جانبيه وقالوا لنا ان هذا بسبب حصانته لا تستطيع سمكة ان تجتازه من دون علم الحامية العسكرية وان اضخم الاساطيل لا يستطيع ان يدنو منه والدارعة التي تجازف بالمرور يكون مصيرها قاع البحر. نصبنا خيامنا بجوار سان ستيفانو القرية المشرفة على شاطئ بحر مرمرة وكانت غاية عبد الجبار ان يبرهن لأهل استانبول اننا كشافة نستطيع ان نعيش في خيامنا ونطبخ طعامنا بأيدينا واننا في زيارتنا هذه لم نكن نعتمد على ضيافة الدولة. اما قرية سان ستيفانو فقد أخذت اسمها من المعاهدة التاريخية الجائرة التي ابرمت بين روسيا والدولة العثمانية عندما اجتاحت جيوش روسيا الأراضي التركية وبلغت هذه القرية بالذات، عندها تدخلت القوى العظمى اذ خشيت ان تقع العاصمة استانبول بيد الروس فتسيطر على منطقة الدردنيل ومضيقه ويختل التوازن الدولي. قبلت روسيا سحب جيوشها وابرمت معاهدة جائرة مع الدولة العثمانية واشترطت فيها شروطاً لم يسبق لدولة ان فرضتها، أذكر منها انه لا يجوز للضباط العثمانيين ان يحملوا سيوفهم البراقة ويجب ان يعلق السيف تحت السترة. وكثيراً ما سمعنا بعضهم في بلادنا يقول أهي شروط المسكوب(دولة موسكو) قضينا ٤٠ يوماً في ربوع استانبول. عدنا بحراً إلى بيروت ولم نكن ندري ان الدردنيل أقفل يوم خرجت باخرتنا منه أو بعد بضعة ايام وذلك عند ظهور بوادر الحرب العالمية. في بيروت خطر ببالنا



إحدى قلاع الدردنيل



مضيقا الدردنيل والبوسفور

أخي محمد سعيد وانا ان نقوم بجولة كشفية من ولاية بيروت (كانت تمتد من اللاذقية شمالاً إلى حيفا جنوباً ومن الساحل غرباً إلى المعلقة شرقاً). فقصدنا إلى الوالي بكر سامي بك وعرضنا عليه رغبتنا فأمر عبدالغني سني بك أمين سر الولاية يومئذٍ ان يكتب لنا توصية إلى جميع القائمقامين بوجوب تسهيل مهمتنا ومساعدتنا كل المساعدة. وكتب التوصية بالخط التركي الهمايوني أو الديواني فجاءت تحفة اثرية لا زلت احتفظ بها. قصدنا أولاً بعلبك وقدمنا هذا الفرمان إلى قائمقام بعلبك التركي فوضعه على رأسه ورحب بنا بلهفة لا حد لها ثم أمر بعربة فأقلتنا وهو يرافقنا إلى فندق خوام أشهر فندق في بعلبك وأسرّ القائمقام إلى

صاحب الفندق ببعض الكلمات فنهض وأمر بإعداد أفخر الأطعمة وخصص لنا أجمل غرفة في فندقه وقام بنفسه على خدمتنا وتناول الطعام على مائدتنا. قضينا ثلاثة ايام في ذلك الفندق أنستنا مشقات الرحلة وكان بودنا ان نتابع جولتنا الترفيهية لكننا عند مساء اليوم الثالث أخذ صاحب الفندق يكيل الشتائم للدولة التركية لأنها أعلنت الانضمام إلى المانيا وانها ستعلن الحرب على الحلفاء. وقد سمعته يقول: الخير لتركيا في هذه الحرب ان تبقى على الحياد وتستفيد من هذه الظروف فتنظم جيشها المهلهل وتعمر بلادها الخربة. ولما تأكد عندنا دخول تركيا الحرب قررنا العودة إلى بيروت إستعداداً للطوارئ.



بكر سامي بك «كوندوه» (١٨٦٧-١٩٣٣)



عبدالغني سني بك

الحرب العالمية الأولى في أوروبا في شهر آب ١٩١٤ نقلت جرائد بيروت أخبار الحرب العالمية الأولى وكانت البداية اغتيال ولي عهد النمسا في بلاد الصرب إحدى دول البلقان فاشترطت النمسا شروطاً جائرة ولما رُفضت هذه الشروط أعلنت النمسا الحرب على صربيا فساندتها فرنسا وانكلترا وروسيا بإعلان الحرب على النمسا وساندت المانيا النمسا بإعلان الحرب على هؤلاء جميعاً. وما يجدر ذكره هنا ان كل هذه الدول تبادلت عبارات النصح والتهديد قبل إعلان الحرب لكن امبراطور المانيا كان أعند من ان يخضع لهذا التهديد فهاجمت المانيا بالاشتراك مع النمسا كلا من فرنسا في الغرب وروسيا في الشرق، فاكتسحت جيوشهم بلجيكا وعاصمتها بروكسل فدكت حصونها لتدخل اراضي فرنسا وصولاً إلى ضواحي باريس.



رسم كاريكاتوري لجريدة صربية ثاني يوم الاغتيال



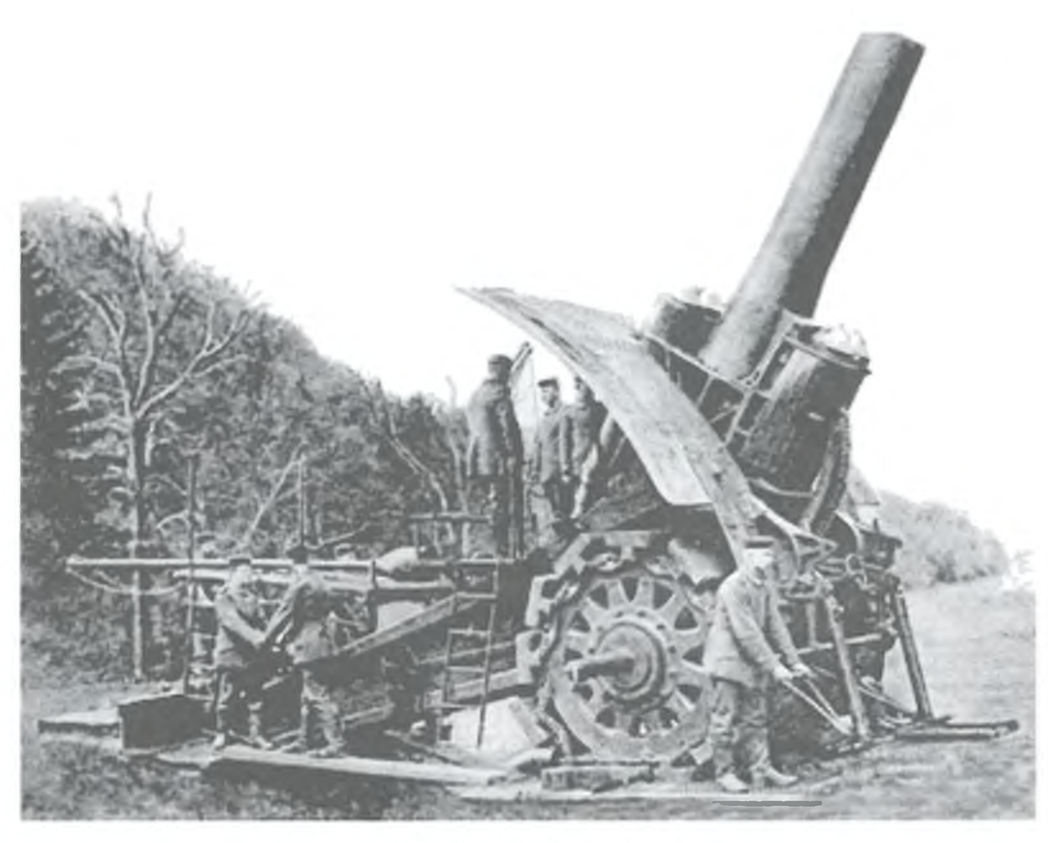
اجتياح الجيش الألماني للأراضي البلجيكية

وفي روسيا كانت جيوش بطرسبرغ تُباد بالألوف بفضل الرشاش الألماني والمدفع النمسوي وعملت على الفتك بمن نجا من جنود روس وتشتيتهم فلم تقم للجيش الروسي قائمة بعدها وحظي هندنبرغ قائد الجيوش الالمانية شهرة ما بعدها شهرة.



بول فون هندنبرغ (١٨٤٧-١٩٣٧) بعد الحرب رئيساً للجمهورية الألمانية **Paul von Hindenburg**

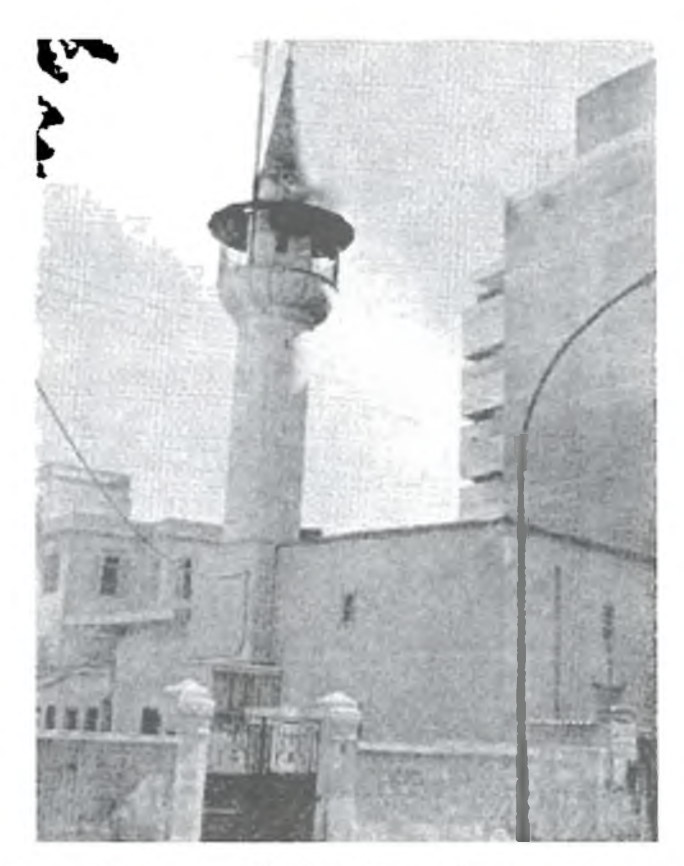
كانت الصحف في انحاء الامبراطورية العثمانية تشيد بانتصارات الألمان وبتفوقهم في الأسلحة الحربية الحديثة كالغواصات التي تفتك بأساطيل الحلفاء (بريطانيا، فرنسا، روسيا وايطاليا واتباعهم) ومدفع برتا عيار ٤٢٠ ملم الذي كان يقذف قنابله فتسقط في وسط باريس والطائرات السريعة من قاذفات قنابل والمدافع الرشاشة التي كانت تطلق ٦٠٠ رصاصة في الدقيقة والمدفعية النمسوية كانت آية في الرماية المحكمة. من هذا كله فهمنا ان الامبراطورية العثمانية كانت تعطف على جبهة المانيا التي كانت يطلق عليها جبهة الاتحاد. كانت المانيا مسيطرة على أعمال العسكريين الأتراك أوليسوا هم خريجي مدارسها



مدفع برتا عيار ٤٢٠ ملم

الحربية وقد ابهرتهم قوة المانيا واستعدادها الحربي؟. كانت المانيا تعتمد كل الاعتماد على تركيا ليس فقط لمواردها الغذائية والخامات الحربية، بل لموقعها الجغرافي أيضاً، إذ ان المضائق والبحار التي تسيطر عليها تمنع روسيا من الاتصال بحلفائها من جهة وتؤمن لألمانيا الاتصال بالشرق من جهة ثانية. ومما لا شك فيه ان المانيا كانت على اتفاق مع الزعماء العسكريين المسيطرين على الدولة العثمانية، لذا كنا ننتظر إعلان تركيا انضمامها إلى المانيا بين يوم وآخر. وقد صدق التقدير إذ اعلنت تركيا الحرب على الحلفاء وانضمامها إلى جبهة الاتحاد بزعامة المانيا. حينما ظهرت بوادر الحرب في أوروبا عاد عبدالجبار وأخوه إلى استانبول واتفقا وانور باشا على نقل مدرسة دار العلوم إلى مقر الخلافة ووعدهما انور بقطعة أرض على شاطئ البوسفور تصلح لبناء كلية اسلامية عظيمة عند انتهاء الحرب. وما ان اعلنت تركيا الحرب حتى قصدا إلى بيروت ليأخذا كل ما خفّ وزنه وغلا ثمنه من

معدات مدرسة دار العلوم الثمينة وينقلاها إلى استانبول. وقد عهدا إلى السيد عمر منيمنة بإدارة دار العلوم المصغرة وقد انكمشت إلى مدرسة ابتدائية تكتفي بثلاث غرف تابعة لجامع القنطاري وبضعة مدرسين.



مسجد القنطاري وبجانبه مدرسة ابو بكر الصديق كما بدا عام ١٩٧٥

ورغم اخلاص السيد عمر منيمنة ونشاطه والجهد الذي بذله لم تعش المدرسة أكثر من سنتين من سنوات الحرب. اضطربت الشعوب في اقطار الدولة العثمانية لخبر إعلان الحرب فتبدلت الاوضاع واخذ الكثير يُعدّ العدة لحرب طاحنة طويلة المدى أو ينتهز الفرصة للكسب المادي والاثراء. الصحف في بيروت واشهرها:


الاتحاد العثماني

١٣٢٦

(دعت إلى الإدارة اللامركزية تحت التاج العثماني) جريدة الاتحاد العثماني لصاحبها الشهيد أحمد حسن طبارة منذ ١٩٠٨ الرافض لمجيء قوات فرنسية عسكرية إلى بلاد الشام واستبدال إحتلال تركي بإحتلال فرنسي المطلب الذي كان يطالب به خليل زينية وايوب تابت وبول ارقش واميل اده وبشارة الخوري ودعيبس المر وبترو طراد وشكري غانم والعاملون في ارواد الناشطون مع الاسطول الفرنسي الثالث وفي مصر مع المطران يوسف دريان وجمعية النهضة اللبنانية. شارك الشيخ طبارة بفعالية ونشاط في جمعية بيروت الاصلاحية وفي المؤتمر السوري(العربي) الأول في باريس. لكن سلطات أحمد جمال باشا كانت تضيق عليه وأحرقوا المطبعة. أعدم في بيروت سنة ١٩١٦.


المفيد

١٣٢٧

جريدة وطنية علمية سياسية

المقدمة

سيادة الامة

(دعت إلى اللا مركزية الادارية) جريدة قومية عربية لمنشئها الشهيد عبدالغني العريسي المثقف المناهض للاستبداد الطوراني التركي وللإستيطان الصهيوني في فلسطين. كتب في المفيد الكثير من الشعراء والمفكرين والمثقفين العرب. كانت ادارتها في بيروت ثم انتقلت إلى دمشق متعاوناً مع الشهابي وزينية وعقل والمحمصاني والعسلي وعبدالوهاب الانكليزي، أغلقتها مرات عدة سلطات أحمد جمال باشا. العريسي من الناشطين في الدعوة إلى عقد مؤتمر عربي في باريس للسوريين الرافضين للاستبداد الطوراني والتريك. عاشت الجريدة سبع سنوات منذ ١٩٠٩ حتى استشهاد صاحبها عبدالغني العريسي الذي أعدم في بيروت ١٩١٦.



اشتراك الاقبال

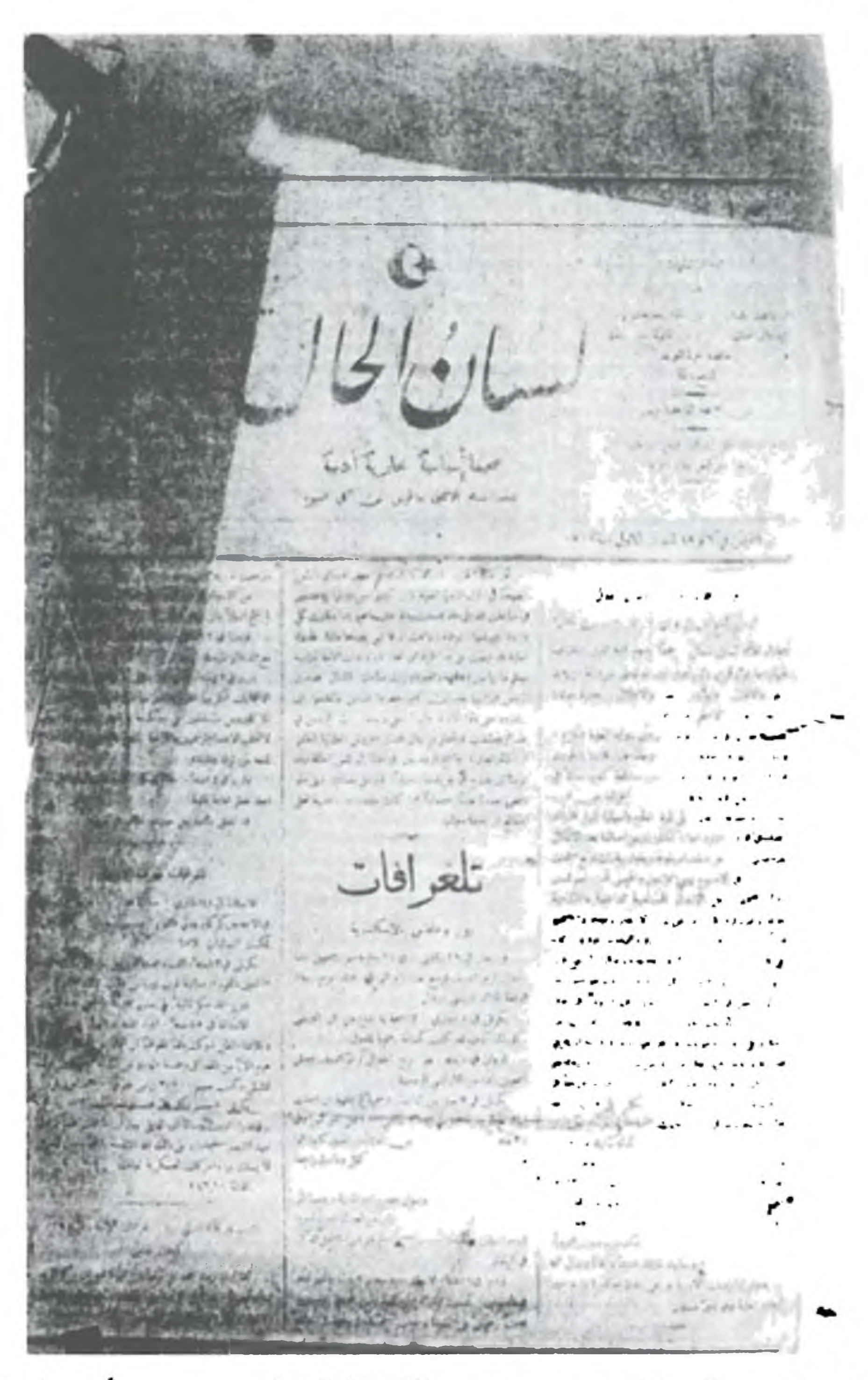
الاقبال

١٣٢٠

مكاتبات الاقبال

عبد الباسط الانسي

(كانت موالية للسلطان عبدالحميد، بعد الانقلاب موالية للحكام الاتحاديين وممولة منهم) جريدة الإقبال لمنشئها الشيخ عبد الباسط الأنسي منذ ١٩٠٢، شخصية إسلامية محافظة رأى في السلطان عبدالحميد حماية للاسلام والخلافة، وتابع مع الاتحاديين سياسة الموالاة والاستزلام فأيّد دخول تركيا الحرب جهاداً ضد الكفار. الإقبال كان لها تأثير كبير في الشارع الاسلامي بالدعاية لإنتصارات الجيش العثماني والالماني شرقا وغرباً. كان عضو الوفد السلمي إلى العاصمة استانبول للاحتفال بالنصر في غاليبولي. كانت إدارة أحمد جمال باشا في بيروت تؤمن له الورق والحبر والطباعة وتقدم له تسهيلات لترويج منشوراته المؤيدة للإتحاديين.


لسان الحال

تلغرافات

جريدة اتسمت بالموضوعية في زمن المحسوبيات والاستزلام للمخابرات والقناصل. أبقت على خيوط صداقة مع الجميع من دون تسول وتصغير رقبة فاكتسبت الاحترام. آثرت الصمت وأحتجبت عن الصدور بعد ١١ ايلول سنة ١٩١٤ طيلة سنوات الحرب(المجزرة) وعادت بعد ١٤ تشرين الأول إعلان وقف النار.



البلاغ

ظهور البلاغ

(موالية للإتحاديين ومدعومة مادياً)البلاغ لصاحبها محمد باقر(ميرزا) وهو من بقايا عائلة فارسية. أجرى له أحمد جمال باشا عطايا نقدية وعينية(ورق-أحبار) سوّق للأتراك بضاعتهم الإعلامية التي تصله من مكتب المعلومات التركي/ الألماني وأخبار الجبهات وانتصارات الألمان والاتراك. كان ضمن (البعثة العلمية) إلى غاليبولي ودبج الصفحات في مدح القوات العثمانية/ الالمانية. تعتبر البلاغ من الصحف القليلة القديمة التي ثابرت على الصدور. حافظت على علاقة جيدة بالعثمانيين ثم الفرنسيين، كان لها دور مؤثر في الرأي العام اليومي حيال السياسة المحلية والاقليمية وقطب أعظم في محافل لبنانية وعربية.



الرأي العام

العدل والتسامح

قابليتنا للحكم الدستوري

(موالية للإتحاديين وممولة منهم) الرأي العام لصاحبها طه المدور أصدرها سنة ١٩١٠، تنقلت بين حلب وبيروت، توقفت عن الصدور عام ١٩٣٠.



الشرق

خطاب حضرة صاحب الدولة احمد جمال باشا العالي

جريدة الشرق من ٢٧/ ٤/ ١٩١٦ حتى خريف ١٩١٨ (بإشراف أحمد جمال باشا واوبنهايم)

جريدة سياسية، ادبية، اقتصادية، يومية. صحيفة الدعاية التركية-الالمانية التي اصدرها أحمد جمال باشا قائد الجيش الهمايوني الرابع في سوريا بإيعاز من القيادة في استانبول تحت شعار خدمة الجامعة الاسلامية والوحدة الاسلامية. أسندت ادارتها وتحريرها إلى هيئة اسماؤها لامعة في الفكر والادب والعقيدة، مؤلفة من:

خليل الايوبي الانصاري صاحب الامتياز

محمد تاج الدين الحسيني المدير المسؤول

شكيب ارسلان رئيس التحرير استقال بعد ٦/ ٥/ ١٩١٦

محمد كرد علي رئساً للتحرير عين بعد استقالة ارسلان حتى عام ١٩١٧

عبد القادر المغربي مدير التحرير

علي حكمت ناهيد مدير الادارة تركي

عين لها مراسلون وكتاب في العاصمة وبلدان مختلفة. صدرالعدد الاول بثماني صفحات، ورق مصقول، طباعة انيقة مزين بصورة للسلطان بأبهى حلته، ورتب تاريخ صدورها بمناسبة ذكرى جلوس السلطان محمد رشاد الخامس على العرش. كانت الافتتاحية بقلم شكيب ارسلان. دأبت الشرق في تجميل (تلميع) صورة القادة الاتراك الاتحاديين بأنهم مسلمون جهاديون حماة الدين في عيون العرب، وكيل المديح لهم والتفنن في سرد بطولات الجندي التركي وانتصاراته ودحر الاعداء. جرت على صفحات الشرق عمليات مسخ الحقائق وتزييف الوقائع بحق الوطنيين العرب وكل من هو غير حليف لتركيا.

بعد مجزرة ٦ ايار باعدام اللامركزيين الشهداء الاحرار استقال من رئاسة تحريرها شكيب ارسلان فعين أحمد جمال باشا الاديب محمد كرد علي. في العام الاول صدرت باربع صفحات كبيرة وفي عامها الثاني باربع صفحات صغيرة، وفي مطلع عام ١٩١٨ بصفحتين صغيرتين فقط ورقها اسمر، وفي الخريف توقفت عن الصدور وتناوب على ادارتها المالية ثلاثة مديرين اتراك.



الرأي العام

العدل والتسامح

قابليتنا للحكم الدستوري

(موالية للإتحاديين وممولة منهم) الرأي العام لـصاحبها طه المدور أصدرها سنة ١٩١٠، تنقلت بين حلب وبيروت، توقفت عن الصدور عام ١٩٣٠.



الشرق

خطاب حضرة صاحب الدولة احمد جمال باشا العالي

جريدة الشرق من ٢٧/ ٤/ ١٩١٦ حتى خريف ١٩١٨ (بإشراف أحمد جمال باشا واوبنهايم)

جريدة سياسية، ادبية، اقتصادية، يومية. صحيفة الدعاية التركية-الالمانية التي اصدرها أحمد جمال باشا قائد الجيش الهمايوني الرابع في سوريا بإيعاز من القيادة في استانبول تحت شعار خدمة الجامعة الاسلامية والوحدة الاسلامية. أسندت ادارتها وتحريرها إلى هيئة اسماؤها لامعة في الفكر والادب والعقيدة، مؤلفة من:

خليل الايوبي الانصاري صاحب الامتياز

محمد تاج الدين الحسيني المدير المسؤول

شكيب ارسلان رئيس التحرير استقال بعد ٦/ ٥/ ١٩١٦

محمد كرد علي رئساً للتحرير عين بعد استقالة ارسلان حتى عام ١٩١٧

عبد القادر المغربي مدير التحرير

علي حكمت ناهيد مدير الادارة تركي

عين لها مراسلون وكتاب في العاصمة وبلدان مختلفة. صدرالعدد الاول بثماني صفحات، ورق مصقول، طباعة انيقة مزين بصورة للسلطان بأبهى حلته، ورتب تاريخ صدورها بمناسبة ذكرى جلوس السلطان محمد رشاد الخامس على العرش. كانت الافتتاحية بقلم شكيب ارسلان. دأبت الشرق في تجميل (تلميع) صورة القادة الاتراك الاتحاديين بأنهم مسلمون جهاديون حماة الدين في عيون العرب، وكيل المديح لهم والتفنن في سرد بطولات الجندي التركي وانتصاراته ودحر الاعداء. جرت على صفحات الشرق عمليات مسخ الحقائق وتزييف الوقائع بحق الوطنيين العرب وكل من هو غير حليف لتركيا.

بعد مجزرة ٦ ايار باعدام اللامركزيين الشهداء الاحرار استقال من رئاسة تحريرها شكيب ارسلان فعين أحمد جمال باشا الاديب محمد كرد علي. في العام الاول صدرت باربع صفحات كبيرة وفي عامها الثاني باربع صفحات صغيرة، وفي مطلع عام ١٩١٨ بصفحتين صغيرتين فقط ورقها اسمر، وفي الخريف توقفت عن الصدور وتناوب على ادارتها المالية ثلاثة مديرين اتراك.



الرأي العام

العدل والتسامح

قابليتنا للحكم الدستوري

(موالية للإتحاديين وممولة منهم) الرأي العام لـصاحبها طه المدور أصدرها سـنة ١٩١٠، تنقلت بين حلب وبيروت، توقفت عن الصـدور عام ١٩٣٠.



الشرق

خطاب حضرة صاحب الدولة احمد جمال باشا العالي

جريدة الشرق من ٢٧/ ٤/ ١٩١٦ حتى خريف ١٩١٨ (بإشراف أحمد جمال باشا واوبنهايم)

جريدة سياسية، ادبية، اقتصادية، يومية. صحيفة الدعاية التركية-الالمانية التي اصدرها أحمد جمال باشا قائد الجيش الهمايوني الرابع في سوريا بإيعاز من القيادة في استانبول تحت شعار خدمة الجامعة الاسلامية والوحدة الاسلامية. أسندت ادارتها وتحريرها إلى هيئة اسماؤها لامعة في الفكر والادب والعقيدة، مؤلفة من:

خليل الايوبي الانصاري صاحب الامتياز

محمد تاج الدين الحسيني المدير المسؤول

شكيب ارسلان رئيس التحرير استقال بعد ٦/ ٥/ ١٩١٦

محمد كرد علي رئساً للتحرير عين بعد استقالة ارسلان حتى عام ١٩١٧

عبد القادر المغربي مدير التحرير

علي حكمت ناهد مدير الادارة تركي

عين لها مراسلون وكتاب في العاصمة وبلدان مختلفة. صدر العدد الاول بثماني صفحات، ورق مصقول، طباعة انيقة مزين بصورة للسلطان بأبهى حلته، ورتب تاريخ صدورها بمناسبة ذكرى جلوس السلطان محمد رشاد الخامس على العرش. كانت الافتتاحية بقلم شكيب ارسلان. دأبت الشرق في تجميل (تلميع) صورة القادة الاتراك الاتحاديين بأنهم مجاهدون جهاديون حماة الدين في عيون العرب، وكيل المديح لهم والتفنن في سرد بطولات الجندي التركي وانتصاراته ودحر الاعداء. جرت على صفحات الشرق عمليات مسخ الحقائق وتزييف الوقائع بحق الوطنيين العرب وكل من هو غير حليف لتركيا.

بعد مجزرة ٦ ايار باعدام اللامركزيين الشهداء الاحرار استقال من رئاسة تحريرها شكيب ارسلان فعين أحمد جمال باشا الاديب محمد كرد علي. في العام الاول صدرت باربع صفحات كبيرة وفي عامها الثاني باربع صفحات صغيرة، وفي مطلع عام ١٩١٨ بصفحتين صغيرتين فقط ورقها اسمر، وفي الخريف توقفت عن الصدور وتناوب على ادارتها المالية ثلاثة مديرين اتراك.



جورنال بيروت

القسم العربي

الاعلانات

تلغرافات الحرب

الشركة العثمانية

محلية

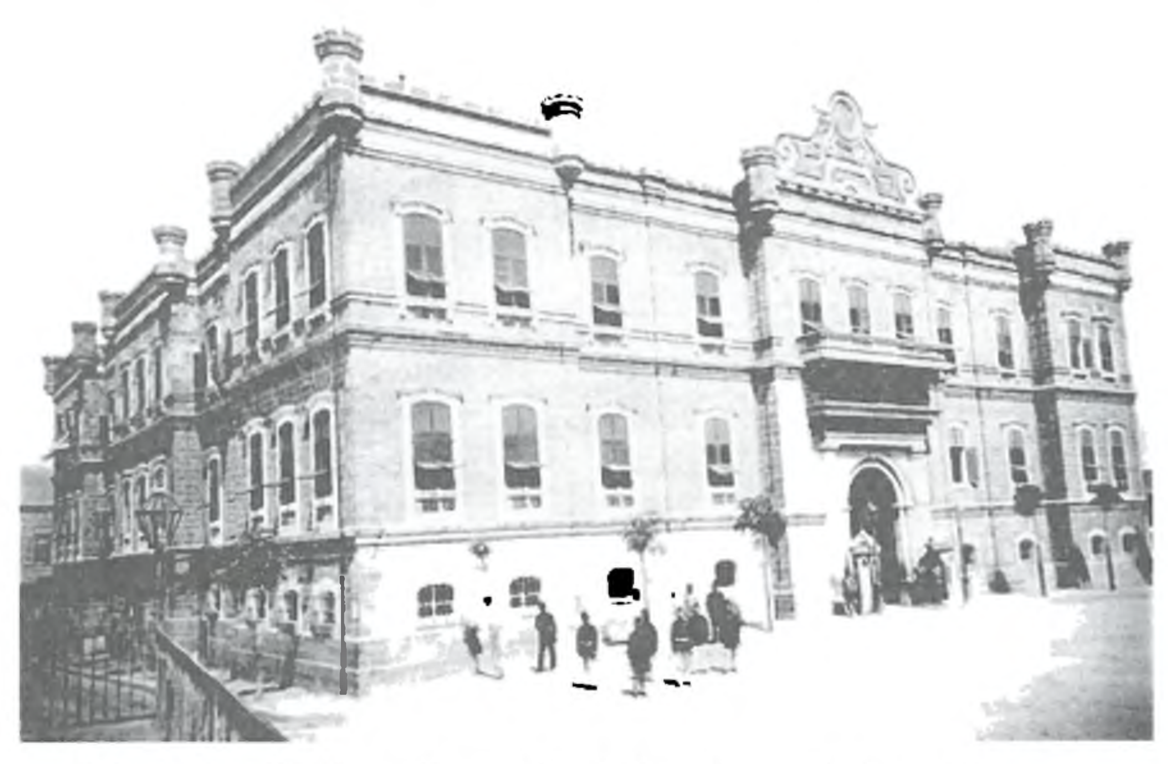
جورنال بيروت تصدر بالفرنسية والعربية صاحبها جورج حرفوش وأخوه مقيمان في استانبول صديقان مقربان لطلعت باشا ولأوبنهايم وعلى تراسل وزيارات للبطريرك الياس الحويك وشخصيات لبنانية

رأس تحريرها جورج بك حرفوش، صدرت بالفرنسية أولاً ثم أضيفت لها نسخة عربية. صدرت ٣ مرات اسبوعيا بين ١٩١٣-١٩٢٠، شارك في تحريرها طانيوس عبده وميشال زكور. وصفها القنصل الالماني ب«مدافع موثوق به عن المصالح العثمانية -الالمانية». ممولها الرئيس (البنك الالماني). نشطت كوكالة للإشراف على نشر أخبار الحرب نقلاً عن المصادر الالمانية ومقتطفات من الصحافة الالمانية.

منها الموالي ومنها المعارض، وتألفت جمعية الاتحاد والترقي الحاكمة وجمعية الإئتلاف المعارضة وانخرط كثير من الشباب في الجمعيتين واشتد الجدل بين الحزبيين جماعات وأفراد. وكان التناحر بين الطرفين يجري في المقاهي والسهرات وحتى في المحلات التجارية. اما التجنيد الإجباري المنتظر فقد دفع الشباب في سن الجندية إلى اتخاذ العديد من الوسائل للتخلص من الخدمة. فسجل البعض اسمه طالباً أو مدرّساً والبعض اجرى عقد نكاحه على فتاة غريبة عن بلده والبعض على تكبير سنه أو تصغيره ليبتعد عن السن القانونية للتجنيد ومن اهل بيروت من تجنس في لبنان واهل لبنان استثناهم القانون من التجنيد والطريف في هذه المناسبة ان امرأة يهودية جنّدوا ابنها عملاً بقاعدة(حريت، مساوات، عدالات) فولولت قائلة ليتها ما كانت الحرية وهي تقصد ان الحرية كانت السبب في تجنيد ابنها بعد ان كان التجنيد قبل إعلان الحرية محصوراً بالمسلمين. كان القانون العثماني يعفي الكثير من الخدمة العسكرية أيام السلطان عبدالحميد مثل القصير والمشوه والعائل الوحيد وأحد التوأمين والمعمم والإمام والمؤذن وغيرهم كثير، لكن الحرب قضت على كل هذه الاستثناءات واعلنت الدولة التجنيد الاجباري واستدعت تباعاً مواليد سنوات ١٨٩٤ و١٨٩٥و ١٨٩٦ و١٨٩٧ و١٨٩٨. وارتفعت أسعار البضائع الأجنبية، وأخذ التجار في تخزينها طمعاً بالربح أما أصحاب الرساميل المحدودة فكانوا يكتفون بالأرباح المغرية التي كانوا يجنونها يومياً من الشراء والبيع فوراً. فكان التاجر يشتري صندوق الكبريت مثلاً بمبلغ عشرين ليرة ويبيعه في النهار نفسه أو اليوم التالي بمبلغ خمس وعشرين ليرة ثم يعود ليشتري الصندوق نفسه بسبع وعشرين ليرة ليبيعه بثلاثين هكذا كانت الأيدي تتناقل البضائع وهي في ارتفاع مستمر والويل لأصحاب الدخل المحدود أو العاطلين عن العمل الذين لم يستطيعوا تأمين قوته اليومي. واني أذكر ان أخي عمر أكبرنا والقائم على ادارة محلنا التجاري ارسل إلى البيت جميع ما نحتاج اليه من البضائع الاجنبية وما يكفي لبضع سنوات، وهكذا فعل الكثير من البيوت الميسورة. وفيما الحرب قائمة والقوم منهمكون بالتجنيد الاجباري والتجارة والادخار قرر أخي محمد سعيد الاستعداد لدخول الجامعة الاميركية، فاشترى جميع الكتب للصف الخامس الاستعدادي وانقطعنا للدرس في البيت ابتداءًا من

عام ١٩١٥ وعزمنا على تقديم الامتحان لصف الفرشمن فوزعنا المنهاج على ستة اشهر وانصرفنا إلى الدراسة ليلاً نهاراً. وفي اواخر ايلول عام ١٩١٥ تقدمنا إلى الامتحان مع زمرة من الطلبة وكان نجاحنا باهراً إذ كانت علاماتنا فوق ٨٤ من مئة وما يجدر ذكره ان الأستاذ منصور جرداق أستاذ الرياضيات يومئذٍ اعطانا ورقة الامتحان وقال بلهجة تهكمية، امامكم عشر سؤالات في الجبر من استطاع حلَّها باتقان وبنظافة ممتازة ينال تسعين من مئة وسؤال اختياري رقم ١١ من استطاع حلَّه ينال على التسعين علامة واحدة أو اثنين أو ثلاث أقصياها. كانت النتيجة ان كل منا نال ٩٣ علامة، فأعجب بنا الأستاذ جرداق وهو المعروف بصرامته. اما الأستاذ داي رئيس الدائرة العلمية فقد رفض قبولي في صف الفرشمن لأني كنت دون السن القانونية فطلب إليَ تمضية سنة في التجارة وأعود إلى متابعة دروسي في صف الفرشمن، والواقع ان احدنا لم يستطع دخول الجامعة لأن أخي عمر جاء دوره في الجندية فاضطررنا كلانا إلى العمل في التجارة ولو أنا دخلنا الفرشمن يومئذٍ لجلسنا مع رفاقنا في مدرسة دار العلوم الذين سبقونا بسنتين أو ثلاث بدخول الجامعة. عاد أخي عمر بإذن مرضي لمدة ثلاثة أشهر وتسلم المحل وبعد بضعة ايام جاءنا يعرض علينا اقتراحاً قيّماً وذلك في صنع علب الفواش وقال ان ثمن العلبة كان أقل من قرش واحد واصبح اليوم خمسة قروش وهو في غلاء مستمر لشدة حاجة الناس اليه ولفقد البترول من المدينة. وعلبة الفواش عبارة عن علبة خشبية لا يزيد قطرها على سبعة سنتمرات وفيها ثلاثون فتيلة من الشمع يتوسط كل فتيلة زر خشبي وفيها عوامة من الفلين والتنك لتطفو على وجه زيت الزيتون وتحمل الفتيلة المشتعلة وبعد ان كان هذا الفواش يستعمل في الكنائس والمزارات شاع استعمالها في زمن الحرب بدل البترول في البيوت الفقيرة والمتوسطة، فتهافت عليه الناس لإستعماله وارتفع ثمنه لندرته. أخذ أخي محمد سعيد في ذلك الليل يفكر في طريقة صنعه وعند الصباح بدأنا العمل فاستطعنا ان نصنع دزينة من هذه العلب لكنها جاءت بدائية مشوهة وبعدها اخذنا في تحسينها واستطعنا ان نصنع اثنتي عشرة دزينة في اليوم الواحد فبعناها بليرتين ذهبيتين. وثابرنا على تحسين الانتاج وزيادته فكنا نصنع كروزين كل يوم، وثلاثة إلى ان بلغ الانتاج عشر كروزات يومياً نأخذ ثمنها عشرين ليرة ذهبية. ازداد عدد العمال حتى بلغ الأربعين وقام

أخي على صنع الماكنات اللازمة لتسهيل العمل واتقانه فصمم عدداً منها واعتمد في صنعها الميكانيكي الوحيد في المدينة شاباً أخرس من آل العريس كان يعمل في محل يقع خلف بناية العدلية.



مبنى (العدلية) السرايا في شمال ساحة البرج كمبنى مركزي للسلطة العثمانية لولاية بيروت وضم ديوان والي بيروت والعدلية والدوائر الرسمية للولاية ومنها كانت تدار أعمال الولاية كافة من بئر السبع حتى اللاذقية. وملحق بها النظارة والسجن، بعد ١٩١٨ صارت مقراً للمندوب السامي الفرنسي الجنرال غورو وجهازه الذي بدوره انتقل منه إلى السرايا الكبير. وبقي فيه الحاكم العسكري ترابو حتى استردته بلدية بيروت في ايلول ١٩٢٠ وانتقل ترابو إلى مدرسة (الدياكونيز) حالياً مبنى ستاركو.

ولما كان هناك منافسون أقوياء حافظنا على سرية هذه الماكنات واعتمدنا بعض أخصائيينا في تشغيلها واستطعنا بذلك ان نرغم جميع المنافسين على الاستسلام فاشترينا منهم جميع معداتهم البدائية بالثمن الذي فرضوه وخلا الجو لنا وكثر انتاجنا وشحنّا منه الكثير إلى العراق وفلسطين وسوريا وصولاً إلى بر الاناضول، فتم لنا بذلك تأمين معيشتنا

في الايام العصيبة مع عدد كبير من الجيران وذوي القربى الذين جندت الدولة رجالهم ولا معيل لهم، هذا فضلاً عن خمسين عاملاً بين رجل وامرأة وكان كل منهم يصيبه من الأجر ما يكفي نفقات أهل بيته. يقع المصنع على شارع الحمراء بالذات وكان سكان تلك المنطقة من رأس بيروت مزارعون يعيشون على ما تنتجه بساتينهم من انواع الخضار فهم قرويون يعيشون عيشة القروي الساذج المحافظ لتقاليده وواجباته الدينية. تمتد قرية رأس بيروت الزراعية من الجامعة الاميركية شمالاً إلى صخور رأس بيروت العلوي وفندق البريستول جنوباً ومن شارع السادات غرباً إلى رمال مدرسة الصنائع شرقاً ولم يكن هناك من بيوت سوى بيوت متواضعة يسكنها المزارعون كل في بستانه المسيّج بالصبير والمشجّر بشجر التوت وهناك قليل من التين والنخيل والمقساس، فكان عملهم اضافة إلى زرع الخضار تربية دود الحرير وصنع الدبق لصيد الطيور وغيرها من الصناعات البدائية. كان بيتنا في وسط هذه القرية وهو البيت الوحيد وكان هذا البيت المؤلف من طابقين، محطّ انظار أهل تلك القرية ومرجعهم في مشاكلهم الاجتماعية والاقتصادية والحكومية فقد عوَّدهم والدي قبل وفاته الرجوع اليه في جميع مشاكلهم. والدي رحمه الله كان قد آوى في بيتنا عائلة بأسرها لجأت إليه فراراً من غضب عائلة أخرى كانت توعدتها بقتل أحد شبابها، فمكثت في بيتنا مدة شهرين إلى ان تمكن والدي من إصلاح ذات البين، وتابع أخي محمد سعيد بعد والدنا بهذه الهمة بإقتدار، فكان يقضي حاجاتهم ويحل مشاكلهم ففاز بثقتهم وعطفهم واصبح بمثابة المختار أو المرشد يقدم اليهم النصح والارشاد وضروب المساعدة ويؤمن للعاطلين منهم والمحتاجين عملاً في معمله أو في المدينة حتى انه قدم اتعاب معالجة مرضى في الجامعة الاميركية بمساعدة وغيرة من الدكتور مصطفى خالدي وغيره من اطباء ذوي نخوة ومروءة. اما انا فلم أكُ بعيداً عن هذه التضحيات بل كنت أساهم بقدر كبير انما لم آكُ اتكالياً اقوم بما يكلفني به أخي بل كنت ساعده الأيمن في تيسير هذه الاعمال واذا كنت لا استطيع القيام بعمل من دونه فهو لا يستطيع لوحده تحقيق أمر من دون مساعدتي. وكذلك

كنا طيلة حياتنا في المدرسة والبيت والأسفار والاعمال الكشفية، يتمم منا الواحد الآخر، فكان هو المصمم وانا المنفذ، كما اننا كنا طيلة حياتنا الدراسية في صف واحد هو الأول وانا الثاني.



شارع الحمرا سنة ١٨٨٠

عصبة الانقلاب التركي ربيبة المانيا وعلى رأسها انور باشا تسيطر على الدولة وكانت تعتمد سياسة البطش والتنكيل في إخضاع الشعوب التابعة لها. مبادئ اخذتها عن المانيا كما اخذت فنون الحرب. عصابة تريد ادارة دفة دولة مترامية الاطراف متعددة الشعوب متباينة الأهواء والنزعات وليس عندها من مقومات الادارة والحكم سوى البطش والتنكيل.



صياد طيور بواسطة «الدبق»



جانب من رأس بيروت ١٨٧٠



الدكتور مصطفى خالدي(١٨٩٥-١٩٧٧)



خريطة السلطنة العثمانية سنة ١٩١١ الامتداد الجغرافي- السياسي-الاداري

كان قوام هذه العصابة طلاب مشكوك في نسبهم ترعرعوا في احضان الرذيلة وعاشوا حياة الفسق والفجور(وانما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا) بدأت الحرب العالمية الأولى في أوروبا ولمست شعوب الدولة عطف الحكومة على المانيا.



أركان قيادة جمعية (عصابة)الاتحاد والترقي بعد إغتيال الصدر الأعظم محمود شوكت باشا

واخذت الصحف والمجلات تتبارى في تعظيم انتصاراتها والويل للصحيفة التي كانت تنتصر للحلفاء(فرنسا، روسيا، بريطانيا ومن أيدهم من دول أوروبية) أو يُشتمّ من سطورها عطف أو تأييد، وبرز في الاقطار التركية حزبان، حزب الاتحاد والترقي (الحزب الحاكم) وحزب الائتلاف المعارض واذكر ان الجدل حمي وطيسه بين الأب وابنه والأخ وأخيه والشريك وشريكه هذا يؤيد الاتحاديين والآخر يؤيد الائتلافيين واذكر أيضاً ان هناك تاجرين شريكين اشتد بينهما الخلاف الولائي إلى حد السخرية، إذ أخذ الأول يطرد الزبائن اذا كانت أخبار الصحف عن فوز الماني واليوم الثاني يطرد الزبائن إذا كانت الأخبار عن فوز فرنسي وبريطاني. بعد خمسة أشهر من وقوع الحرب في أوروبا أعلنت تركيا الحرب

على الحلفاء والانضمام إلى جانب المانيا والنمسا اما بلغاريا الفاصلة بين تركيا والمانيا فقد أرغمت على الاستسلام فاصبحت الطريق مفتوحة من بحر الشمال إلى أقصى الشرق.



جماهير الدهماء حاشدة مرحبة عند سراي بيروت ومؤيدة بدخول تركيا الحرب

ما ان اعلنت، تركيا الحرب حتى دب الذعر بين الناس وارتفعت اسعار المواد الغذائية وراجت سوق الاحتكار. الرز والسكر والحنطة ثم كل ما كان يستورد من الخارج. التجار منهمكون في تخزين البضائع وتخبئتها والحكومة المحلية تقوم بمكافحة فاشلة لهذا الاحتكار. بدأ التجنيد الاجباري وألغيت جميع الاستثناءات وتربع الطاغية حسن حسني باشا على كرسي شعبة (أخذ عسكر) وارسل زبانيته في طلب الشبان لسوقهم إلى مختلف المراكز العسكرية(كل من عليها عسكر) لا سبيل إلى اعفاء احد من الخدمة سوى المال والرشوة التي راجت سوقها. هذا مدرس وذاك كاتب في القلم والآخر مأمور وغيره متعهد لتأمين حاجات الدولة أو خادم عند أحد الضباط(خزمتجي). عملت الشفاعات والوساطات والمحسوبيات عملها، فكنت ترى السماسرة والوسطاء واعمال التزوير قد نشطت، وثائق



هوية المواطنة العثمانية سنة ١٩١٤

مزورة ، شهادات مدرسية مزورة، تقارير طبية مزورة. فئة تسعى إلى الفرار خارج البلاد وفئة تتفنن في اعداد المخابئ للتخلص من المطارِدين، عاملان شغلا بال الناس عن كل شيء، الأول تأمين القوت والثاني التملص من التجنيد ثم هناك رهبة طاغية، فالجيش التركي يغشى المدن والقرى، وضباطه المجرمون كأسيادهم لا يتورعون عن إنزال أشد العقاب بكل من يأتي بحركة أو تصدر عنه كلمة يُشتمُّ منها رائحة تمرد أو اعتراض. أما الصحف فكانت مرغمة على تأييد الدولة وحلفائها في نشر الأخبار والمقالات في المديح والتقدير.



اجراءات القرعة للتجنيد(أخذ عسكر)

أحمد جمال باشا في طريقه لطرد الانكليز من مصر

برزت أمام عصابة الاتحاديين الحاكمين مشكلتان: الأولى إعداد جيش قوي لمهاجمة قناة السويس والاستيلاء على مصر. والثانية تأيد المتمردين في سوريا(كانت كلمة سوريا تشمل سوريا الحالية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن) لقد طلبت المانيا إلى حليفتها تركيا بمهاجمة قناة السويس ووعدت بإرسال المعدات والخبراء لكن العصابة الحاكمة دفعها جهلها وسوء تدبيرها إلى الاعتقاد بأن هذا الجيش لا يمكن إعداده إلا إذا ساد الأمن في سوريا قاعدة تموين هذا الجيش. لقد دار في خلدهم ان في سوريا ثورة توشك ان تندلع فتنغص مضجع الدولة وينهار جيش الصاعقة(يلدريم اوردوسي) كما أسموه يومئذٍ، لذلك وجب تأديب العصاة وإلقاء الرعب في قلوب السوريين والعرب وقد نسوا ان الرعب كان يعشعش في قلوبهم وان اعلان الحرب واعمال التجنيد والحكم الجائر والجيش التركي المسيطر على كل بقعة في سوريا لم يترك مجالاً لمجرد التفكير بالثورة أو التمرد أو حتى

التفوه بكلمة لا ترضي أولي الأمر. قرر رأس العصابة ارسال احد اعضائها فتقدم أحمد جمال باشا وقال (انا لها) كلمة قالها الحجاج بن يوسف عندما عرض الخليفة عبدالملك بن مروان أمر الطرق ومتاعبها على جمع من الولاة في مجلسه فتقدم الحجاج وقال كلمته المأثورة (انا لها) فقد استعاد أحمد جمال باشا تلك الذكريات وتوهم ان التاريخ سيعيد نفسه وانه سيمثل في سوريا دور الحجاج في العراق وانه سوف يعمل على إخضاع السوريين والعرب كما اخضع الحجاج اهل العراق قبل اثني عشر قرناً. وافق المجلس على ارساله حاكماً مطلق الصلاحيات إلى سوريا لتحقيق رغبة المانيا بما أوتي من دهاء وبطش. خرج الالوف من أهل بيروت وانا واحد منهم إلى حرج بيروت، المكان الذي تقوم عليه كلية المقاصد الخيرية اليوم لمشاهدة القائد الفاتح وتسمع ما يقوله. فاذا به رجل مربوع القامة قصيرها ذو لحية كثة يرتدي الزي العسكري المزركش والقلبق المصنوع من الفراء الناعم، ألقى خطاباً لم نفهم منه الا ما بدا على قسمات وجهه من انفعالات واشارات بيده تهديد ووعيد وتصرفات حقودة خلّفت الاشمئزاز والكراهية في النفوس ولم تمض مدة يسيرة حتى أقام أحمد جمال باشا المجلس الحربي والمجلس العرفي في مدينة عاليه لمحاكمة المتمردين من اعضاء الجمعيات المعارضة واصحاب الجرائد وغيرهم ممن كانت تخشى الدولة شرهم. دهش أهل بيروت لهذا الخبر واخذوا يتحدثون عن حماقة هذا الطاغية. اذ ما معنى إثارة موضوع جمعيات مسالمة كانت تعمل قبل اعلان الحرب وكان عملها مختصراً على اجتماعات تجري ابحاثاً تهدف إلى استقلال سوريا بالطرق السلمية والتفاوض مع الدولة الحاكمة فلا ثورة ولا انقلاب ولا اغتيالات ولا مؤامرات تستوجب العقاب أو المحاكمة ثم اي داعٍ لإثارة هذه القضية والناس في شغل عن السياسة منهمكين في تأمين قوت عيالهم والتخلص من التجند. وكانت الاكثرية الساحقة لا تعلم شيئاً عن تلك الجمعيات وأكثرية لا بأس بها تعطف على الدولة التركية وتؤمن بأنها جزء من الدولة العثمانية، وفي يقيني ان عدداً كبيراً من أهل سوريا لم يك راضياً عن نشاط تلك الجمعيات سيما الجمعيات التي كانت تعتمد على مساعدة فرنسا في الوصول إلى الاستقلال. أخذ أنور باشا يهيئ جيش الصاعقة فاستورد خيرة الجنود والضباط من سائر الاقطار التركية منهم الجركس والأكراد والعرب حتى الأرمن. وتدفقت

المعدات الحربية من ألمانيا، المدافع الثقيلة لتدمير الأسطول البريطاني الرابض عند مداخل السويس، المدافع النمسوية التي تميزت بدقة اصابتها لتحطيم القطار المدرع الذي يجري متنقلاً على خط حديد أقيم على الضفة الغربية للقناة من شمالها حتى جنوبها، الاسلحة الحديثة المختلفة من بنادق ورشاشات وقنابل يدوية. الخط الحديد الذي أنشئ من عمان عبر غزة ورفح حتى عريش مصر لنقل الجيش الى قناة السويس وقد امتد هذا الخط على حساب القضبان التي اقتلعت من خط دمشق المدينة المنورة. أعدت الآبار والأفران لإمداد الجيش بالماء والزاد في الحولة وطولكرم وبئر السبع والحفير وباقي المراكز(المنازل) الصحراوية التي يمر بها الجيش. الجسور النقالة التي أعدت لتوضع فوق القناة، الرجال المدربون لإقامة هذه الجسور بمهارة وسرعة لعبور المدافع والعربات والمشاة إلى الضفة الغربية من القناة.



أحمد جمال باشا (١٨٧٢-١٩٢٢)

الديوان العرفي ومنازل تابعة

الديوان العرفي في عاليه في تشرين الثاني ١٩١٨ بعد هذا التاريخ صار مقر القيادة الفرنسية ثم حوِّل إلى فندق «شاهين» واحترق عام ١٩٧٥



الجنرال فريدريك كريسنشتاين (١٨٧٠-١٩٤٨) يفتش وحدة صاعقة المانية

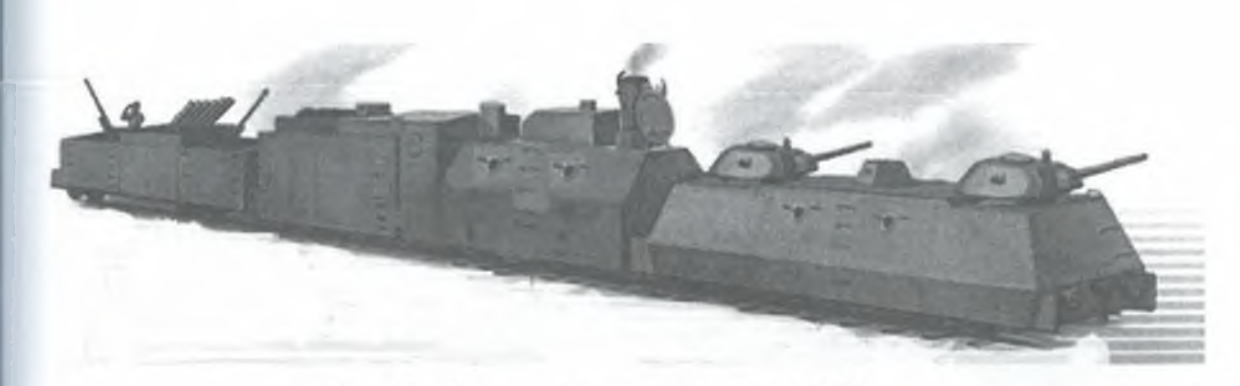
Friedrich Kress von Kressenstein



القطار الانكليزي الحديدي المدرع على الضفة الغربية لقناة السويس

الأمير فيصل بن الحسين (١٨٨٣-١٩٣٣) وإلى يساره جالساً ت.هـ. لورنس

لقد صادر الجيش جميع المواد الخام والمواد الغذائية والحيوانات من الحقول والمخازن والبيوت على ان يُدفع ثمنها بعد الحرب، هذا فضلاً عن أعمال السخرة التي كان يلجأ لها قيادة الجيش في إعداد ما تحتاجه الحملة. أذكر ان أهل بيروت أقبلوا على أعمال السخرة طوعاً فتبرعوا بخياطة الأكياس ونقل المؤن إلى القطار وحفر الخنادق على السواحل تحسباً لهجوم من البحر وكانوا يقومون بذلك بدافع العطف والاخلاص للدولة. بينما كان يجري إعداد جيش الصاعقة كان المجلس الحربي يستدعي خيرة الرجال ليسوموهم العذاب وتقديمهم إلى حبال المشنقة. أخذت نار العداء تشتعل في قلوب السوريون والعرب. فآمن المترددون بكره الاتراك ونمت احقادهم وساورت المخلصين الظنون وبدأوا يرتابون من حسن نية الاتراك وما ان أعدم أحمد جمال باشا العشرات من العرب حتى عمّت النقمة على الاتراك ودخل في روح العرب جميعهم ان الأتراك اعداؤهم وهنا انقطع حبل الود الذي كان يربط بينهم وبين الدولة التركية وبرزت هوّة سحيقة بين القوميتين. وفي جملة من قضى مجلس الحرب بإعدامهم الأمير فيصل النجل الأكبر للشريف حسين أمير الحجاز يومئذٍ لكن الأمير نجا بنفسه وفرّ إلى مكة. كان حكم الاعدام على الأمير فيصل ضربة قاسية تلقاها الشريف حسين فقر رأيه على الانتقام من الأتراك. لقد ترك الشريف حسين نقمة طاغية في نفوس العرب على الاتراك وزاد في ذلك أحكام الاعدام على ولده وكانت بريطانيا تحاول اقناعه في الانضمام إلى معسكرها لقاء تنصيبه ملكاً على الجزيرة العربية كلها، وقد حانت اللحظة فوجد الشريف حسين مبرراً لقطع حبل الولاء والطاعة لتركيا والتعاون مع بريطانيا فتم الاتفاق واطلق الشريف حسين الرصاصة الأولى إيذاناً بإعلان الثورة العربية على الأتراك.



القطار الانكليزي الحديدي المدرع على الضفة الغربية لقناة السويس

الأمير فيصل بن الحسين (١٨٨٣-١٩٣٣) وإلى يساره جالساً ت.هـ. لورنس

لقد صادر الجيش جميع المواد الخام والمواد الغذائية والحيوانات من الحقول والمخازن والبيوت على ان يُدفع ثمنها بعد الحرب، هذا فضلاً عن أعمال السخرة التي كان يلجأ لها قيادة الجيش في إعداد ما تحتاجه الحملة. أذكر ان أهل بيروت أقبلوا على أعمال السخرة طوعاً فتبرعوا بخياطة الأكياس ونقل المؤن إلى القطار وحفر الخنادق على السواحل تحسباً لهجوم من البحر وكانوا يقومون بذلك بدافع العطف والاخلاص للدولة. بينما كان يجري إعداد جيش الصاعقة كان المجلس الحربي يستدعي خيرة الرجال ليسوموهم العذاب وتقديمهم إلى حبال المشنقة. أخذت نار العداء تشتعل في قلوب السوريون والعرب. فآمن المترددون بكره الاتراك ونمت احقادهم وساورت المخلصين الظنون وبدأوا يرتابون من حسن نية الاتراك وما ان أعدم أحمد جمال باشا العشرات من العرب حتى عمّت النقمة على الاتراك ودخل في روح العرب جميعهم ان الأتراك اعداؤهم وهنا انقطع حبل الود الذي كان يربط بينهم وبين الدولة التركية وبرزت هوّة سحيقة بين القوميتين. وفي جملة من قضى مجلس الحرب بإعدامهم الأمير فيصل النجل الأكبر للشريف حسين أمير الحجاز يومئذٍ لكن الأمير نجا بنفسه وفرّ إلى مكة. كان حكم الاعدام على الأمير فيصل ضربة قاسية تلقاها الشريف حسين فقر رأيه على الانتقام من الأتراك. لقد ترك الشريف حسين نقمة طاغية في نفوس العرب على الاتراك وزاد في ذلك أحكام الاعدام على ولده وكانت بريطانيا تحاول اقناعه في الانضمام إلى معسكرها لقاء تنصيبه ملكاً على الجزيرة العربية كلها، وقد حانت اللحظة فوجد الشريف حسين مبرراً لقطع حبل الولاء والطاعة لتركيا والتعاون مع بريطانيا فتم الاتفاق واطلق الشريف حسين الرصاصة الأولى إيذاناً بإعلان الثورة العربية على الأتراك.



الشريف حسين بن علي (١٨٥٤-١٩٣١) إلى إعلان الثورة على الأتراك في ٢٠/٦/١٩١٦

فنزلت جيوش بريطانيا ودخلت أرض الحجاز من ثغور البحر الأحمر وجُدّة ويُنبع وغيرها وانضم جيش الحجاز الهزيل إلى الجيش البريطاني، وزحف الجيشان إلى سيناء ليهاجما جيش الصاعقة من الخلف الذي كان يتحضر للهجوم على قناة السويس لكنه فوجئ بهجوم على مؤخرته فانهارت قوته وضاع أمله وأخذ كل جندي فيه يفكر بالانسحاب والنجاة بروحه فاضطرت القيادة إلى التراجع نحو غزة قبل ان يقطع الانكليز عليه خط الرجعة وبذلك فشل جيش الصاعقة من تحقيق ذلك الحلم الذي كان يراود الالمان والترك، وهذه هي الجبهة الوحيدة التي انهزم فيها الجيش التركي في تلك الحرب الطاحنة، ولو نجح جيش الصاعقة في عبور القناة والاستيلاء على مصر لتم للالمان الاستيلاء على شمال افريقيا وغربها، المورّد الرئيس لجيوش فرنسا والمواد الغذائية والمواد الخام للصناعة الحربية وباقفال القناة تقطع طريق الهند والهند الصينية واستراليا وبالتالي القضاء على الجيشين البريطاني والفرنسي في أوروبا وبذلك تكون النتيجة نصر ساحق لألمانيا التي أعدت كل ما تحتاج اليه في حرب طويلة المدى سيما والطريق إلى الشرق وآسيا تحت تصرفها تستورد ما تشاء من مواد أولية خام ومواد غذائية.


البحر المتوسط
خليج الطينة
سيناء
الإسماعيلية
أبو سلطان
جنيفة
خليج السويس
بور توفيق

قناة السويس



القوات الانكليزية انتقلت إلى الضفة الشرقية لقناة السويس بعد فشل حملة أحمد جمال باشا لعبور القناة وتحرير مصر كما وعد، إما يعود ظافراً أو شهيداً، وتبدو إحدى البوارج الإنكليزية المدافعة عن القناة.

هناك يتبين لنا مدى الحماقة التي ارتكبها أحمد جمال باشا في إعدام زهرة شباب العرب وحمل جميع العرب على معاملة الأتراك معاملة العدو والأنكى من ذلك ان الأتراك صاروا ينظرون اليهم نظرة الخائن المجرم بعد ان كانوا يقدسونهم ويحترمونهم اعتقاداً منهم بأنهم في طليعة الأمم الاسلامية إيماناً. أليس الرسول عربياً والقرآن نزل بلغتهم؟. لو ان أحمد جمال باشا كان على شيء من الحكمة وبعد النظر لتجاهل أمر هذه الجمعيات طلاب الاستقلال فالناس في شغل عن السياسة والجمعيات، منهمكون في تحصيل قوت عوائلهم وبقائهم سيما ان الجيش التركي يملأ كل زاوية ولا يترك مجالاً لثائر أو متمرد.

جبهة الدردنيل

عزمت بريطانيا بمساعدة حلفائها على اقتحام مضيق الدردنيل الحصين ولو تمكنوا من اقتحامه لاستولوا على استانبول ومضيق البوسفور واتصلوا بحليفتهم روسيا وفصلوا آسيا عن أوروبا لأمكنهم القضاء على الدولة العثمانية وعلى أعظم مورد تعتمد عليه المانيا

وحليفتها النمسا. والدردنيل ذو موقع استراتيجي وهو محصن بالقلاع العديدة على الجانبين. بر الاناضول عن الشرق وشبه جزيرة غاليبولي من الغرب، وهو يصل بحر ايجه ببحر مرمرة.



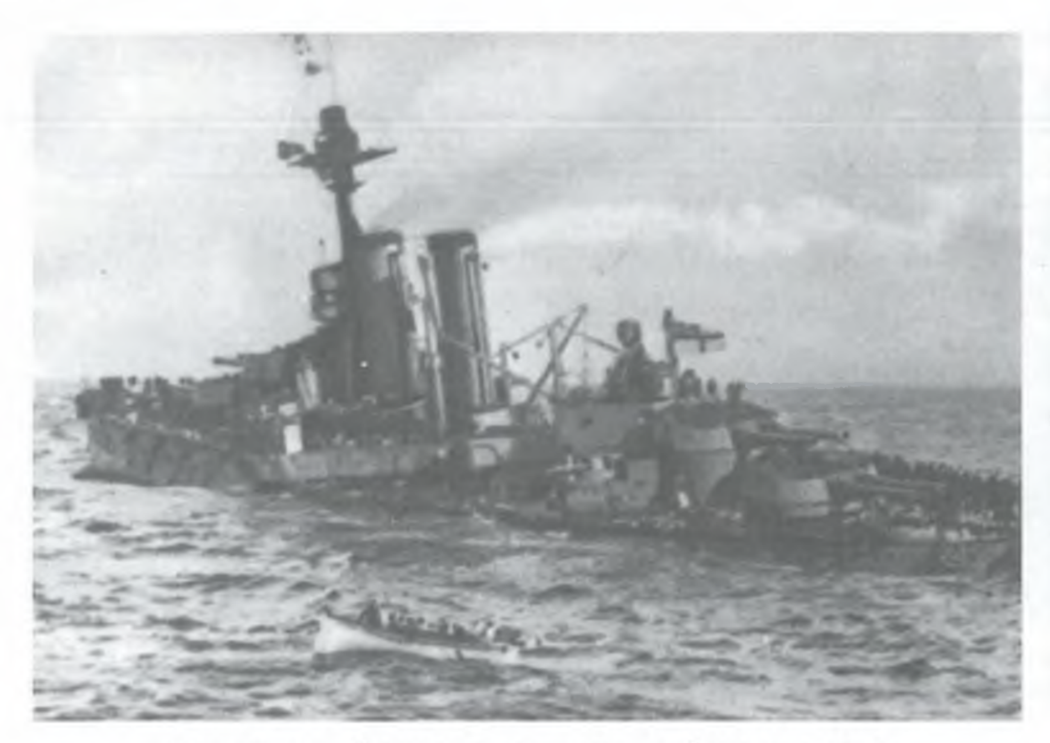
بوارج ومدمرات الحلفاء والمشاة باتجاه تلال غاليبولي

قدرت بريطانيا انها تستطيع اقتحام الدردنيل ببضع قطع من اسطولها الضخم لكن الالمان زودوا القلاع بالمدافع الضخمة البعيدة المدى من عيار ٣٦٠ ملم وأخذت هذه المدافع تقذف الأسطول المهاجم وتغرق البارجة تلو الأخرى قبل ان تصل قذائفها إلى البر، فعمد الانكليز إلى خطتين، الأولى إغراء قائد القلعة والثانية إنزال الجنود لمهاجمة القلاع براً فكان نجاحهم محدوداً في الاغراء إذ استولوا على قلعتين عند مدخل المضيق هما كلية البحر أو مفتاح البحر وطُبراق قلعة «قلعة التراب» اما الهجوم برا فقد كبّدهم خسائر فادحة وقتل من جنودهم وجنود الحلفاء عدد كبير، فمقاومة الهجوم على الدردنيل وغاليبولي كانت ضارية والتضحيات من قبل الاتراك كانت خيالية. فبعد بضعة اشهر من المحاولة البحرية أنزل الحلفاء جيوشهم براً وتقدموا فاستولوا على بقية القلاع وعلى القسم الأكبر من شبه جزيرة غاليبولي وما هي إلا جولة أو جولتين والحلفاء يحققون النصر تلو النصر فقررت القيادة التركية نقل العاصمة إلى بورصة داخل الاناضول وسحبت الدوائر الحكومية سجلاتها والآثار التاريخية والأموال والكنوز الثمينة واعدواهناك قصر عرش الخلافة لكن

انور باشا وزملاؤه قرروا في اللحظة الأخيرة إسناد قيادة القتال في غاليبولي إلى عدوهم القديم اللواء مصطفى كمال فقبل تحمل التبعة والمسؤولية فتزل عند رغبتهم بقيادة الدفاع شرط إطلاق يده في ادارة رحى الحرب وكفّ يد القائد الالماني فوافقوا على طلبه وتسلم هذا القائد العبقري زمام القيادة واعطى اوامره بمهاجمة «آنا فارطا» على شاطئ غاليبولي بالسلاح الأبيض فأبيدت الفرقة الأولى عن بكرة ابيها، فأرسل فرقة ثانية فأبيد معظم أفرادها وأتبعها بثالثة وهذه استولت على النقطة الرئيسة بعد ان أبيد قسم كبير منها فتراجع الحلفاء يائسين وأغرقت حامية الدردنيل أكثر من مئة سفينة عدوة وخسروا أكثر من خمسين ألف جندي فتأكد لهم انه لم يعد بإمكانهم الصمودتركوها لضيق الوقت لنقلها، فعمت الفرحة لدى الاتراك والالمان وكانت ضربة قاضية على الحلفاء ما هدّأ روع الأسماك في الدردنيل بعد ان عملت القنابل على افنائها وقضّت مضاجعها.



جنود عثمانيون إلى جبهة جناق قلعة، شكّل العرب نسبة ٤٠ - ٦٠٪ من مجموع القتلى في معارك الدردنيل والقوقاز ضباطا وجنود



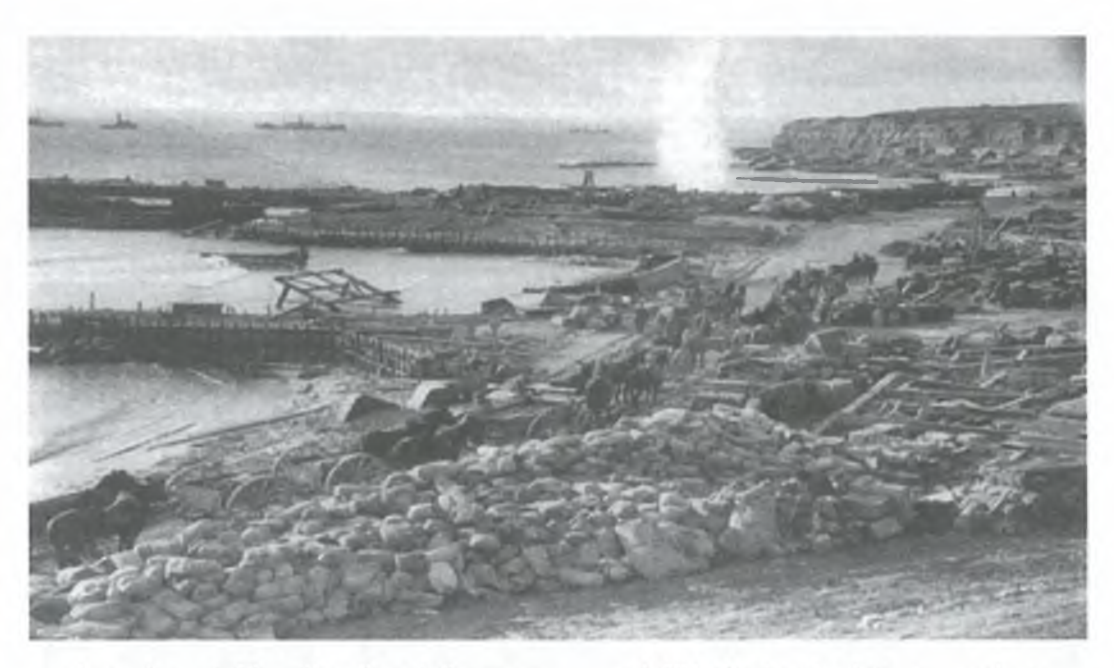
بارجة فرنسية تغرق أصيبت بلغم وبحارتها يتركونها وآخرون ينتظرون القفز



بإنتظار الأمر للتوجه إلى الجبهة



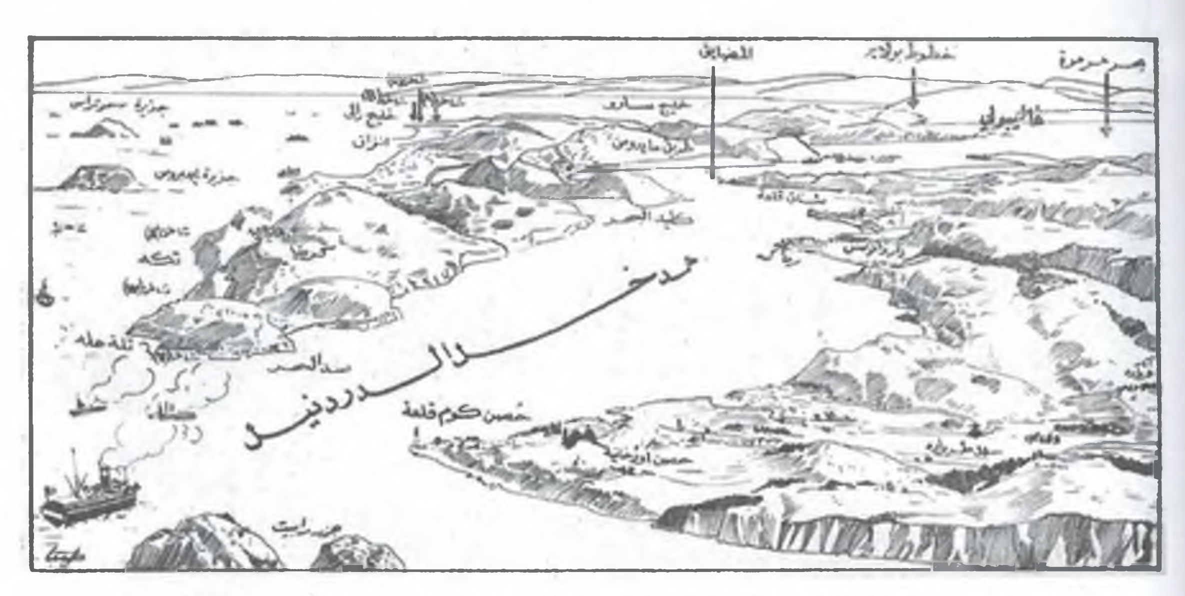
اللواء مصطفى كمال وسط هيئة أركان الفرقة في منطقة «آنا فارطا»



عربات ومؤن وخيل وذخيرة تركتها القوات المحاربة تحت العلمين البريطاني والفرنسي على عجل



جرحى ومعوقو قوات بريطانية وفرنسية أما القتلى فحضنتهم تلال وروابي الدردنيل ومياهه



رسم توضيحي لشواطئ الدردنيل والقلاع المنتشرة على سفوحها يمينا ويساراً ومواقع إنزال جنود الفرنسيين والبريطانيين

جبهة العراق

فكرت القيادة البريطانية في مهاجمة تركيا من العراق فاجتاز اسطولها مياه الخليج الفارسي وانزلت الجنود على الشواطئ العراقية فتمكنت من احتلال بعض المراكز ومنها قرية كوت العمارة التي اتخذها الجيش المهاجم قاعدة لأعماله. وبعد مناوشات كانت الحرب سجالاً فيها. ففي شهر نيسان ١٩١٦ أمر القائد التركي بعض قواته بالتراجع نحو الصحراء وانطلت الحيلة على القوات البريطانية المقابلة التي لحقت بهم فيما كان البعض الآخر من القوات التركية يلتف ويطْبِقون عليهم كفكي كماشة قاطعة خط الرجعة فلم يكن بد من الاستسلام.



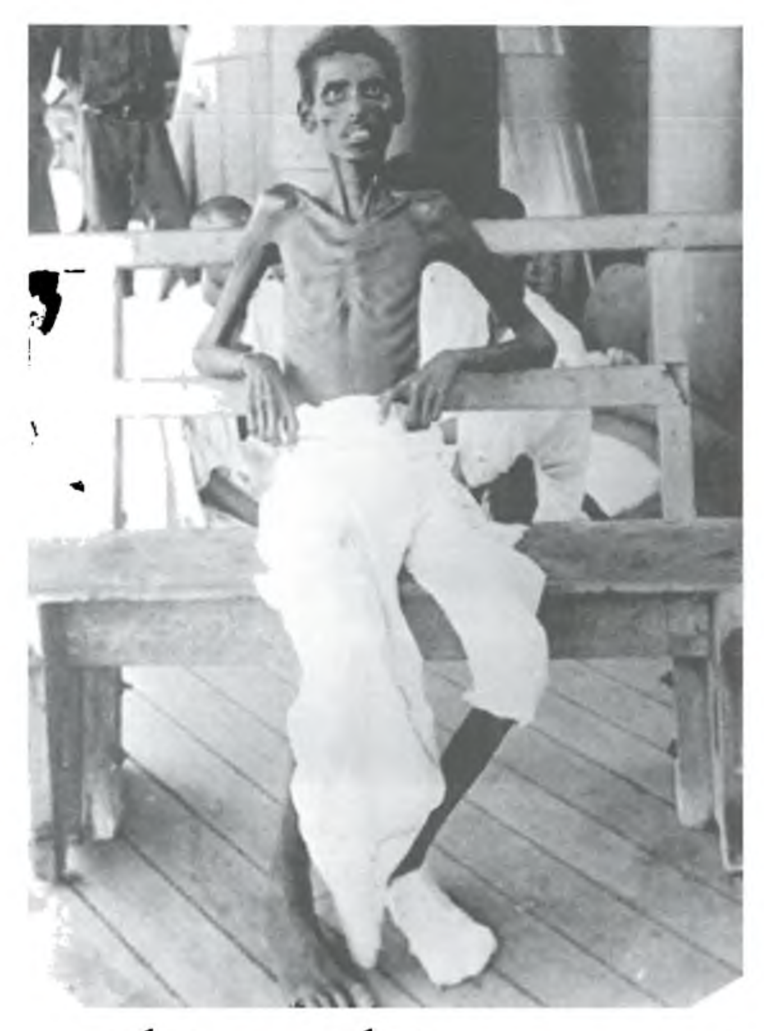
جنود الجيش السادس العثماني يضيقون الحصار على القوات الانكليزية



من اليمين جلوسا الجنرال خليل قائد الجيش العثماني السادس وفي الوسط الأسير الجنرال مايجور شارلز تاونسند القائد الانكليزي ثم نائبه



ما تبقى من الفرقة الانكليزية الأسيرة التي وصلت إلى الأناضول عبر بغداد والموصل وحلب



جندي انكليزي(هندي) بسبب الحصار ١٤٦ يوماً، في أول خمسين يوماً من الحصار نال الجنود حصصهم الغذائية كاملة، أما في الخمسين الثانية نالوا نصف الكمية، بعدها أكلت الجنود الحشائش والكلاب والقطط والضباط أكلوا الجياد. أرسلت القيادة إليهم طائرة تموين أستولى الأتراك على معظمها، كررت القيادة الانكليزية المحاولة بإرسال سفينة نهرية تحمل المؤن فاستولى عليها الاتراك أيضاً. لذا قرر قائد القوة الانكليزية الجنرال تاونسند ان ينقذ من تبقى من قواته بالإستسلام، وجرى إرساله إلى استانبول.

وجرى نقل الأسرى وعددهم ١٣٠٠٠ ألف إلى بر الاناضول أما قائدهم الجنرال تاونسند وأركان حربه فقد نقلوا في قطار خاص إلى استانبول وأقام في قصر «بيوك أضه» وقد احسن الأتراك معاملته فأرسلوا في طلب زوجته واولاده ليسكنوا معه حتى نهاية الحرب، ولقاء هذه المعاملة النبيلة كتب الجنرال مشيداً بمروءة الجيش التركي وشهامته. وأثمرت

هذه المعاملة في مؤتمر لوزان بأن أيد موقف ومطالب الجنرال عصمت اينونو ممثل تركيا في ذلك المؤتمر.

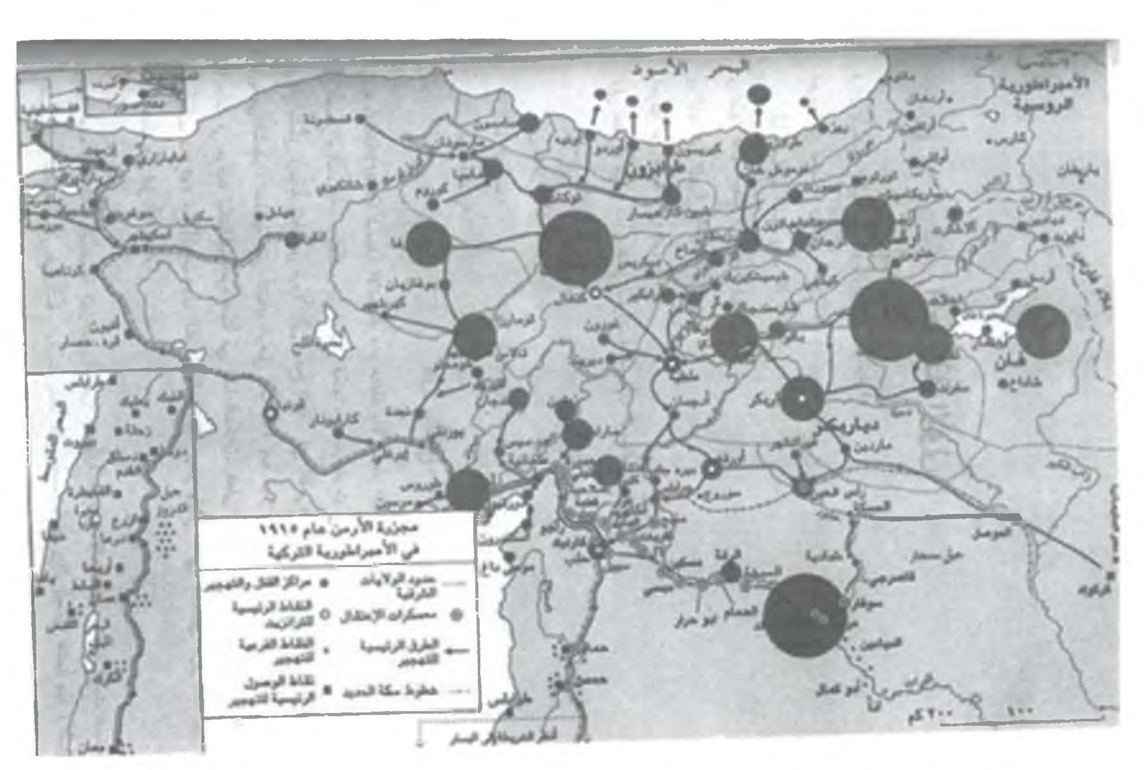


الوفد التركي في لوزان برئاسة الفريق أول عصمت إينونو

جبهة القوقاز

كان الجيش التركي في جبال القوقاز متفوقاً على الجيش الروسي طيلة ايام الحرب، لكنه لم يستطع التوغل أكثر في الأراضي الروسية لشدة البرد وتراكم الثلوج وانعدام الطرق وقلة وسائل النقل. وأذكر للمناسبة ان فرقة تركية كانت تجتاز شعاب احد الوديان في شرق الاناضول متجهة إلى جبال القوقاز هوجمت على حين غرة من قبل وحدات ارمنية كمنت

لها في التلال المحيطة ووجهت عليها نيرانها فأبادوا معظمها ما حدا بالاتراك ان يحقدوا على الارمن وينتقمون منهم بمهاجمة قراهم وعملوا فيهم قتلاً وتعذيباً وهجّروهم من قراهم إلى سوريا ولبنان وأقطار مجاورة فنهبت بيوتهم وممتلكاتهم.



توزع جغرافي لمجازر ارتكبت بحق الشعب الأرمني في مدن تركيا وقراها شرقاً وغرباً



أرمن أضنة أبناء السلطنة العثمانية ورعاياها سنة ١٩٠٩ في شهر نيسان من دون مأوى نجوا من المجزرة التي تمت بإشراف الحاكم العثماني أحمد جمال باشا(اينما حل تجد المآسي والخراب والجفاف والألم).

اما عن الجبهة فكان الجيشان معتصمان في جبال القوقاز وكلاهما يقاسيان البرد والجوع حتى نهاية الحرب.

جبهة رومانيا

كانت رومانيا إحدى الحلفاء تدافع عن منطقة دوبريجه ضد جيوش النمسا وهنغاريا وكان الجيش الروسي يساعد رومانيا في دفاعها فاستحال على المهاجمين التقدم طيلة سنة كاملة وتكبدوا فيها خسائر فادحة ولما كان الطرفان قريبان من بعضهما ولم يعد للمدفع أو الخيالة أو حتى البندقية اي قيمة، فكّر القادة الالمان في طلب فرقة تركية لتقوم بهجوم بالسلاح الأبيض وفي تشرين الأول عام ١٩١٧ جهزت تركيا فرقة من خيرة جنودها بأفخر الملابس والسلاح وبعثت بها إلى جبهة غاليشيا دوبريجه ولم تمضِ مدة قصيرة حتى اتتنا الأخبار باقتحام الفرقة التركية لبلاد رومانيا والاستيلاء على ثلثي اراضي تلك الدولة ثم بعدها شاهدنا القطارات آتية من رومانيا محملة بما غنمته من الخيل والمواشي لتملأ

سهول آياستيفانو فعاش الأتراك مدة طويلة ببحبوحة من اللحم والحبوب، علماً ان رومانيا بلد زراعي بالدرجة الأولى. اشتهر الجندي التركي ببسالته وتفوقه القتالي بالسلاح الأبيض كما اشتهر الهنغار بحرب الخيالة والفروسية، تشكل هنغاريا مع النمسا مملكة واحدة تدعى اوسترو-هانغري وتشغل في أوروبا مساحة أكبر من ألمانيا وكانت شهرة النمسويين بالمدفعية اذ كانت تسدد إلى الهدف المقصود فتصيب بالصميم.



مدفع نشيط في قطاع جناق قلعة

اشتدت الأزمة في بيروت وملحقاتها في جبل لبنان بخاصة، فتوقفت التجارة وبدأ الجوع ينشب مخالبه وجرى تقنين الخبز وفقدت مواد كثيرة كالسكر والكاز والأرز، وغيرها من المواد المستوردة عن طريق البحر الذي أقفل وسفن الاسطول البريطاني المسيطر لا تمكن القوارب من التجول في البحر. والمحصول الزراعي في لبنان والساحل لا يزيد على ربع حاجة الاستهلاك السنوي لذلك انصرف الناس إلى تأمين قوتهم بالطرق المشروعة والغير مشروعة وكثر تهريب الحبوب وباقي المواد الغذائية من البلاد السورية وحوران

وفلسطين وهاجر البعض إلى الداخل حيث الغذاء موفور وعنابر الدولة المزدحمة بالمواد الغذائية كانت مفتوحة لذوي النفوذ والاثرياء وما يحتاجون اليه بالرشى لمأموري الدولة، وكانت الدولة تسمح للنساء في بيروت بالسفر إلى دمشق لشراء الحنطة والمؤونة بحدود الخمسين كلغ بعد متاعب في الكرامة ومشقات مضنية.

التجنيد

لم تكن الدولة تعتمد السجلات في طلب الشباب الذين بلغوا السن القانونية للخدمة العسكرية، بل كانت تبث جواسيسها الذين يطوفون الشوارع والازقة والاسواق ويداهمون البيوت فيلقون القبض على كل شاب يظنون انه يصلح للتجنيد ويسلمونه إلى المسؤول صاحب القرار النهائي في أخذه هو رئيس عملية التجنيد «السوقيات» حسن حسني باشا، فيلقي نظرة على الضحية حتى اذا وجده مستوفياً الشروط ساقه إلى الحرب غير عابئ بسجله الرسمي فهو يعتقد ان كل سجلات السن مزورة. اصبح هذا الرجل معروفاً لدى القاصي والداني وغدت اللعنات والشتائم تنهال عليه أكثر من انهيالها على ابليس وكان ساعده الأيمن شاويش يدعى الحاج حودو الذي كان يتعقب الفارين لا ليقبض عليهم بل ليقبض منهم. كان يهتدي إلى مخابئهم عن طريق الجواسيس واستدراج الاطفال إلى التصريح عن موضوع تلك المخابئ وكانت زبانية حسن حسني تتفنن في تدابير كشف اماكن الفارين، والفارون يتقنون فن التخفي والتواري حتى ان بعضهم اتخذ لإقامته غرفة سرية بابها يشبه خزانة للأدوات الخزفية الصينية. وبعضهم اقام في غرفة تحت الأرض وعدد لا بأس به ارتدى لباس امرأة للتمويه اذا ما اراد الخروج للشارع. اما أصحاب النفوذ الأثرياء فكانوا يعيَّنون في وظائف مكتبية ادارية أو في العنابر أو في البريد وغيرها من الوظائف ليدرأوا عن انفسهم شر بلية الحرب.

طابور المترفين

كان لا بد للدولة من تجنيد جميع الرعايا، فالقانون لا يستثني الغني أو الوجيه «كل

من عليها عسكر» لكن أمر التجنيد لأبناء بيهم وسرسق وطبارة وبسترس وغندور وطراد وأمثالهم يثير مشكلة كبيرة فوق ذلك فهم لا يصلحون للحرب وقد ألفوا حياة الترف والرخاء ورغم ذلك فقد عمل حسن حسني من هؤلاء طابور أخضعه للتدريب العسكري واعتقد ان حسن حسني أقنعهم ووعدهم بان الغاية من التدريب هو اعدادهم للجندية في بيروت تنفيذاً للقانون وانه لن يسوقهم إلى ساحة الوغى فاشترى كل منهم أغلى الثياب العسكرية وتفننوا في زركشتها وتفصيلها فتضاءلت البسة الضباط الاتراك امامها. تولى تدريب هؤلاء ضابط تركي لبق برتبة نقيب فأحسن معاملتهم وحملهم على القيام بالتمارين العسكرية في ساحة الثكنة العسكرية السرايا الكبيرة كل يوم على مشهد من المتفرجين فأخذوا يركضون وينبطحون ويسكعون حاملين البندقية وحزامات الخرطوش، فكان منظراً رائعاً كان المفروض من هؤلاء ان يبيتوا في القشلة ويأكلوا طعام الدولة»القروانة» ولكنهم استعانوا بالهدايا الثمينة ففازوا بالأذونات المنوعة هذا مريض وذاك توفت جدته وآخر وضعت زوجته وو وغيرها من الاعذار الواهية حتى اصبح الجميع يبيتون في بيوتهم. وفي الصباح يأتي هؤلاء المجندين إلى الثكنة بعرباتهم تجرها الخيول المطهمة ويصحبهم الخدم للأبهة، وعند الظهيرة يقدم لهم الخدم الطعام الغني الموفور فيدعون إلى مائدتهم ضباطهم ومدربيهم وعند المساء تأتي العربات لتأخذهم إلى بيوتهم، ولم تمض مدة يسيرة على هذا التدريب حتى تمكن هؤلاء الجنود من ايجاد عمل ولو رمزي ليُعْفوا من التدريب. هذا عُين كاتباً والثاني وكيل عنبر والثالث متعهد لتقديم القمح أو الحطب أو غير ذلك من احتياجات الدولة الحربية وبذلك انفرط عقد طابور المترفين ونال الضباط الاتراك من المال والهدايا ما لم يخطر ببالهم. زاد والدي سنة من تاريخ ولادتي وانقص سنة من تاريخ ولادة اخي وسجلنا توأمين لينجو أحدنا من الجندية كما نص قانون الدولة يومئذٍ إذ يعفى احد التوأمين من الخدمة العسكرية فعشنا معا في مدرسة واحدة وفي صف واحد وفي مدرسة دار العلوم كان هو الأول في الصف وانا الثاني ويجب ان اعترف انني لم أكُ ثانياً بسبب الذكاء أو الموهبة بل كنت استعين بما يهيئه أخي من الواجبات المدرسية فيسهل علي فهمه أو حفظه. كان كما قلت، هو المصمم وكنت انا المنفذ في جميع اعمالنا البيتية والمدرسية والتجارية والكشفية واخيراً العسكرية.

اوقفنا العمل في مصنع الفواش وكان عندنا مدّخر كبير من كروزات الشمع الفواش واقفلنا المحل التجاري وفيه كمية لا بأس بها من البضائع التي كانت اسعارها في ارتفاع مستمر. وتقدمنا إلى حسن حسني باشا لنعرض عليه شهاداتنا فقبلنا وعين لنا موعد السفر. تسجل معنا عدد كبير من شباب بيروت مسيحيين ومسلمين أذكر منهم سعيد بكداش ويوسف زينة ويوسف فايد وفؤاد دبوس ويوسف سالم ونقولا سالم وكامل الصباح وسعيد الصباح ورباح البابا وحبيب غندور وفؤاد غندور ورائف فانوس وداود خطاب وكامل طبارة ويوسف غزيري وعزيز مومنة وزاد عدد افراد هذه القافلة عن الخمسين وكل منهم أتى بشهادة مدرسية إما عن جدارة أو لقاء ليرتين ذهبيتين كان يتقاضاها مدير المدرسة المعتبرة والتي لا تزال تمارس عملها بلقب كلية وكان حسن حسني يغض النظر ويوافق على الشهادات المزورة وكان يأخذ نصيبه من الليرات الذهبية.

حزمنا الأمتعة وقصدنا إلى محطة البور لنأخذ القطار الحديد إلى الشام وجاء أهلنا لوداعنا. كان مشهد الوداع رائعاً، دموع ودعوات ودراهم لنصرفها عند الحاجة وحلويات منوعة كنت ترى الشباب وكأنهم ذاهبين إلى وليمة بملابسهم الذهبية. الحقائب محشوة بأدوات الزينة والملابس الفاخرة وحاجات الرفاهية. كلنا حمل في وسطه مبلغاً يتراوح بين العشر ليرات والخمسين ليرة ذهبية يرجع اليها عند الحاجة. كانت مباراة عنيفة بيننا في اللباس والمظهر والعنجهية والارستقراطية. في صباح ١٦ نيسان ١٩١٦ تحرك القطار بنا قاصداً دمشق وكان يرافقنا ضابط اسمه سيف الدين وقد عهد اليه تسليمنا إلى قيادة الجيش في دمشق. اما انا فكنت طيلة الطريق إلى استانبول أعلل نفسي بالسيف اللماع وشارات القصب المذهبة والتحيات العسكرية تؤديها الجنود لي طوعاً أو كرهاً. ولا عجب في ذلك فانا في سن المراهقة سن الأحلام والآمال ولم ابلغ السابعة عشرة. وصلنا دمشق وبعد اجراءات المعاملات الروتينية خيرنا الضابط سيف الدين النزول في القشلة أو النوم في الفنادق ففضلنا الثانية وعلى حسابنا فنزل كل منا في فندق يتناسب ومقدرته المالية أو قل مع عنجهيته وكبريائه. وفي زيارتنا إلى المطبخ وجدنا الطعام مهيأً من الفول الأخضر باللحم والأرز بقدر موفور ورائحته الزكية تعم المكان. فقررنا اخي وانا وبعض المتواضعين ان نأكل

من ذلك الطعام، اما الرفاق الباقون فقد تفننوا في البذخ والانفاق على الطعام وكان بينهم من زودته امه بعشر ليرات ذهبية استدانتهم لتؤمن لابنها ما يستعين به عند الحاجة القصوى. كان هؤلاء يرفضون طعام الدولة وينفقون ما في جيوبهم بسخاء بهدف الفشخرة والمنفخة حتى بلغنا استانبول حيث كانت جيوب بعضهم قد فرغت من النقود أو المؤن، اما نحن أخي وانا فكل واحد منا يحمل في جيبه خمسة وعشرين ليرة ذهبية وقد قررنا ان نكتفي بها وان لا نكلف الوالدة ارسال المزيد لتحفظ ما لديها للأيام الصعبة القابلة. ركبنا القطار إلى حلب ومنها إلى المعمورة وهنا وقف القطار وأُمرنا بالنزول ثم المبيت في العراء لنتابع السير مشياً إلى بوزانطي صباح اليوم التالي، يا لهول الخبر، سنبيت هنا الليلة في العراء! نمشي ثلاثة ايام ولياليها؟ ونحن طلاب مدارس وابناء عائلات كريمة. وسوف نصبح ضباطاً نتقبل التحية في الغدو والرواح لقد اذهلنا الخبر وراودتنا فكرة العصيان والتمرد ولكن ما الحيلة لا بد من الطاعة وراح كل منا يفتش عن مكان يقضي فيه تلك الليلة، فذهبنا أخي وانا عند تجويف في الجبل وأقمنا خيمة من البطانيات وجمعنا بعض الأعشاب اليابسة وصنعنا منها فراشاً كما كنا نصنع في حياتنا الكشفية ودعونا رفيقان للمبيت معنا في خيمتنا ثم قصد البعض منا إلى القيادة فلم نجد سوى بعض الضباط الالمان وكان واحد منهم يفهم شيئاً من الانكليزية ولما فهم حقيقة امرنا وعدنا بان يرسلنا بسيارات الجيش من نوع الجيب أو ما يشبهه وقد علمنا ان هؤلاء من المهندسين المشرفين على مد خط سكة الحديد تحت جبال طوروس ليتم الاتصال بين المعمورة وبوزانطي وبواسطته يتم الاتصال بين سوريا والمانيا عبر تركيا وقد بذل الالمان جهوداً كبيرة وانفقوا اموالاً طائلة في سبيل هذا المشروع لتأمين اعمالهم الحربية فقد شقوا عدداً من الانفاق منها ما يستغرق نصف ساعة لاجتيازه بالقطار السريع. في الصباح ركبنا السيارات الالمانية بعضنا فوق بعض كالأغنام ولو اننا استطعنا الوقوف في السيارة لهان الأمر لكن الطرق الجبلية وهزات السيارة العنيفة والرياح العاتية الممزوجة بالرمال والغبار إضطرتنا إلى الجلوس في أرض السيارة بازدحام دونه ازدحام السردين في العلبة. بلغنا بوزانطي مفتاح جبل طوروس في الرمق الأخير فركبنا القطار وقضينا فيه ثلاثة ايام بلياليها وعند الصباح شاهدنا عند محطة المعمورة قطاراً قادماً من حلب وعلمنا انه

يحمل الجنرال الانكليزي تاونسند قائد حملة كوت العمارة الذي أسره الأتراك وجيشه، خمسة عشرة عربة تحمل الجنرال وهيئة اركانه وامتعتهم. دفعنا فضولنا للوقوف ورؤية هذا الجنرال. جاءت سيارة نزل منها ضابطاً المانياً وآخر تركياً، ووقفت محاذية للقطار والجنرال يهم بالنزول من العربة ليدخل السيارة ولما أخذ مجلسه فيها صعد إلى جانبه الضابط الالماني وظل الضابط التركي واقفاً آبياً ان يجلس قرب السائق، عندها انفجر الضابط التركي وخاطب الالماني بالفرنسية بلهجة عسكرية قاسية ما مضمونه، ان الأسير أسيرنا وفي أرضنا فاسمح لي ان اجلس معه فتفضل واجلس مع السائق، فتردد الالماني ولم يسعه إلا النزول عند إرادة التركي فترك مكانه وجلس مع السائق ثم ركب التركي بجانب الجنرال وتحركت السيارة، لقد أكبرنا في هذا الضابط التركي جرأته وأنفته ونحن نعلم ان الالمان كانوا يعاملون الاتراك معاملة السيد للمسود والكثير من الأتراك كان يتقبل هذه المعاملة برضى. عشرة في الغرفة وكاد النعاس يقتلنا ولا مكان آخر للنوم فآثر البعض النوم على أرض القطار بين الأقدام والبعض اعتلى الرف فاتخذ منه فراشاً، اما الجوع فقد عصف ببطون الرفاق وأنى لهم الوصول إلى الطعام والقطار يجري ولا يتوقف الا بضع دقائق حتى في المحطات الرئيسة فكانوا بالكاد يصيبون شيئاً من الزاد يسدون به جوعهم، أما أخي محمد سعيد فقد حرص على إعداد حقيبة تحوي انواع الاطعمة الجافة تكفينا حتى استانبول. القاورما والجبن والزيتون والزعتر والحلاوة والمعلبات من السمك هذا فضلاً عن الكعك لنرجع اليه عندما لا نحصل على خبز. وكلما دعتنا الحاجة نفتح الحقيبة ونتناول منها ما نشاء وكثيراً ما كنا ندعو بعض من استحال عليهم الوصول إلى ما يسد الرمق ليشاركونا الطعام وهؤلاء هم الذين كانوا يسخرون منا عندما كنا نتناول طعامنا من الحقيبة في وقت كانوا يستقدمون الاطعمة الفاخرة من الفنادق والمطاعم فيأكلون وينظرون الينا شزراً إلى مائدتنا، ولم ننس ان نقدم شيئاً من الحلاوة لأحد الجائعين الذي ازدرانا مرة في حلب قائلاً: «ان الذباب يحوم حولنا بسبب الحلاوة التي أتى بها هؤلاء». فأكَل الحلاوة بنهم بالغ وودّ لو نقدم له قطعة أخرى فيا لسخرية القدر! اقتربنا من استانبول وعمّت البهجة وعللنا النفوس بأيام جميلة نقضيها في ذلك البلد السحري وما هي إلا بضع ساعات حتى تتحقق الآمال ونحيا حياة الترف وننعم بمشاهدة

استانبول والبوسفور والبواخر تمر بجانبه والمآذن والجوامع والمتاحف وقصور السلاطين والأسوار التي اقتحمها محمد الفاتح ومقام الصحابي أبي أيوب الأنصاري وقصر يلديز والسلطان عبدالحميد المسجون في قصر دولما بهجه وكثيراً غيرها مما يأخذ الألباب فجعلنا نتحدث عن هذه المشاهد ويصفها الذين شاهدوها منا سابقاً إلى القادمين أول مرة. وفيما نحن كذلك إذ بالقطار يقف عند محطة «طوزلا» ، فأمرونا بالنزول مع امتعتنا وعلمنا اننا سنقيم في هذا الجحيم ثلاثة ايام وشاويش قذر يهوي بسوطه ويصرخ بالتركية شاتماً معربداً من دون ان نفهم كلمة وكأنه يسوق ماشية بعد لحظات وبصعوبة فهمنا انه يريدنا ان نحمل حقائبنا وندخل الخيام القائمة في تلك الأرض الجرداء المحرقة. يا لشقائنا ويا خيبتنا، أهذا مصيرنا بعد ان تكبدنا المشقات القاتلة نعلل النفس بالنعيم في استانبول، لا بد من الطاعة والا فالسياط ستلهب ظهورنا. بعد فترة ساقونا إلى الحمام لنتطهر وننزع ثيابنا لنذهب إلى التبخير. الحمام غرفة كبيرة فيها حواجز خشبية وماء بارد يسقط من الدوش والصابون لا أثر له ولا نستطيع العودة إلى خيامنا لنأتي بالصابون فقد صمّت آذانهم وعميت أبصارهم وظنوا اننا نريد الإفلات من يدهم. نفذنا الأوامر فنزعنا ثيابنا وسلمناها رزمة مجموعة بالحزام الجلدي وبللنا اجسادنا بالماء ثم خرجنا بالمئزر ننتظر إعادة الثياب ولما خرجنا من المبخرة تسلمناها مهلهلة لا تصلح للإرتداء. فأوينا إلى خيامنا لنرتدي ألبستنا التي بقيت في الحقائب ونجت من التبخير، فهم إذا عميت عيونهم لا يدركون ان التبخير معناه شمول كل أغراضنا، انما هم اكتفوا بتبخير ما كنا نلبسه قبل الحمام. حاولوا قص شعرنا على الصفر فرفضنا وقررنا العصيان والثورة ونزل الضابط عند رغبتنا. مكثنا ثلاثة ايام في تلك المضارب القذرة حيث لا ماء نشربه ولا طعام نستطيع ان نأكله، انه لجحيم أقمنا فيه، شاهدنا العذاب والحرمان الواناً ووددنا لو كنا في السجن على الأقل كنا نعامَل كالبشر.



الجنرال تاونسند أسيراً لدى القوات العثمانية Lieutinent general Townshend

البعثة الطبية

وفي اليوم الأخير من ايام «طوزلا» السوداء قدمت بعثة طبية مؤلفة من اخصائيين في مختلف الأمراض فنادى الشاويش على من يطلب المعاينة فليتقدم إلى اللجنة. فتقدم البعض منا وفاز حبيب الغندور بإذن مرضي لستة أشهر يسمونها تبديل هواء وكذلك أخي محمد سعيد ستة أشهر أيضاً بناءً لتقرير طبي أتى به من الدكتور غراهام في بيروت وفاز ابن عمي فؤاد دبوس بخدمة خفيفة لنحول جسمه فأرسل إلى المكتب البيطري في استانبول ونال البعض الآخر إعفاءات متنوعة فتهيأ لي ان أتقدم بعلة لعلي أحظى بما أصاب رفاقي من حظ، فعرضت عيني على المختص وكنت قد (فركتها) بيدي لتحمر ولما فحصها الطبيب طردني بلهجة فيها الدعابة والإشفاق، فقصدت طبيب الصحة العامة وادعيت ان قلبي فيه علة وما ان وضع السماعة حتى دفعني بيده إلى الباب، فدخلت غرفة الأمراض العصبية

أتعارَج وقلت للطبيب انني أشكو الروماتزم وهذا أيضاً سخر مني وقال أني شاهدتك تجري كالغزال وبدأت تعرج من حين دخولك الغرفة، يالك من مغفل إذهب وتجند، نريد ان نجند الاصحاء أمثالك. أسفت لهذه الخيبات المتلاحقة وفرحت لنجاح أخي في العودة. وعند انتهاء المعاينة صدر أمر السفر إلى استانبول لنقيم فيها أحراراً ثلاثة أيام ثم نعود إلى فنار بغجة حيث يجري تسجيلنا وإعدادنا لمباشرة التدريب. هنا انفرجت اساريرنا وغمرت الفرحة قلوبنا فحزمنا امتعتنا وركبنا القطار إلى «محطة حيدر باشا» المحطة الآسيوية الأخيرة ولما أطللنا على جوامع استانبول ومآذنها الشامخة حتى تعالت اصوات الظفر والتهاني والابتهاج وجعلنا نحسب الدقائق حتى بلغنا المحطة ومنها ركبنا الباخرة إلى الجسر الشهير القائم فوق خليج القرن الذهبي والذي يصل الجزء الشمالي من استانبول (بيوغلو) بالجزء الجنوبي(سركهجي) ويتسع هذا الجسر لرصيفي مشاة وطريقين للسيارات والعربات وخطين حديديين للقطار الكهربائي وهو يعج بالمارة على الجانبين والبواخر في غدوها ورواحها تقف عنده فترى الناس تندفع كالسيل لدى مغادرتها الباخرة إلى الجسر أو ركوبها البواخر من الجسر ولما بلغنا هذا الجسر كدنا نغيب في ذلك الخضم من الخلق فجهدنا كثيراً لنصل إلى عربة تقل كلٍ منا إلى الفندق الذي تسمح به نقوده، وقصدنا إلى فندق وسط في السركهجي لنقضي ثلاثة ايام فيه. نحن نعرف الكثير عن المدينة، فقد قضينا فيها اربعين يوماً سنة ١٩١٤ قبل إعلان الحرب العامة بشهر واحد فصرنا نصحب البعض من الرفاق في زيارة الآثار والمساجد والاسواق وكنا خلافاً لما تعودناه في زيارتنا الكشفية ندفع ثمن ما نأكله من الحلويات والفاكهة وذكرنا تلك الأيام التي لاقينا فيها من الحفاوة والكرم ما يعجز اللسان عن وصفه، ما الحيلة ونحن اليوم مجندون كغيرنا من الألوف المؤلفة. شدّ أخي محمد سعيد رحاله وودعناه ثم ركب القطار مع رفاقه المحظوظين إلى بيروت. وقد بلغني بعد ذلك ان أخي أبرق إلى البيت يخبرهم بعودته فلم تصدق الوالدة وظنت ان في الأمر خطأ فهي كانت تنتظر عودتي انا لضآلة جسمي وصغر سني ولكنها لم تجد غير محمد سعيد يعود اليها من دوني ففرحت واسفت، أما انا فكانت فرحتي لا توصف بعودة أخي فهو الذي نعتمد عليه في

إدارة شؤون البيت وإدارة المعمل والمحل التجاري وإمدادنا بالمال أخي الأكبر عمر وأنا. وعمر كان مجنداً في طولكرم وبئر سبع القواعد التي أقيمت لإمداد جيش الصاعقة في حربها مع الجيش البريطاني.

هوامش الفصل الأول:

تعود ظاهرة الدعاء للحاكم على المنابر بشكل واضح في خطبة الجمعة والعيدين للتأييد وإعلان الخضوع للحاكم إلى زمن الخلاف بين علي ومعاوية، وأول من دُعيَ له على المنابر تأييداً ونصرة له هو الإمام على بن أبى طالب، وكان ابن عباس ممثل علي في البصرة هو أول من دعا للخليفة حيث قال: «اللهم أيد عليًا بالحق». وقد تواتر بعدها الدعاء على المنابر للخليفة أو الحاكم أو السلطان، خصوصاً في الأمصار التي تم فتحها، ودخلها الإسلام بهدف إظهار التبعية والخضوع للحاكم على طول فترات تاريخ الدول الإسلامية بدءًا بدولة بني أمية، ومرورًا بالدولة العباسية ثم العصر المملوكي وما تلاها من دويلات وامارات وممالك، وهي متبعة الآن في الدول العربية (المملكة/ امارة) إضافة إلى الدول العربية ذات الحكم التوتاليتاري.



الفصل الثاني

التسجيل في المدرسة الحربية

غادرنا استانبول بعد ان قضينا فيها ثلاثة ايام كانت من أجمل ايام العمر، ولم نكن نعلم ما يخبئه لنا القدر بل على العكس كنا نعلل النفس بحياة النعيم والجهجهانية. اجتزنا البوسفور إلى ««محطة حيدر باشا» «أعظم محطة للدولة تقع على الشاطئ الآسيوي وترسو على ارصفتها البواخر على انواعها وركبنا القطار إلى قرية «ارنكوي» إحدى قرى الاصطياف على شاطئ بحر مرمرة، وهناك قادونا إلى أحد تلك القصور (الفيلا) الخشبية الذي تحيط به آثار حديقة منسقة مات فيها الزرع وقد داسته الأرجل فلم يبق الا بعض الاشجار وقد أشرفت على الموت أيضاً. شاهدنا هناك عشرات الطلاب أمثالنا بانتظار دورهم للتسجيل في المدرسة(قيد قبول) حيث يُسجل كل طالب ويُعطى رقماً متسلسلاً بقيده. قضينا يومين بانتظار دورنا، فكنا نفترش أرض الغرفة التي خصصوها لنومنا وهي خالية حتى من حصير يغطي أرض الغرفة وقدموا لنا الطعام في طبق كبير من النحاس، لكل عشرة طبق واحد أما الطعام فلم يكن أفضل من طعام «طوزلا» تعافه النفس ولا سبيل إلى ازدراده مهما بلغ منا الجوع وهذه تسمى (القروانة) أي طعام عشرة جنود وهذه الكلمة تطلق أيضاً على الطبق النحاسي أما الخبز فكان من القمح الأسمر لذيذ الطعم فكنا نشتري شيء من الجبنة أو السجق أو غير ذلك مما كنا نجده في السوق. كنا نفترش الأرض ونغطي أجسادنا بالرداء



الفصل الثاني

التسجيل في المدرسة الحربية

غادرنا استانبول بعد ان قضينا فيها ثلاثة ايام كانت من أجمل ايام العمر، ولم نكن نعلم ما يخبئه لنا القدر بل على العكس كنا نعلل النفس بحياة النعيم والجهجهانية. اجتزنا البوسفور إلى ««محطة حيدر باشا» «أعظم محطة للدولة تقع على الشاطئ الآسيوي وترسو على ارصفتها البواخر على انواعها وركبنا القطار إلى قرية «ارنكوي» إحدى قرى الاصطياف على شاطئ بحر مرمرة، وهناك قادونا إلى أحد تلك القصور (الفيلا) الخشبية الذي تحيط به آثار حديقة منسقة مات فيها الزرع وقد داسته الأرجل فلم يبق الا بعض الاشجار وقد أشرفت على الموت أيضاً. شاهدنا هناك عشرات الطلاب أمثالنا بانتظار دورهم للتسجيل في المدرسة(قيد قبول) حيث يُسجل كل طالب ويُعطى رقماً متسلسلاً بقيده. قضينا يومين بانتظار دورنا، فكنا نفترش أرض الغرفة التي خصصوها لنومنا وهي خالية حتى من حصير يغطي أرض الغرفة وقدموا لنا الطعام في طبق كبير من النحاس، لكل عشرة طبق واحد أما الطعام فلم يكن أفضل من طعام «طوزلا» تعافه النفس ولا سبيل إلى ازدراده مهما بلغ منا الجوع وهذه تسمى (القروانة) أي طعام عشرة جنود وهذه الكلمة تطلق أيضاً على الطبق النحاسي أما الخبز فكان من القمح الأسمر لذيذ الطعم فكنا نشتري شيء من الجبنة أو السجق أو غير ذلك مما كنا نجده في السوق. كنا نفترش الأرض ونغطي أجسادنا بالرداء

الذي أتينا به من بيوتنا فقاسينا من البرد والتعب أكثر مما عانينا في «طوزلا». تعرفنا في هذه الفترة إلى طلاب أمّوا المدرسة الحربية من أطراف الدولة وأكثرهم من الاتراك من بر الاناضول. وشاهدنا نماذج من الشعوب المتعددة الخاضعة للدولة العثمانية، من أكراد أو أرمن أو شركس أو سريان أو ارناؤوط وسكناج فضلاً عن العرب. والسكناج كلمة تطلق على اليهود والاسرائيليين القادمين من يافا أو القدس. وهؤلاء الاسرائيليون كانوا مصدر الكارثة فقد سمح الاتحاديين لبعض الاسرائيليين بالهجرة من أوروبا إلى يافا والقدس لتوطينهم شرط ان يصبحوا مواطنين من رعايا الدولة العثمانية. ولما كانوا من الرعايا حسب تجنيدهم في هذه الحرب من دون أي اعتبار لمدى اخلاصهم. وجوههم كالحة لم نألفها والوان بشعة وحديث مقرف فكانوا موضع احتقار الجميع واضطهادهم. كنا نجد سبيلاً للتفاهم مع الاكراد والارناؤوط حتى مع الارمن لوجود رابطة تجمع بيننا رابطة الدين رابطة تاريخ المنطقة والجذور وتشابه العادات. أما السكناج فلم يكن هناك اي اثر لرابط بينهم وبين الموجودين. حتى الضباط الأتراك كانوا يزدرونهم ويعاملونهم معاملة المنبوذين، رغم ذلك، كانوا على جانب عظيم من الثقافة واكثرهم يتقن بضع لغات أوروبية، وكان الطلاب الموجودين لا ترتقِ ثقافتهم إلى مستوى الشهادة الابتدائية وقد تميز سكان الاناضول بجهلهم وأميتهم، فهم فلاحون أغبياء سذج، المتعلم منهم كان بالكاد يستطيع قراءة أو كتابة اسمه باللغة التركية. بينما كان بين البيروتيين نسبة كبيرة مثقفون يحسنون الفرنسية أو الانكليزية وبعضهم التركية وهذا ما أغرى الاسرائيليين على التقرب منا لعلّهم يجدون بيننا نصيراً فكان نصيبهم الفشل لسببين، لوضعهم المقرف ولإرضاء الأتراك الذين نعيش في كنفهم وتحت رحمتهم. وتبين لي ان الأتراك وبخاصة الاناضوليين منهم يعطفون على العربي ويكنون له الاحترام، ويجدون(يعتقدون) فيه شيئاً من القدسية وفي اعتقادهم اننا أقرب إلى الاسلام وأشد تمسكاً بأهدابه واننا افضل منهم لهذه الناحية، أوليس النبي عربي وان القرآن أنزل عربياً؟ يقابل هذا العطف نحو العرب كره شديد لغير المسلمين واليهود بخاصة. وأخيراً جاء دوري فسجلوا اسمي واعطوني رقماً متسلسلاً (١٧٣٦٢) واصبح اسمي عبدالله بيروت تبعاً للقاعدة التي كان يسير عليها القيد في الجيش التركي في تسمية الأفراد فيضيفون إلى اسم الجندي اسم

مدينته أو قريته فكنا نسمعهم ينادون كامل صيدا(الصباح) أو نقولا صور(سالم) ابراهيم قدس أو عازار يافا أو احمد قيسري أو طلعت در سعادات(«در سعادات» تعني «الدار العلية» أو استانبول) وكان لها رنة حلوة في الأذن ووقع يدعو إلى شيء من الرهبة واهل استانبول يتباهون بانتمائهم للعاصمة فهي رمز الارستقراطية ولها وقع في ذلك الوسط كوقع لقب سرسق، بيهم، طراد، غندور، طبارة في اوساط بيروت، فهل تعجب إذا نَعِم أهل استانبول أو «در سعادات» بإمتيازات واستثناءات لا حدّ لها؟.

عجم نحن أعجام أي جنود خام لا نعرف شيئاً من التدريب العسكري فأُرسلنا إلى قرية بستانجي على ساحل مرمرة وعلى الخط الحديد بالذات. هناك عشرات البيوت الخشبية التي كانت مصيفاً لأثرياء استانبول يسمى الواحد منها«كشك» أو «كوناق» وهو مؤلف من طابقين أو ثلاثة وقد صادرت الدولة هذه البيوت لإيواء طلاب المدرسة الحربية، حُشرنا عشرة في غرفة واحدة ثلاثة امتار بـ اربعة مربعة لنتام جنباً إلى جنب على الأرض الخشبية بعد ان تحننوا علينا بإعطائنا حرام واحد لكل جندي واتخذنا من الحرام فراشاً لنا ومن الرداء غطاءً وحمدنا الله ثم عينوا عريفاً علينا من الأتراك طبعاً وهذا مكلف بمراقبة الدوام واللباس وتوزيع الخبز والاشراف على أكل القروانة. اتسع البيت لمئة جندي تقريباً، يشكلون طقماً أو جزءًا من السرية التي يراوح عدد افرادها بين مئتان إلى ثلاثمئة ولكل طقم أو كشك آمر من الضباط يسمى آمر الطقم ويعاونه بعض المتخرجين حديثاً في الادارة والتدريب العسكري عملاً بالقاعدة التي وضعها رابي بيك الألماني في تدريب الطلبة ولقد درب هذا القائد الآلاف منهم. وهؤلاء قاموا بتدريب القوافل التي جاءت بعدها وفي كل دورة كان القائد يبعث بالمتخرجين إلى ساحات الحرب ويستبقي المتخرجين المحظوظين لتدريب القوافل القادمة. لقد قسموا التعليم إلى اربع مراحل خمسة واربعون يوماً لكل مرحلة، فالمرحلة الاولى للأعجام المبتدئين وتضم أفواجاً يقارب الألف جندي الواحد منها. وهذا الفوج مقره بستانجي وفيها يتدرب المبتدئ على الحركات الفردية، مثل تأهب واسترح واستعد ويميناً ويساراً أو بحمل السلاح(النظام المرصوص) وغير ذلك. وخصصت الرحلة التي بعدها إلى تدريب الجنود بالجماعات أولاً بالطليعة ثم بالطقم أو بالسرية كلها. هذه مقرها

قرية «ارنكوي» وتضم فوجاً كاملاً أيضاً وتسمى الدورة الاولى. ثم تأتي الثانية، وهذه خصصت للتدريب على الأعمال الحربية في السهول والجبال في الهجوم والدفاع ويشترك فيها الفوج كله ومقرها «مالتبة» قرية في الجبال المواجهة للجزر المشهورة في بحر مرمرة، أما المرحلة الأخيرة فتسمى(مرتب) وفيها يتدرب الطلاب على الإدارة وإصدار الأوامر نظرياً وعملياً ويهيأ ليصبح ضابطاً يقوم على قيادة طقم أو سرية ومقرها «فنار بهجة»، ومن مراكز التدريب إلى محطة حيدر باشا فاذا أنهى الطالب الدورات الأربع ومدتها ستة أشهر يتخرج برتبة مرشح ضابط، وبذلك يقدم هذا المكتب كل خمسة واربعين يوماً ما يقارب ألف ضابط وفي السنة ثمانية آلاف تقريباً. فهل يؤمن هذا العدد حاجة الجيش التركي من الضباط؟ التدريب هنا وفي سائر الدورات كله عملي لا كتب ولا أوراق بل مسير وعَدْو وركوع وانطراح على الأرض وحمل أثقال على الظهر ومداعبة البندقية برفعها إلى الكتف وتصويبها إلى الهدف من الصباح إلى المساء إلا ساعة واحدة وقت الظهر لتناول الطعام. الشتائم المنوعة تنطلق تباعاً من أفواه المدربين واللطمات تنهال من دون سابق انذار بحق أو بغير حق، حتى اذا عدنا إلى البيت أخذنا نتشاكى مصائبنا والبلاء الذي نزل بنا وأخذ البعض يواسي البعض الآخر. أما نحن خاصة أبناء بيروت فكان أكثرنا لا يأكل القروانة والبعض كان يأخذ نصيبه من الحبوب كالفاصوليا أو الفول أو الحمص في صحن ثم يعمد إلى غسلها وتتبيله بإضافة الثوم والحامض والزيت حتى يصبح طعمه مقبولاً، وفيما عدا ذلك كنا نعدُّ بأيدينا بعض الأطعمة الخفيفة. أما الخبز فكان يصيب كل فرد رغيفاً يزن ٨٠٠ غرام كل يوم وهو مصنوع من القمح الاسمر ممزوج بالكستنا أو غير ذلك من المواد الرخيصة وكان بعض المدخنين يبيعون كل يوم نصف حصتهم من الخبز لشراء الدخان اللازم أما أنا فكنت أشتري فوق حصتي رغيفاً آخر وأحياناً رغيفين وكنت أعجب كيف يكتفي هؤلاء برغيف خبز واحد في الـ اربع وعشرين ساعة. اما اللباس فكان من المفروض ان تقدمه الدولة، إذ كنا نخرج إلى التدريب باللباس المدني وفي مدى اسبوعين بُلِيَ أكثر هذه الملابس وأصبح من الضروري ان توزع الدولة الملابس وان يصيب كل فرد منا بذلة على الأقل فأعلنوا عن توزيع الملابس للمحتاجين فقط وكانت عبارة عن قميص ولباس من الستان الأسود. وقف طلاب الألبسة

في رتل طويل امام الضابط الأرمني أرتين المولج بتوزيع الألبسة فجعل هذا يسأل الطالب عن اسمه فاذا تبين له انه عربي قام بطرده مسمعاً اياه أقذع الشتائم واذا كان تركياً أعطاه اللباس العادي اما اذا كان در سعادتلي (من أهل استانبول)أعطاه بذلة من النوع الممتاز. كان يجري توزيع الخبز بالقرعة فيدير أحد الجنود ظهره إلى الأرغفة العشرة ويسأله العريف هذا لمن؟ وهذا لمن وهو يسمي الأسماء حسب مشيئته وكان نصيبي دائماً الرغيف الناقص أو الرغيف الممزق، ولم يُخفَ السر عليَ وتأكد لدي انهم يتعمدون هذا الاجحاف لأنني العربي الوحيد في تلك الطليعة، فصرت كلما طرح الخبز أرضاً لإجراء القرعة أختطف الرغيف الناقص وأعفيهم من إجراء القرعة فخجلوا من تدبيرهم الدنيء هذا وجعلوا يقدمون لي أفضل الأرغفة كما وان لطعام الدولة قدسية عندهم فهذا طعام السلطان لا يجوز لأحد ان يعرض عنه أو يبدي اشمئزازه منه واذا بدر من أحدهم بادرة إشمئزاز يأمره العريف أو الضابط باللوم الشديد ثم يردف قائلاً هذا طعام السلطان. كان آمر الفصيلة(الطقم) يسخِّر في كل مرة بضعة طلاب لإحضار الطعام والخبز من المطبخ العام على بعد عشرين دقيقة وكانت تجري هذه السخرة بالدور، حسب القانون، وعلى هذا كان المفروض ان يصيبنا الدور نحن الأربعة العرب في ذلك الفصل مرة واحدة في الأسبوع لكن هذا الدور المشؤوم كان يفرض علينا كل ثاني يوم أو ثالث يوم على الأكثر، وكان يصيب اليهود كل يوم تقريباً ولم يكن لنا في ذلك حيلة. وفي يوم شديد الحرارة أمرنا الضابط بإحضار الطعام، فلبينا مرغمين لكن أحدنا وهو أكبر سناً وأوسع حيلة قادنا إلى المطبخ فحملنا الطعام في حلة ذات يدين من الجانبين وحملنا الخبز وفي طريق عودتنا جلسنا تحت شجرة واخذ صاحبنا مصطفى يعمل في الخبز تمزيقاً ثم أخذ حفنة من التراب ووضعها في حلة الفاصوليا فناول الجنود الفاصوليا الممزوجة بالتراب وجهدوا في توزيع الخبز المقطع وتكرر منا هذا العمل ولم يكن لديهم دليل على تعمدنا إفساد الطعام، فلم يجدوا بداً من إعفائنا من هذه السخرة المضنية أولاً ثم إنصافنا في توزيع الدور على أساس المساواة وقد طرد الأرمن بضعة من رفاقنا البيارتة الذين أتوا لطلب الألبسة وقد تمزقت ثيابهم ولم يبق لديهم مالاً ليشتروا به ملابس فقد أنفقوه في الطريق قبل ان يصلوا مراكزهم إشباعاً لنهمهم وغرورهم. فاشفقت لحال هؤلاء وهم من

الموسرين في بيروت وآلمني مشهد أحدهم انزوى جانباً وأجهش بالبكاء بعد ان صفعه ذلك الوحش وطرده من الصف ولا ذنب له سوى انه تقدم بطلب ملابس. هؤلاء هم الذين كانوا يهزأون من تعتيرنا في الطريق وقد تجلت الحقيقة لعينيهم الآن وثبت لديهم اننا كنا على حق اذ احتفظنا بدراهمنا لنشتري بها الملابس اللازمة فلا نقف الموقف الذي وقفوه ونستغني عن طعام القروانة الذي اضطرهم الجوع إلى ازدراده. هبطنا المدينة عند ظهر يوم الخميس في عطلتنا الاسبوعية وذهبت إلى السوق فاشتريت بذلتين عسكريتين وقلبق وحذاء وغير ذلك مما احتاج اليه في التدريب العسكري. اما اليهود فلم يتقدم احد منهم بطلب الألبسة ولم يفكروا بهذه المجازفة فهم عرضة لإزدراء الضباط والأكراد في كل بادرة تبدر منهم وكان الضابط كلما نادى على الأسماء ومرَّ باسم احدهم من يافا أو القدس يسأله الضابط وانت ايضاً من يافا؟ قاتلك الله، وانت أيضاً من القدس؟ حلَّ بك البلاء فيضحك الجنود وتغمر وجه الضابط نشوة النصر. كان يسمح لنا بقضاء نهاية الاسبوع خارج المدرسة من ظهر الخميس إلى صباح الاثنين وكان آخرون يشجعوننا على مغادرة المدرسة طمعاً برغيف أو رغيفين يأخذونها ويبيعونها ويعملون بها ثروة لا بأس بها حتى المحجوزون كانوا يفوزون بالعفو بسبب هذا الرغيف على أهون سبيل. بحثت عن منزل أستاذي في دار العلوم عبدالجبار وعبدالستار خيري في استانبول وذهبت إلى منزلهما ورحبا بي كثيراً وسرَّهما انني اول ضابط من تلاميذهم في بيروت فنشروا صورتي في مجلتهم التي كانوا يصدرونها وينشرونها في العالم الاسلامي. كتب عبدالجبار بهذه المناسبة كلمة عني وعن مدرسة دار العلوم والحركة الكشفية ولم يغب عن باله ان يقدمني بوصفي أول تلميذ من المدرسة جرى تسجيله ليصبح ضابطاً في جيش الخلافة الاسلامية، تبين لي بعد في ما بعد ان السيد عبدالجبار استطاع ان يحوز على ثقة أنور باشا وبنى معه صداقة متينة وقد شاهدت أثر ذلك في الاجراءات التي اتخذتها الدولة بناء لاقتراح السيد عبدالجبار إجبار المحلات التجارية في البلاد العربية على كتابة لافتاتهم باللغة التركية وتعليم هذه اللغة في جميع مدارس الدولة العثمانية وتعميم التدريب العسكري فيها أيضاً وحصر الوظيفة العامة بأهل العلم على أساس الامتحان. وأكبر دليل على هذه الثقة ان أنور باشا اقتطع قطعة أرض كبيرة على شاطئ البوسفور لينشئ عليها

السيد عبدالجبار مدرسة في نهاية الحرب أعظم جامعة اسلامية يكون هدفها تدعيم الخلافة الاسلامية والسلطة العثمانية. كان عبدالجبار يحوطني برعايته ويعرض علي المساعدة التي احتاج اليها. كنت انزل في قصره أيام عطلة الأسبوع واحياناً أعدّ له الأطعمة التي كان يحبها في بيروت فنأكلها معاً وكان يحدثني عن أهله وأعماله في استانبول، وسألني يوماً عن معاملة الضباط لنا في المدرسة الحربية فأجبته اننا نلقى من صغار الضباط قسوة ووحشية لا حدَّ لها لكن اعتقد ان كبار الضباط أسمى أخلاقاً وأقل وحشية، لا يا حبيبي؛ قالها منتفضاً، فالفاسد هو أنور باشا بالذات والناس على دين ملوكهم، ولو كان أنور باشا صالحاً لصلحت الدولة وعمّ العدل وانتصر الحق ولو لم يكن هو نفسه فاسداً لما شهدت أثراً للفساد أو الظلم. فالرئيس هو المسؤول عن صلاح أمته وفسادها. وأذكر ان عمر بن الخطاب قال يوماً لو ضاعت شاة على شاطئ دجلة لكنت مسؤولاً عنها. فهذا يثبت انه المسؤول عن كل شاردة وواردة حتى في أقصى أطراف سلطانه. كان لهذه النظرية أبعد الأثر في قلبي ومنذ ذلك اليوم وانا أفكر في مدى صحة هذه المقولة وأطبقها على الواقع اليومي لحياتنا ان كان في اجهزة الدولة أو المصانع أو في المدارس وفي جميع المنظمات والمؤسسات على اختلاف انواعها واهدافها واطبقها على الاحداث التاريخية، فكنت أخرج دائماً بنتيجة واحدة، وقد اصبحت اعتقد جازماً بأن كل دائرة برئيسها فاذا استقام استقامت واذا فسد فسدت.



الرائد انور بك قفز أربع رتب، سنة ١٩١٢ رائداً، بمقتل الصدر الأعظم محمود شوكت ١٩١٣ ، وزيراً للحربية ورقي إلى لواء(باشا) ثم فريقاً وصهر(داماد) السلطان.

لصوص العنب

دخل علينا في إحدى الأمسيات صديقنا الظريف شفيق حمود وهو كان يلفظ السين ثاء فقال يا أولاد تعالوا نذهب نثرق العنب، فهناك على بعد نصف ثاعة كرم قد نضجت عناقيده وحان قطافها فوافقنا نحن الأربعة يوسف فايد رائف فانوس انطوان صوراني وانا وافقت مجاراة لهم. بعد ان قفزنا فوق الأسلاك الشائكة اختار كل منا دالية يسطو عليها وما ان بدأنا القطف حتى هلعت قلوبنا لصوت الناطور ينادي محذراً، شعرنا بالخطر وقفزنا فوق الاسلاك واخذنا نعدو من دون ان نلتفت ورائنا والناطور يطاردنا بساقيه ولسانه إلى ان توارينا عن انظاره. ردّت الينا الروح وأخذنا نمشي الهوينا ونتجاذب اطراف الحديث عن تلك المغامرة المشؤومة، دخلنا غرفتنا فلم نجد قائدنا شفيق حمود فأخذنا نضرب

أخماساً بأسداس، فالناطور لا بد قبض عليه فهناك حذاء أحدنا وقد تركه عند السياج لشدة الذعر الذي استولى عليه فإذا اهتدى اليه الناطور فالقيادة لا بد ان تستدل علينا بسبب الحذاء فنذهب جميعاً ضحية هذا الحذاء. قضينا ربع ساعة ونحن في حالة يرثى لها من الاضطراب والخوف فأخذنا نتبادل الرأي في اختلاق الأعذار وإعداد لائحة الدفاع وغير ذلك من التخريفات الصبيانية وفيما نحن كذلك اذا بشفيق حمود يدفع الباب فيدخل علينا معززاً وبيده اليمنى صرة كبيرة وباليسرى الحذاء المنحوس فبادرنا بلثغته المحببة وين رحتو يا اولاد الثرامي فاذا كنت مكلفاً باحضار حثتكم من العنب وهل انا مكلف باحضار الثرماية لجنابك يا ثيد يوثف؟ يا لها من مفاجأة رائعة لقد ردت الينا روحنا وكدنا نطير فرحاً، لقد برهن شفيق عن تفكير صائب واعصاب متينة، لاذ في مخبأه تحت الدالية ما دام الناطور مشغولاً برفاقه فليتابع قطف العنب وليأكل ما طاب له ما دام لديه متسع من الوقت فلا بأس اذا جمع بمنديله الكبير نصيب رفاقه البائسين من ذلك العنب، وليأتي بالحذاء الذي صادفه عند السياج في طريقه إلى الثكنة. كان لهذا الحادث أثره الكبير عندي وقد آليت على نفسي ان لا أتورط في مغامرات كهذه وخيمة العواقب.

في سوق استانبول

كنت أبعث بالرسائل إلى بيروت واتلقى أجوبة في حينها من دون نقص إذ كانت رسائلنا مرقمة متسلسلة فلم نفقد رسالة حتى نهاية الحرب على الرغم من الظروف القاهرة الناتجة عن الأعمال الحربية. وكنت أتلقى الهدايا من بيروت من ضروب المأكولات كالبقلاوة والتين الجاف والعسل والزعتر وكانت تصلني كاملة وبحالة ممتازة إلا ان مأمور العنبر كان يستدعيني ويفتح الصرة بيده على مشهد مني بحجة التفتيش فكان لابد من إهدائه جزءًا لا بأس به من محتوياتها. علمت ان أهلي أصبحوا بحاجة ماسة إلى الأقمشة التي خلت منها أسواق بيروت بسبب الحرب وانقطاع الواردات فقصدت يوم الجمعة إلى سوق محمود باشا(شبيه سوق سرسق) لأشتري منه شيئاً من تلك الأقمشة وأبعث بها إلى بيروت لكني كنت أجهل أصنافها كما أجهل طريق المساومة سيما وقد اشتهر تجار تلك السوق بالغش واسعارهم الفاحشة.



بازار منسوجات وأقمشة في استانبول

دخلت أحد المتاجر وانا في حيرة من أمري ورحت أقلب الأقمشة وأسأل عن ثمن كل منها وقد بدا لي أنني سأكون أحد ضحايا تلك السوق في ذلك اليوم وفي غمرة هذا التردد والارتباك دخلت المتجر غادة حسناء ارستقراطية المظهر في غاية الجمال والرقة واتجهت نحوي وبادرتني قائلة: «يبدو لي انك غريب ولا عهد لك بشراء الاقمشة فهل تسمح لي بمساعدتك في شراء ما تحتاج اليه»؟ ثم انطلقت تقلب البضاعة وتختار أجودها وتعرض عليّ ما اختارته وانا غارق في بحر من الدهشة والخجل. هل هبط هذا الملاك من السماء؟ فتاة من أجمل فتيات استانبول وأرقّهن حاشية، عليها مظهر الثراء والارستقراطية تتطوع لخدمتي من دون ان يكون لي في ذلك يد؟ لقد ادركت ما يجول في خلدي، فقالت لي:»لا تعجب فنحن أعضاء جمعية نسائية أخذنا على عاتقنا مساعدة الجنود في شراء حاجاتهم فنخرج أيام الجمعة إلى الأسواق لنمد يد المساعدة إلى الجنود الغرباء أمثالك ونكبح جماح الطامعين من الباعة ونضمن لكم البضاعة الجيدة بالثمن القانوني ونسهل لكم انواع

المعاملات التي يصعب عليكم اتمامها في المدينة». بعد ان قطعت حاجتي من الأقمشة فرضت هي الثمن فكان أقل من نصف ما كنت مقدراً دفعه وقد تلعثم لساني وعجزت عن التعبير عن شكري وامتناني لكنها فهمت ما كنت ارمي اليه فقالت: «لا شكر على واجب»، ثم ودعتني وانصرفت لتبحث عن مرتبك آخر. لقد سحرتني هذه الفتاة بجمال حديثها حيث تتكلم التركية الاستانبولية وهل أعذب من اللغة التركية تجري على لسان غادات استانبول.
يوم التفتيش كان يوم الارهاق والتعذيب في هذه الدورة، يصدر الأمر إلى جميع الضباط بوجوب إحضار جنودهم إلى الساحة الواقعة امام منزل القائد رالي بيك عند الساعة الثامنة تماماً فيضرب آمر البيت الذي نبيت فيه نفير النهوض عند الساعة الرابعة صباحاً فنسرع إلى الملابس ونرتديها ثم إلى شنطة الظهر نملؤها ثيابنا ونقضي أكثر من ساعة في إعدادها، ونلف حولنا الحرام حسب التعليمات القاسية، وعند الساعة الخامسة نذهب إلى مقر السرية فيستوقفنا قائد السرية ساعة كاملة ثم يتوجه بنا إلى مقر قائد الرهط وهذا أيضاً يستعرضنا ويقلبنا ثم يتوجه بنا عند الساعة السابعة إلى مقر الآلاي امام منزل رالي بيك الالماني وهناك ننتظر إلى الساعة الثامنة حيث يخرج ليقوم بدورة تفتيشية على جنوده وهذا أيضاً يستغرق ساعة أخرى وبعدها نساق إلى التعلم حتى الظهيرة فتزهق ارواحنا بسير عسكري ووقوف وجوع ثم تمرين مرهق ولا سبيل إلى الشكوى أو الاعتراض ولا سبيل إلى التمارض أو الفرار في ذلك اليوم. خمسة واربعون يوماً قضيناها في تدريب عسكري مضنٍ حيث لا رحمة ولا عطف بل جوراً وإرهاقاً وتفنناً في الشتائم أقلها (خائن آراب) وطعام ينفر منه المتسولون. يجب الآن ان ننتقل إلى «ارنكوي» لتدريب درجة أرقى، لكن القيادة أدركت ان الطلاب العرب واليهود يلقون صعوبة في فهم الاوامر والدروس باللغة التركية ولا يمكن تخصيص العدد الكافي من التراجمة، فقر رأيها على فصل العرب واليهود عن الاتراك وتشكيل سرية من كل منهما. فخطر لي انهم سوف يتمادون في ارهاق العرب واليهود اذا تم هذا الفصل، لذا قررت رفض الالتحاق بسرية العرب وإخبار المفتش المكلف بقراري هذا مدعياً انني احسن اللغة التركية وان والدتي تركية الأصل، وبعد ان اختبرني ذلك المفتش وتبين له اني احسن اللغة وانني اتحدث بها كباقي الاتراك وربما أفضل بكثير من أهل

الاناضول. لقد نجحت هذه المحاولة وضمنت لنفسي كثيراً من الاحترام والطمأنينة. هذه «ارنكوي» البلدة الارستقراطية الجميلة وقد انتشرت في أطرافها القصور الفخمة والحدائق المنسقة وتهادت في شوارعها غادات استانبول الفاتنات. تقع المدينة على شاطئ بحر مرمرة وعلى الخط الحديد وقد اتخذها أثرياء استانبول مقراً لاصطيافهم بل هي أرقى مراكز الاصطياف المنتشرة في ضواحي استانبول. أُعطيت التعليمات المشددة لاحترام نساء المدينة وعدم التعرض لهن، لكن أنّى لهؤلاء الجنود ان يفكروا في مغازلة وهم مرهقون من التدريب المضني ليلاً نهاراً ونحن في شغل عنهن في تأمين القوت والنوم والراحة، ونحن منهمكون في اوقات الفراغ(اذا وجدنا فراغاً) في إعداد الملابس والحقائب وتنظيف السلاح، ثم كيف ينصرف الجندي إلى اللهو وهو جائع أو انه يعيش على طعام لا تتوفر فيه مقومات التغذية؟ هنا يجري التدريب بالجماعات بالطليعة أولاً (ثمانية جنود والعريف) ثم بالفصيل(بضعة طلائع) ثم بالسرية(ثلاثة فصائل). التدريب غاية في القسوة يجب ان يكون الصف مستقيماً كالخيط طولاً وعرضاً أثناء المشي والعدو، وكان الضابط ينذر بإطلاق رصاصة من مسدسه عند اذن الجندي الأول لتمر بمحاذاة الجندي الأخير واذا أصابت هذه الرصاصة وجه أحد الجنود يكون هو المسؤول وكنا نصدق ما يقوله ونحاول بكل قوانا ان لا نحيد عن الصف قيد شعرة خشية ان تصيبنا الرصاصة. كنا نخرج مرة في الاسبوع للتدريب على الرماية بالبندقية وفي الأوضاع المختلفة، انبطاحاً على الأرض أو الركوع أو الوقوف، أما الهدف فكان عبارة عن دوائر أصغرها بقطر عشرة سنتمترات رقمها ١٢ وأكبرها بقطر متر واحد ورقمها ١ وأفضل ما يصبو اليه الجندي هو إصابة رقم ١٢ وقد لاقيت نجاحاً مرموقاً في الرماية وفزت مرة بإصابة رقم ١٢ عن بعد ٣٠٠م اما الحادث الذي أثار إعجابي في حقل الرماية هو ما قام به ضابطنا إذ شاهد أحد الطلاب يرتعش لدى تصويبه البندقية وتردد في ضغط الزناد وبلهجة حازمة واثقة تقدم وأخذ البندقية من الطالب وصوبها نحو الهدف بسرعة خاطفة واطلق الرصاصة واقفاً وهي أصعب اوضاع الرمي، بعد لحظة برزت نتيجة إصابة الرقم ١٢ وهو كبد الهدف وليس هناك مجال للزعبرة والخداع لأن الجنود المكلفين بإعطاء النتائج يكونون تحت الهدف ولا يرون الرامي. لقد حدث ما توقعته فكانت سرية ابناء

العرب تلاقي من العذاب صنوفاً والواناً إضافة إلى الشتائم وزادوا مدة تدريب السرية ساعة يومياً، فهم يعودون من التدريب في وقت نحن فيه نيام. أما اليهود فكان الضباط الاتراك يتفننون في تدريبهم واضطهادهم بقسوة بالغة ويتبارون في إهانتهم والسخرية من شذوذ سحنتهم ولكنتهم المضحكة أثناء حديثهم ولم يكن بينهم غير سكان يافا والقدس فهذا حاييم يافا والثاني إيزاك قدس والثالث سمحون يافا والرابع عازاريا القدس، هذا على الرغم من ثقافتهم العالية واتقانهم لغات أوروبية عدة ورغم ادبهم وسلاستهم وانصرافهم الكلي إلى تلقي الدروس والتمارين بإخلاص وامانة. لقد ساءني تصرف الضباط الاتراك وتعصبهم العنصري وتبين لي انهم انما يزرعون الكره في نفوس هؤلاء الشباب ويثيرون حفيظتهم على الدولة فيخلقون منهم أعداء ألداء لا يمكن الاعتماد عليهم في الاعمال الحربية الخطيرة وربما كان بين العرب أو اليهود عدد من المؤلفة قلوبهم والذين عندهم الاستعداد الكافي للإخلاص للدولة ولكن رجال هذه الدولة لم يتركوا مجالاً لتأليف القلوب أو السير في طريق الاخلاص وطبيعي ان يكون هناك شيء من التفاهم بين العرب واليهود على حساب العدو المشترك الأتراك. لقد استهوتني الأنغام التركية ووجدت في الاستماع اليها لذة كبيرة وسبب ذلك أنني تأثرت بالموسيقى الشرقية وهي مزيج من الفارسية والتركية والعربية فـ(الصبا، النهاوند، الحجاز، السيكا، البيات، العجم والشاركاه) هذه كلها أنغام مشتركة تلحن بها الأغاني العربية والتركية والفارسية. وسبب آخر انني كنت آنذاك في السن التي يتقبل فيها الفتى ما يتردد على مسمعه من الحان فيألفها ثم يستسيغها ثم يعشقها، وهذا ما حصل لي بالضبط، فقد تعشقت الالحان التركية ورحت اشترك مع الهواة الأتراك في الغناء عند المساء فتعلمت كثيراً من الأغاني التركية الشعبية والكلاسيكية والعسكرية وفوق ذلك كنت استمتع باكتشاف معنى كل كلمة أتت في الأغنية وكانت أغلبها فارسية التي لم يكن الاتراك انفسهم يفهمونها فضلاً عن الكلمات العربية. كانوا يتوهمون ان الكلمات الفارسية أو العربية هي كلمات تركية فصحى فكنت أفسر لهم المعنى واصحح أفكارهم ما دفعهم ان يروا فيّ اللغوي الكبير ولم يكن يكلفني هذا اللقب إلا دراسة الكلمات الفارسية واستيفاء معانيها من أستاذي عبدالجبار في استانبول، والطريف في الموضوع ان الضابط المكلف

بتعليمنا الأناشيد العسكرية كان يعتمد علي في شرحها بالتركية وتعليمها. كانوا يقيمون منا بضعة حراس يحرسون البيت الذي كنا ننام في ليلاً على سبيل التدريب، ولما كان الليل بارداً قاسياً تواطأنا على ان يظل الحارس صاحب الدور في فراشه فيتسلم بندقية الحراسة واللائحة بأسماء الحراس وكلمة السر وهو في فراشه وبعد ساعة يسلم كل هذا إلى جاره صاحب الدور وهكذا كان يجري التسلم والتسليم الصوري حتى الصباح. ولم تمضِ مدة على هذا الاهمال حتى عممت القيادة الاوامر المشددة على الضباط والجنود وان يقف الحارس في نقطته ساعة كاملة وان يستعمل سلاحه عند اي محاولة من قبل أي كان. في منتصف الليل الأول من نشر تلك التعليمات جاء ضابط سريتنا يريد امتحان حارس الباب الرئيس، فتقدم بهدوء وبخطى حذرة بغية مفاجأته باحتضانه من الخلف، لكن الحارس كان يقظاً وقوياً وشاعراً بقدوم أحد من الوراء فبادر بالدفاع عن نفسه بطعنه بحربة بندقيته في بطنه وكانت قاتلة، فهبَّ سكان البيت مذعورين لصرخة مدوية صادرة من القتيل، فأقبلنا إلى الباب لنجد الضابط يتخبط بدمائه والحارس الاناضولي منتصباً بجانبه ودم القتيل يسيل على ركبتيه كأنه لم يأت بأمر ذي بال. لم يكن من آمر البيت إلا استبدال حارس بحارس ووضع الاول تحت الحفظ حتى الصباح ريثما ينظر بأمره المجلس الحربي اما الضابط المصاب فقد أرسل إلى المستشفى العسكري حيث فارق الحياة. اجتمع المجلس الحربي للنظر في هذه الجريمة فبرّأ الحارس القاتل وعاد إلى عمله وكأنه قتل أرنباً. كانت حياتنا في ارنكوي شديدة وناعمة وكنا بعد انتهاء الدروس ننعم بساعة استراحة تنسينا عناء ما لاقيناه في النهار لكننا في أثناء تجوالنا بين القصور وفي الشوارع قد تتمشى بها غادات ارنكوي فكنا نطبق القاعدة المعروفة انظر بعينك ولا تلمس بيدك.

الدورة الثانية في مالتبة

بعد مضي ٤٥ يوماً على وجودنا في ارنكوي انتقلنا إلى مالتبة حيث توجد الثكنات المشيدة على جبال جرداء قليلة الارتفاع تبعد فقط عشرين كلم عن العاصمة. وهذه الثكنات تتسع لجميع طلاب تلك الدورة وعددهم يقارب الالف. هنا يجري التدريب على المناورات

الحربية كتسلق الجبال والزحف على البطن وحفر الخنادق وهجوم ودفاع من الفجر إلى النجر، واذا ما عدنا ألقينا بأنفسنا على الأرض لا نعي على شيء فلا تعجب اذا تسلل البعض منا (أعني زمرة البيروتيين) إلى مخابئ نلجأ اليها في غمرة الزحف والهجوم. ونتربص ريثما يتعد الجميع عن الأبصار ونقضي بقية النهار في مكان منعزل بعيداً عن الأعين وعند المساء نتحين الفرصة لننضم إلى رفاقنا ونعود معهم إلى الثكنات وكأننا لم نأت شيئاً، ثم هناك التمارض فكثير منا كان يلجأ إلى الطبيب عند الصباح مدعياً انه مريض ويشفع الدعوى بهدية لطيفة فيعفى من الاشتراك بمناورات ذلك اليوم ومنا من كان يدعك ميزان الحرارة في غفلة من الطبيب فترتفع الحرارة إلى الرقم ٤٠ واكثرهم يفوز بالاجازة المطلوبة واللطيف بذلك ان احدهم دعك الميزان وقرأ الطبيب ٤٢ فعلَت وجهه الدهشة وظن ان عينيه تخدعانه لكنه بعد ان فحص المتمارض اكتشف السر وضحك كثيراً ثم قال له لقد أكثرت من حك الميزان ايها الشيطان. اما اذا لم يفز المتمارض بعطف الطبيب سطر على ورقة كلمة(متمارض) ومعنى ذلك انه يؤخذ إلى التعليم ويحرم من فرصته الأسبوعية. أما انا فقد اكتشفت في الطبيب رقة الحاشية وتقديره للصدق والصراحة، فكنت أقصده كلما تاقت نفسي إلى الراحة وأقول له انني تعب أرجو منحي يوماً للراحة وكثيراً ما كان يبتسم ويحقق رغبتي. اما الحراسة فكانت أدهى وأمر من سابقتها، هنا الحراسة مدتها ساعتان كاملتان نقضيها وقوفاً بعيداً عن الثكنة مقدار خمسمئة متر لا نسمع إلا عواء الذئاب وصرير الرياح العاتية ولا نشهد إلا الظلام الحالك، فكان الخوف والوحشة تقض مضجعي وتمر الساعتان وكأنهما ليلتان وما أحلى وقع خطوات العريف المناوب وهو يبدل الحرس وهما يدنوان مني رويداً رويداً فأسلم الدور وارجع إلى فراشي والغبطة تملأ فؤادي. في المهجع كان يجاورني أثناء النوم أحد رفاقي البيروتيين وذات صباح نهض من نومه وهو يفتش عن محفظته مدعياً فقدانها وفيها مبلغ كبير ثلاث ليرات ورق تركية. ولما لم يجدها ذهب إلى الضابط المناوب واخبره عن فقدان محفظته متهماً الطالبان المجاوران له من اليمين والشمال وانا احدهما ولما سأله عن رأيه فينا فلم يشأ ان يوفرني من تهمة السرقة واجاب متردداً لست أدري، فطار صوابي واندفعت حانقاً ثائراً أطلب من الضابط ان يسمح لي بطرح بعض الاسئلة على ذلك المغفل، فسألته كم

انت مدين لي فأجاب ثماني ليرات ثم سألته من اشترى لك السترة الجديدة وأعطاها للخياط وتعهد بدفع أجرته وقد بليت سترتك هذه فأشفقت عليك وتطوعت فمددت يد المعونة اليك وانت ابن بلدي لم يهن علي إلا ان تكون مجملاً بين زملائك ثم هل تعلم انني أحمل من المال ما يكفيني لمدة سنة كاملة. عندها انخجل وما كان من الضابط إلا أن صفعه على وجهه وطرده مشفوعاً بدستة شتائم مخصوصة ثم قال له أهذا جزاء المعروف اذهب يا عبدالله افندي وخذ السترة من الخياط واحتفظ بها لنفسك فان المعروف ضائع مع هذا اللئيم. وقد نسي انه نقلها إلى الحقيبة قبل النوم وكان ذلك الزميل الأحمق موضع سخرية واحتقار من الجميع. كنا في هذه الجبال الموحشة نشاهد العربات على انواعها تمر تحمل قوارير الماء الضخمة لتملأها من الينابيع المنتشرة في جوارنا ليشربها أهل استانبول الذين يعتمدون هذه الماء لشربهم. فيجري توزيعها على البيوت والمطاعم والفنادق والباعة الذين يبيعونها مع انواع الشرابات كالشربة(شراب الزبيب) والعيران(شراب اللبن) ومن أطرف ما أرويه عن حوادث هذه الدورة حادثة قروانة الفول، إذ كان الفول من أطيب ما نشتهيه من طعام وكنا ننتظر يوم الفول بشوق ولهفة. وكانت مجموعة بيروت يتبّلون الفول على طريقتهم الخاصة. كنا نشرف من هذه الجبال على القسم الاكبر من مدينة استانبول باجزائها الثلاثة، اسكودار على الساحل الآسيوي و«حي بك اوغلي والسركهجي» على الساحل الأوروبي يفصل بينهما «خليج القرن الذهبي» ويصل بينها جسران عظيمان الجسر القديم والجسر الجديد.



جسر غلاطة كما يبدو من برج بايزيد(البرج البيزنطي) الرابط بين استانبول الأوروبية والآسيوية



مسجد الـ..لطان أحمد ومسجد آيا صوفيا في استانبول

الأفق، وجزر الأمراء التي كانت مصيف الطبقة الارستقراطية ورواد العاصمة استانبول، وكان الجنرال الانكليزي تاونسند قائد حملة كوت العمارة معتقلاً في إحدى تلك الجزر وقد أكرمته الدولة العثمانية تقديراً لتصرفاته النبيلة باستقدامها عائلته لتقيم معه طيلة ايام الحرب. أما مضيق الدردنيل الواقع عند الطرف الثاني من بحر مرمرة فقد حدثنا زملائنا السابقون عن أهواله وعن الذعر الذي عمَّ المدرسة الحربية في فترة الهجوم الصاعق الذي شنه الانكليز والحلفاء على هذا المضيق بجيوشهم واساطيلهم، والدفاع المستميت الذي قام به الجيش العثماني بقيادة الجنرال الالماني ليمان فون ساندرز، فمن هذه المدرسة كانت ترسل القافلة اثر القافلة حتى قبل ان يتموا مدة منهاج الدراسة المقرر ليجعل منهم ضباطاً ثم رقباء وعرفاء وجنوداً محاربين لا تفريق بين طالب وجندي حتى بلغت المجزرة أشدها في الأشهر الأولى من سنة ١٩١٥ أي قبل وصول قافلتنا البيروتية إلى استانبول فكان طلاب المدرسة الحربية ضحية هذه المجزرة وكان الداخل إلى تلك الساحة مفقود والعائد منها مولود فلا غرو اذا استولى الخوف الرهيب على من كان ينتظر دوره من بقايا طلاب تلك المدرسة. القائد الانكليزي يريد اختراق مضيق الدردنيل بأي ثمن ليتصل الحلفاء بـ روسيا من جهة وليفصل بين الدولة العثمانية في آسيا وحليفاتها المانيا والنمسا الأوروبيتين غرباً، ولو انه استطاع تحقيق هدفه لانتهت الحرب في صالح الحلفاء فوراً لكن المانيا قدرت خطورة الموقف فاحضرت ما امكنها من وسائل الدفاع إلى غاليبولي وصمد الجيش العثماني في «جناق قلعة» و«انا فارطه». حاول الانكليز مستميتين ان ينْفذوا من ثغرات»اري بورني» إلى استانبول. والواقع ان الدولة العثمانية شعرت بالخطر المحدق وتأكد لها تفوق الانكليز وقرب استيلائهم على العاصمة فباشروا بنقل الكنوز والتحف والدوائر الحكومية والعسكرية وسجلاتها إلى مدينة «بورصة» وجميع ما تحتاج اليه الدولة في متابعة ادارة الحرب. لقد ضحى الانكليز بمئة قطعة حربية استقرت في قاع الدردنيل واستولوا على أكثر القلاع عدا قلعة جناق قلعة الحصينة واستولت القوات الانكليزية والفرنسية على ضفتي

شبه جزيرة غاليبولي (القسم الأوروبي) وقسماً كبيراً من الآسيوي ولم يبق امامهم سوى يوم واحد لتسقط العاصمة استانبول بأيديهم لولا المعجزة التاريخية التي حصلت على يد القائد المتمرد مصطفى كمال باشا الذي طلب منه انور باشا خصمه ان يتسلم قيادة جبهة الدردنيل ولكن مصطفى كمال اشترط ان تطلق يده في ادارة الجبهة وان يُسحب الضباط الالمان. وافق انور على شروطه. فأمر القائد مصطفى الفرقة الاولى بالهجوم على مواقع العدو في «آنا فارطا» أبيدت هذه الفرقة مئة بالمئة ثم أتبعها بفرقة ثانية التي أبيد ثلثيها والحقهما بالفرقة الثالثة التي تمكنت من ابادة قسم كبير من جيش العدو المواجه بالسلاح الابيض وعند الصباح كان في ميدان المعركة الأتراك فقط، ترك العدو تلالاً من التموين والذخيرة ولاذ هارباً بما استطاع نقله من عتاد إلى السفن التي سارعت للابتعاد عن مدى مرمى المدفعية التركية منسحبة إلى قواعدها بتاريخ ١٨ آذار ١٩١٦ بعد ان قطعت الأمل من الوصل إلى استانبول. وكانت حصيلة تلك المواجهة الضارية إغراق مئة سفينة من أسطول الحلفاء وإفناء خمسين الفاً من كلا الطرفين.



المارشال ليمان فون ساندرز Otto Liman von Sanders رئيس البعثة الألمانية والمهندس الرئيس للعمليات العسكرية في البحر الأسود والدردنيل وفلسطين (١٨٥٥-١٩٢٩)



طلاب بإسم الإستشهاد والجنة والدفاع عن الاسلام أُخذوا إلى معارك القوقاز والدردنيل

وما ان انتشر خبر الانسحاب حتى عمّت الفرحة العاصمة وبقية المدن التركية وجميع افراد الشعب التركي مقيمين الزينات واقواس النصر والاحتفالات وانهالت البرقيات مهنئة مصطفى كمال باشا بطل«انا فارطه» ولمع اسمه في تلك المعركة فسجل في لائحة الشهرة قائد تلك الحرب. لقد عضّ الانكليز على النواجذ عندما تبين لهم ان استانبول كانت في قبضتهم لو ان اسطولهم ثبت بضع ساعات أخرى إذ ان حصن جناق قلعة أوشك على السقوط ولم يبق فيه الا مدفع واحد مع بضع قذائف وبضع ساعات أخرى.



بوارج انكليزية وفرنسية فشلت في محاولة اجتياز مضيق الدردنيل إلى بحر مرمرة

مضيقا الدردنيل والبوسفور وصولاً إلى البحر الأسود

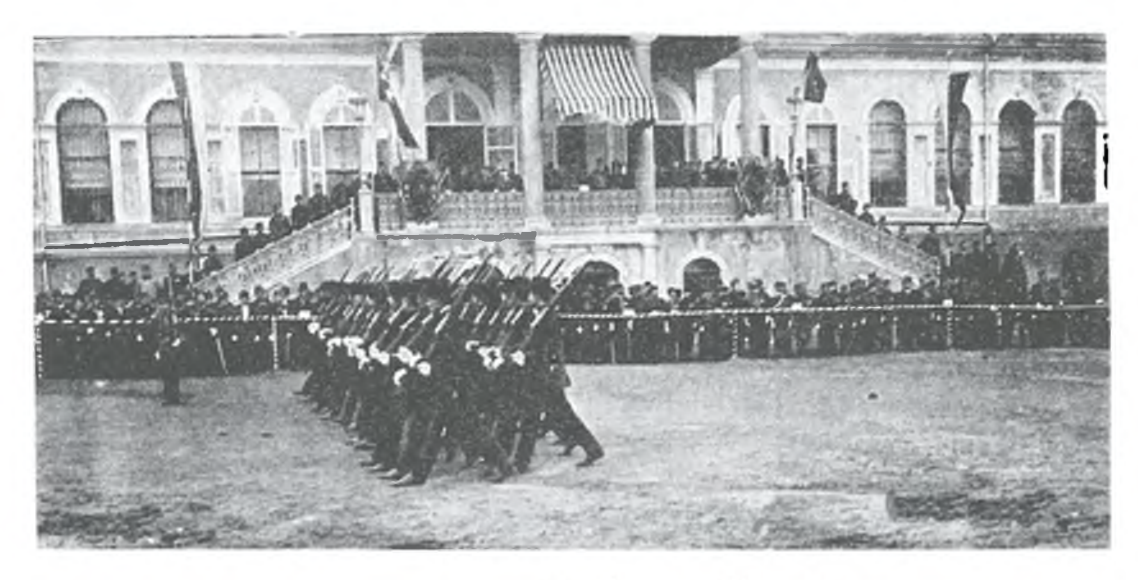
حمدنا الله إذ دخلنا المدرسة الحربية في ١٨ نيسان ١٩١٦ أي بعد انسحاب الحلفاء بشهر واحد، ولو انا دخلناها قبل انتهاء معركة غاليبولي لكنا من وقودها، لا شك في ذلك ولا تسل عن الاحاديث التي كانت تدور بيننا وبين الذين نجوا من طلاب المدرسة فكنا نتبادل التهاني ونستمع إلى حديثهم عن وقائع تلك المعركة بتلهف وشوق. انتهت الدورة الثانية ونجونا من جحيمها باعجوبة بانتقالنا إلى قرية «فنار بهجة» أقرب قرى المدرسة الحربية إلى العاصمة، وهي مثل ارنكوي قرية ارستوقراطية هادئة. هنا دورة المرتب(الدورة النهائية) وفيها ينحصر التدريب على أصول القيادة ومبادئها فيتدرب الطالب على قيادة السرية أثناء المعركة وادارتها نحو انجاز أهدافها والعناية بجنوده من حيث الملبس والصحة والذخيرة والطعام وكيفية إصدار الاوامر في ساحة القتال واستخدام القوى المتاحة بين يديه على أكمل وجه، ان في الهجوم أو في الدفاع أو الانسحاب وهنا يقوم كل فرد بدوره قائداً لقطعة عسكرية فيصف له المدرب وضعا من الاوضاع الحربية في ساحة القتال وعليه ان يصدر اوامره التي يجب ان تأتي منسجمة مع ظروف ذلك الوضع ويشترط فيها السرعة والحزم. كان الضابط المدرب يستدعي أحدنا ويقول انت قائد السرية هذه وعلى بعد ٦٠٠ متر منك يوجد فوج مشاة للعدو يطلق النار على جنودك وقد فاجأتك سرية من فرسانه من جهة اليسار ظهرت على بعد الف متر فأصدر اوامرك. على هذا الطالب ان يفكر ويقرر بسرعة ويصدر اوامره الصائبة بقوة وحزم فإذا أخطأ توجه المدرب إلى غيره لتصحيح المسار وبعدها نتبادل الرأي لنقرر أفضل الأوامر التي يجب ان تعطى في ذلك الظرف. كانت حياتنا في هذه الدورة هادئة ناعمة. وكنا نُعامل معاملة تتناسب مع الدور الذي نقوم به ونحن على عتبة القيادة وعن قريب سنصبح ضباطاً ذوي كرامة وجاه ونفوذ أو نصبح مدربين وزملاء للقائمين على تدريبنا، نحن ننتظر انتهاء الدورة لنصبح ضباطاً نزهو بالسيف والأشرطة الذهبية ونتقبل التحيات من الجنود ونصدر الأوامر فتنفذ فوراً من دون اعتراض. وهل هناك فرحة أعظم من السير في شوارع استانبول ورد التحيات عن اليمين وعن الشمال بالجملة والعيون

شاخصة الينا بإعجاب ومزيد من الاحترام؟ لكن الامتحان كان الشيء الوحيد الذي يخيفنا ويهدد بضياع تلك الفرحة اذا سقطنا، انه امتحان صارم يجري في الهواء الطلق حيث اللجنة الفاحصة وعلى رأسها القائد الالماني رابي بك تقف متراصة على خيولها فيتقدم صاحب الدور منها ثم يطرح أحد الأعضاء سؤالاً حربياً فيُصعق الطالب المسؤول ويتلعثم امام هذا الحشد الرهيب من الفاحصين. كانت سجلاتي ممتازة كما اعلم وكنت أطمح إلى درجة «ا» ولما نودي على اسمي تجلدت ولم أدع الخوف يتسرب الي فتقدمت بخطى عسكرية ثابتة ولما طرح علي السؤال تريثت قليلاً أفكر ثم أصدرت الأوامر بصوت جهوري حازم فوزعت المهام على الجنود وتصرفت بسرعة وبقوة متناهيتين وكنت مع الجنود كأنني في معركة حقيقية، فرأيت دلائل الاعجاب والتقدير على وجوه أعضاء اللجنة وتأكد لي الفوز بدرجة»ا» وقد نلتها وكنت أحد اثنين من الخمسين عربياً فازا بهذه الدرجة داود خطاب وانا، أما الباقون فنالوا درجات مختلفة «ب»و «ج» أما اليهود قليل منهم من نال درجة»ب» والباقون منهم درجة»ج» والسر في تفاوت الدرجات ان صاحب الدرجة «ا» يتقاضى ٣٠ قرش في الشهر وتتم ترقيته بعد ثلاثة اشهر من تاريخ تخرجه ويصبح وكيل ضابط براتب شهري قدره ٦ ليرات ذهبية ويدخل في عداد الضباط ويتمتع بكل مميزات الضابط التركي، اما صاحب الدرجة «ب» يستحق الترقية اذا ما قام بمهمة خطيرة ابان الحرب «فدا كارلك» أما صاحب درجة «ج» لا سبيل إلى ترقيته مطلقاً وتسند اليه أعمال ادارية أو تموين أو النقل. جاء موعد الرحيل إلى ميادين الحرب، لا يعلم أحد مصيره. ليلة قضيناها بالتخمين والتوقعات. ترى أي جبهة من الجبهات ستكون من حظي؟ ألف مرشح سوف يوزعون على الجبهات المشتعلة في أطراف الدولة. كان الخوف يملأ قلوبنا من جبهة القوقاز فهناك البرد القاتل والجوع المميت والثوار الأرمن في طرق القوقاز يتربصون بالجيوش التركية للفتك بها وقد سمعنا ان فوجاً تركياً قد أفناه الأرمن عن بكرة أبيه في أحد الوديان وهو في طريقه إلى هضاب القوقاز، واكثر ما كنت أخشاه ان يكون مصيري فوج الانتظار، وهذه ثكنة يُجمع فيها الذين

يفيضون عن الحاجة من المرشحين بانتظار الطلب وآمر فوج الثكنة آمر أعور متحجر القلب اسمه سليمان وكان الطلاب يطلقون عليه اسم (كور سليمان) وكان يعذب أفراد الفوج سوء العذاب ويتغنى حول تعذيبهم وارهاقهم ويوجه لهم أقبح الشتائم فكانوا يحدثوننا عن فظائعه وحياة الذل التي كانوا يحيونها معه وكانوا يفضلون أي ساحة من ساحات الحرب على البقاء في جهنمه وهذا ما جعل قلوبنا تهلع لسماع اسم(كور سليمان). في صباح اليوم التالي جمعونا في ساحة فسيحة وكنا أشبه ما نكون بقطيع غنم يساق إلى الذبح لا يدري الكبش شيئاً عن مصيره. قسمونا مجموعات واطلقوا على كل مجموعة لون من الالوان، وهذه التسمية نوع من الشيفرة يعتمده القادة في توزيع الجنود على الجبهات كي لا يعلم أحد وجهة المجموعات الأخرى. هذه مجموعة من مئتين جندي اسمها المجموعة الحمراء وتلك المجموعة البيضاء من مئة وخمسين جندي، مجموعة اللون الازرق ومجموعتي اللون الأخضر من خمسة عشر جندي وكان رفيقي الوحيد فيها نقولا صور(نقولا سالم) فآنست به ووجدت في صحبته العزاء وكلانا لم ندرِ إلى أين وجهتنا. مشينا على الطريق العام المؤدي إلى استانبول بنظام عسكري تتقدمنا الموسيقى العسكرية فازدحم ألوف المصطافين على جانبي الطريق شباباً وشيباً ونساءً واطفالاً يحيوننا بألسنتهم وقلوبهم وبأيديهم ينثرون علينا الورود، واستوقف مسيرنا سرب من غادات «فنار بهجة» لتوزع علينا علب الحلوى والبسكويت والسجائر والشوكولا والزهور، وعند «كوزتبه» تكرر الشيء نفسه مع حسناواتها وتكرر ذلك مرات حتى وصلنا محطة حيدر باشا «الأسكلة» البحرية العظيمة على البوسفور.



داود خطاب متخرجا ضابط آمر سرية مدفعية الرشاش



تخريج طلاب الكلية الحربية في استانبول سنة ١٩١٦



محطة حيدر باشا، المحطة المركزية للقطارات في إستانبول الآسيوية هي صلة وصل تركيا بين الشرق والغرب. تملكها شركة سكك حديد الجمهورية التركية تقع في القسم الآسيوي من إستانبول وقد تم إنشاؤها كمحطة رئيسة على خط سكك الحجاز في العام ١٨٧٢م خلال الحقبة العثمانية..

تركت هذه البادرة أثر كبير في نفوسنا وقد أثار عواطفنا صاحبات القدود الهيفاء حماسنا نحن الطلاب والبائسين وأحيا قلوبنا كيف لا وهنّ أجمل فتيات استانبول وأرقّهن حاشية وأرفعهن ثقافة. من هذا المرفأ تفرقنا واتخذت كل قافلة وجهتها المقررة. أما قافلتنا فقد اتجهت إلى مرفأ السركهجي، اذاً نحن متوجهون إلى أوروبا ماذا هناك؟ هناك غاليشيا حيث جيوش النمسا وهنغاريا بوجه الجيوش الرومانية مدعومة من الجيش الروسي. كانت معركة حامية الوطيس والشتاء على الأبواب، وتأكد لنا أننا سائرون إلى تلك الساحة الرهيبة واننا سنكون من ضحاياها، لكن القدر ابتسم لنا هذه المرة فما ان بلغنا محطة آياستيفانوس حتى أمرنا الضابط بالنزول من القطار فتهللت اساريرنا وتبادلنا التهاني، نحن في «آياستيفانوس»

أجمل قرى الاصطياف على ساحل بحر مرمرة في القطاع الأوروبي، ولكن ماذا يوجد في هذه القرية؟ تبعنا الضابط فقادنا إلى دارة جميلة على الشاطئ وقدمنا إلى ضابط الماني برتبة نقيب، فرحب بنا هذا وخاطبنا بواسطة مترجمه اليهودي حاييم قائلاً انتم الآن في معهد «الرشاش مكسيم» وقد أُحضرتم للتدريب مدة ثلاثة أشهر أو اربعة ليصبح كل منكم قائد سرية «الرشاش مكسيم» ثم أردف يقول لقد طلبت مني القيادة اختيار خمسة عشر من خيرة المتخرجين علماً ونشاطاً وأخلاقاً لأن قيادة سرية مدفعية مهمة خطيرة تتطلب شباباً بتلك الصفات وسوف نقوم على تدريبكم وانتم القافلة الأولى لتقوموا بيدكم على تدريب القوافل القادمة واعلموا انني سوف استبقي الناجحين بينكم لمساعدتي في التدريب وابعث الباقين إلى ساحات الحرب.



رشاش مكسيم على عجلات الرشاش



الرشاش على منصب ويبدو خرطوم الماء لتبريد سبطانته

لا تسل عن الفرح الذي غمرني إذ تأكد لي انني نجوت من ويلات الحرب قبل ان يأتي دوري، ولما قادنا إلى الكشك المخصص لنا اخترت نقولا سالم صديقاً لي ورفيقاً طيلة مدة إقامتنا وبقينا جنباً إلى جنب في إحدى الغرف هناك. قرية «آيا ستيفانوس» أو «سان ستيفانوس» تبعد مقدار ١٥ كلم عن العاصمة استانبول وكادوا ان يستولوا عليها وعلى مضيق البوسفور ذات الموقع الاستراتيجي، وأتت شهرة «آياستيفانوس» وذاع صيتها بسبب عقد المعاهدة الروسية-العثمانية فيها عقب هزيمة الدولة العثمانية في الحرب مع روسيا(حرب القرم) في اواخر العقد السابع من القرن التاسع عشر. يومئذٍ خشيت الدول الأوروبية وفي مقدمهم بريطانيا من سقوط المضائق بأيدي الروس فهددوهم بالتدخل اذا لم يوقفوا الحرب ويتراجعوا فاستجابت روسيا للطلب مشترطة ان توقع تركيا معاهدة صلح في قرية «آياستيفانوس» وكانت شروط المعاهدة مذلة لتركيا ما حمل الناس على تشبيهها بكل شيء جائر. وكثيراً ما صرنا نسمع في بلادنا قولهم أهي شروط الموسكوب؟ والموسكوب نسبة للعاصمة الروسية موسكو. وغالبية سكان هذه القرية من «الروم» اليونانيين وهي قرية جميلة منسقة وحدائقها يانعة وفسيحة وشوارعها واسعة مستقيمة وفي غاية النظافة وهي مع جارتها «مقري كوي» أشهر قرى الاصطياف في القطاع الأوروبي ولكل من هاتين القريتين مسبح بحري ترتاده الطبقة الاستانبولية المحافظة وزوارها الأجانب. لقد سبقنا إلى هنا بضعة طلاب من مدرستنا ليكونوا نواة العمل وقد دربهم النقيب غوسلاو الالماني بنفسه ليقوموا بدورهم على تدريبنا وها نحن أول مجموعة يشرعون في تدريبها تحت اشرافه. بدأنا بالتدرب بواسطة مدافع خشبية نحملها على أكتافنا ونهاجم بها ثم ننصبها ونوجهها إلى العدو بطريقة تمثيلية. وكنا نتلقى نظرية في الهواء الطلق كتقدير المسافات ومدى انطلاق القذيفة وتأثير الجاذبية عليها والخط المنحني الذي تسير فيه القذيفة وانواع الاهداف ومدى تأثير المدفع الرشاش في كل منها. وعن نظام التعاون مع المشاة والمدفعية والخيالة، ثم دروس على الخيل وركوبها والعناية بصحتها ونظافتها إلى غير ذلك مما تتطلبه المدفعية من معلومات. وكان الالماني يشدد ويبالغ في التصرف السريع في ادارة الرشاش وبالصوت القوي الحازم على إعطاء الأوامر، فلم يجد من يروي غليله سوانا نحن الإثنين نقولا سالم

وانا، فكلانا موضوع تقديره وقد اتخذنا مثلاً في ارشاداته وتعليماته ويعتمد علينا في إيضاح مسائل رياضية لرفاقنا الذين يجهلون سرعة الصوت وتأثير الجاذبية والمقاييس والتحويلات فضلاً عن جهلهم للغات الأجنبية.

هذا حادث جرى لي أثناء إقامتي في معهد الرشاش، فذات نهار بينما انا اتجول في شوارع استانبول أمشي على الرصيف قرب الباب العالي صادفت على الرصيف المقابل رجلاً عسكرياً يرتدي لباس جندي عادي من النوع الخشن.



مدخل قصر الباب العالي أو «طوب كابي» كان القصر مركز الحكم بالنسبة إلى السلاطين العثمانيين وكانت جميع الأقاليم تستعمل اسمه للإشارة إلى السلطان. الصورة في أواخر القرن الـ١٩ ومطلع القرن الـ٢٠ مقر الصدر الأعظم والوزراء (الحكومة) ومنه تخرج القرارات الرسمية في الشؤون الداخلية والخارجية

وقف هذا يشير إليَ باصبعه ان أتقدم نحوه فاستنكرت منه هذا التحدي وانا أعلى منه مقاماً فأنا مرشح ضابط وهو رقيب على أكثر تقدير. انا من هذه المسافة لم استطع التميز لشارات البكباشي على كتفيه فحييته التحية العسكرية الألمانية لكنه لم يأبه لتحيتي بل قال لي لماذا لم تقم بالتحية العسكرية ولما بادرت إلى الجواب تابع سيره بخيلاء ويأمرني بأن أتبعه فحرت في أمري وراودتني فكرة الفرار منتهزاً فرصة تغافله عني بكبرياء وتعاظم لكن الوقت لم يسمح لي بالتفكير إذ دخل الباب الواسع لمقر قيادته وما ان شاهدني الضباط عند باحة المدخل حتى هرعوا إلى الصف ملقين التحية العسكرية وبينهم البكباشي والميرلاي. واذا به ينادي على نقيب هناك ويقول خذ هذا الضابط الذي غفل عن تحيتي في الطريق. يالهول الموقف من هذا الرجل العظيم الذي حسبته جندياً؟ قادني النقيب إلى إحدى الغرف وأخذ ورقة ثم بدأ يكتب الاسم والهوية والعنوان وباقي التفاصيل. كان رقيقاً في حديثه إليَ وتبين لي انه كان متعاطفاً معي لكنه مضطر والأمر العسكري لا مرد له. سألني كيف اني لم أحيي محمد علي باشا قائد الجيش الثالث في استانبول، صعقت عند سماع اسم محمد علي باشا، ذلك لِما كنت أسمع عن سطوته وجبروته وعلاقته الوثيقة بأنور باشا، فتمالكت نفسي واجبته قائلاً انني لم أميز شاراته عن بعد وقد خدعتني ملابسه الخشنة وحسبته رقيباً، وعلى العكس كنت انتظر ان يبادرني بالتحية، لم اتمكن من الاطلاع على ما سجله وحالت الرهبة التي استولت عليَ ومنعتني من الإطالة في محادثته، ثم طلب إلى احد الجنود هناك ان يقودني مع الأوراق إلى المجلس الحربي، فتح الأصفاد ليقيدني بها فرفضت بإباء وتراجعت محتجاً على هذه البربرية على مسمع من النقيب فارتد هذا ليشهد تلك المحاولة الوحشية فابتسم ومنعه من تقييدي ثم ذهبنا سوية إلى المحكمة العسكرية. وبعد انتظار طويل دخلت قاعة المحكمة وأدليت بإفادتي إلى القاضي العسكري ودافعت عن نفسي بالأدلة المنطقية قائلاً نحن نبتهج ونتفاخر اذا تسنى لنا يوماً ان نحيي ضابطاً من درجة مقدم أو عقيد ونروي لأصدقائنا الخبر المفرح إذا نحن صادفنا زعيماً أو أمير لواء وكان لنا الحظ في مبادرة التحية فكيف بنا اذا تشرفنا برجل عظيم كمحمد علي باشا وحييناه. اننا نسجل هذا الحادث في سجل حياتنا ونذيعه بين أهلنا واصدقائنا. والواقع يا حضرة القاضي أنني لم أميز شاراته وهو يمشي

على الرصيف المقابل في شارع الباب العالي العريض على بعد اربعين متراً. لقد تهيأ لي انني أقنعت القاضي بالحجج هذه وانه لا بد ان يطلق سراحي. أخذ الجندي الأوراق من القاضي وجذبني اليه وقادني إلى بيت مجاور للمحكمة الجائرة ودلفنا باب طابق تحت الأرض. هناك فوجئت بمشاهدة عشرات الجنود يخطرون في ردهة ذلك السجن وفيهم من كانت الأغلال في قدميه، هالني المنظر ودار في خلدي ان مصيري سيكون كمصير هؤلاء وربما وضعوا الأغلال في قدمي أيضاً يا له من موقف رهيب انا لا أعرف السجون ولم يخطر ببالي يوماً ان أكون أحد نزلائه وان أُكبل بالأغلال والله وحده يعلم المدة التي كان علي ان أقضيها سجيناً. تناول الرقيب الجالس وراء المنصة اوراقي بعد ان ألقى نظرة اشمئزاز وإزدراء أمرني بالدخول على الرحب والسعة. إلى أين؟ أين أنام أين أجلس؟ قاعة تعج بالسجناء وحولها غرف تفتح ابوابها على القاعة. بيت للسكن عادي اتخذوا منه سجناً للجنود. فكرت قليلاً ثم رجعت إلى الرقيب فقلت له يا حضرة الرقيب إسمح لي ان أذهب إلى المدينة لأحضر فراشي وشيئاً من الزاد فهناك بعض الحلوى والدخان والهدايا أخشى ان تفسد أو يستأثر بها أحد. فظهرت على وجهه ابتسامة رضى، ولا بد انه فهم ان له نصيب من كل هذا. فنادى على جندي هناك وأمره بمرافقتي بتلك المهمة. ذهبت إلى بيت أستاذي عبدالجبار خيري ورويت له القصة وكنت آمل ان يتصل بأنور باشا فينقذني من النازلة لكنه لم يقل سوى عبارات الرثاء والتشجيع. أخذت فراشي وملابسي وما قد احتاج اليه في السجن وعند العودة اشتريت بعض الحلوى والسجائر وقدمتها لدى وصولي إلى ذلك الرقيب الدكتاتور التركي المثالي، فهش لهذه الهدية الثمينة وقال: بما انك حديث السن سوف استثنيك واضعك في غرفة الأحداث ثم نهض وقادني فسرنا نخترق جموع المساجين وادخلني غرفة صغيرة جنوبية غربية(٤×٣م) وفيها مساجين لا تزيد أعمارهم عن العشرين سنة فاستقبلوني مرحبين بي ويسألونني عن الجرم الذي ارتكبته ولما وقفوا على حقيقة امري ضحكوا واخذوا يواسونني ويهونون عليّ حياة السجن، ثم أخذ كل منهم يسرد عليّ قصة سجنه، هذا سرق من العنبر صفائح البترول والثاني ارتدى ثياب نقيب واخذ يتجول في شوارع استانبول ويفرض سيطرته على المقاهي والمحلات التجارية والثالث طعن رئيسه بسكين والرابع جندي من

أهل استانبول كان يخرج بزي ضابط وبيده سوط يضرب به كل جندي لا يحيـه في الشارع. كانت الغرفة نيرة تأتيها الشمس من الجنوب والغرب ونوافذها مطلة على حديقة مهملة. ارتاحت نفسي إلى هذا المكان وشعرت بشيء من الاطمئنان ولما سألت عن مكاني في الغرفة اشاروا إلى مكان قرب الباب وكان ذلك حقاً اذ اني آخر من أتى، فرضيت ووضعت فراشي ورتبت اغراضي ثم قدمت إلى كل منهم شيئاً من الحلوى والسجائر، ثم جلست معهم واخذت اشاركهم لعب الورق. كان عندهم لعب الورق والنرد والبرجيس وغيرها من الالعاب المسموحة لهم في السجن وقد ادهشتهم الألعاب التي مارستها معهم وكان عندي منها الشيء الكثير لا عهد لهم بها فتوثقت عرى العلاقة بيني وبينهم ووجدوا فيَّ الزميل القريب من القلب والتفوا حولي واخذت اقص عليهم بعض حكايات الف ليلة وليلة ومن شكسبير وغيرها من الحكايات التي لم يسمعوا عنها من قبل. أما الطعام فكنت اشتريه من دكان مجاور لغرفتنا، البن والجبن والزيتون والدبس مع الطحينة والحلاوة واللحوم المقددة والفاصوليا وغير ذلك مما كان يغنيني عن طعام السجن. اما النوم فقد تكرم عليّ زملائي بأحسن محل قرب الشباك وكان فراشي وثيراً والأغطية كافية. لقد طابت لي الاقامة وتمنيت لو تطول مدة اقامتي(سجني) لأنجو من عذاب التدريب في سهول آياستيفانوس، كنت اقضي النهار وجزء كبير من الليل في اللعب والقصص والاغاني فكنا نغني الاغاني التركية الشعبية فوقفت على كثير من التعابير والمصطلحات التركية الصحيحة وكنت أفسر لرفاقي معاني الجمل التركية العويصة سيما الكلمات العربية منها والفارسية وكانوا يجدون فيَّ اللغوي الضليع ولم يدروا ان اكثر الكلمات الصعبة عندهم هي عربية محضة. مرت الايام الثمانية التي فرضت عليَّ في السجن كلمح البصر، وكم تألمت عند سماع اسمي من جملة الأسماء التي نودي عليها للافراج وأسفت لمغادرة رفاق قضيت معهم أجمل ايام حياتي ولزوال هذا النعيم العابر. ساقني المأمور المكلف إلى المعهد في آياستيفانوس وسلمني إلى النقيب الالماني غوسلاو، فدهش هذا لمشاهدتي وسألني أين كنت؟ فقصصت عليه قصتي وسردت على مسمعه الدفاع الذي سردته عند القاضي العسكري فأبدى أسفه وإشفاقه وتبين لي انه كان مقتنعاً ببراءتي فقال لي نحن ارسلنا خبر فرارك ولم ندرِ انك كنت في السجن وها

انا أعجل ببرقية عكسية ليطمئن أهلك عنك. أما انت فلا بد بحاجة إلى راحة والاغتسال وهاك اسبوعاً تقضيه في استانبول لتستحم وتنظف ثيابك وتستعيد نشاطك. يا له من رجل عاقل رؤوف، لقد أدرك انني كنت مظلوم فتحدى القاضي التركي واعطاني مدة تعادل المدة التي امضيتها في السجن تعسفاً وجهلاً. وقبل ان اغادر غرفته طلب إليّ ان أبرق إلى أهلي في بيروت وأصحح الخطأ الذي كان له فيه نصيب.

تداعيات سجني

في بيروت حصل ما توقعه الضابط الالماني مع عائلتي وأكثر مما توقعه، كتب إليّ أخي محمد سعيد يقول مندهشاً لذلك، ان الدرك داهم البيت بحثاً عنك وحاولنا اقناعهم بأن في الأمر خطأ وان الذي تطلبونه موجود في المدرسة الحربية وها هي رسائله تصلنا تباعاً فلم يقتنعوا بل كانوا يداهمون البيت كل يوم ويفتشونه والأهم من ذلك انهم أثناء التفتيش وقعت عينهم عليّ فوجدوا فيّ صيداً بارداً وحاولوا اقتيادي إلى المخفر وكما تعلم انني احمل اوراقاً مزورة ولما عرضتها عليهم اكتشفوا التزوير فازداد عنادهم مصرّين لكن كالعادة اعطيتهم ما فيه النصيب وظللنا بضعة ايام في إضطراب وخوف اتتنا برقيتك فسكن روع الوالدة وانفرجت الأزمة.

ضابط وجندي

كنا ننتظر البرقية وقد مضت الأشهر الثلاثة على تخرجنا من المدرسة الحربية، سوف يصبح الواحد منا وكيل ضابط وعندها ينتقل من فئة الجندي المزرية إلى فئة الضابط المترفه من راتب شهري قدره ثلاثين قرشاً ورقاً إلى راتب قدره ست ليرات ذهبية. أما الفرد من فئة الضابط فلا تسل عن البحبوحة التي يعيش فيها والامتيازات التي ينعم بها انه يرتدي الثياب الزاهية ويعلق السيف البراق على جانبه ويضع الشارات المذهبة على كتفيه والقلبق المصنوع من جلد الجدي الناعم على رأسه وقد حلّى قمته بالاشرطة المقصبة ويشد المهماز إلى كعبيه حتى اذا مشى سمعت لهذا المهماز خشخشة فيها كل العظمة. انه ينام على سرير

وثير في خيمة منفردة أو مع زميل له، يتناول طعامه مع رفاقه الضباط على مائدة واحدة حوت أصناف الأطعمة وقد أعدّها الطاهي من المخصصات الغنية من سمن وسكر وأرز ولحم وغيرها من محتويات العنابر والخضار والفاكهة كانت تستبدل بالفائض من الاغذية الجافة حتى تأتي المائدة غنية كموائد القصور. يخصص لعائلة الضابط من الأرزاق الجافة ما قيمته ليرتين ذهبيتين كل شهر وكانت هذه الأرزاق تكفي لعائلة مدة شهرين أو أكثر، يخصص للضابط الأصغر حصان لركوبه وبغل لحمل متاعه وسائس وخادم عدا الساعي الواقف على باب الغرفة أو الخيمة.

الكل إلا ترقيتي!

كنا ننتظر هذه الفرحة بفارغ الصبر، فنعدّ الأيام والساعات حتى اذا جاء اليوم الموعود جمعنا النقيب غوسلاو والابتسامة تشيع في وجهه لا شك انه يحمل اوراق الترقية الحبيبة. بادرنا بقوله نعم لقد استلمت اوراق الترقية التي كنتم تحلمون بها، لكن آسف ان اتبين ان واحدة من هذه الارواق مفقودة والذي يحز في نفسي ان صاحب هذه الورقة هو أحق أفراد هذه البعثة بالترقية، اتعلمون من هو صاحب هذه الورقة المفقودة؟ تقدمت لفوري وقلت له هذه ورقتي انا يا سيدي، فوجم وجهه، ثم قال كيف عرفت ذلك؟ فأجبت أنا أعرف حظي يا سيدي ثم أردف يقول لا تيأس فأنت أحد اثنين فازا باعجابي وتقديري ولسوف ابذل جهدي لأحصل على ترقيتك في أقرب وقت. الصدمة الكبرى! لا تسل عن الخيبة التي اصابتني واليأس الذي استولى على قلبي ولما انصرف الجميع إلى غرفهم ليرتدوا الثياب الزاهية ويضعوا الشارات المقصبة على اكتافهم ويعلقوا السيف، طلب الي الالماني ان ارافقه إلى غرفته وهناك واساني ووعدني بالسعي الحثيث ثم أضاف قائلاً انني مخول على الاحتفاظ بك وبزميلك نقولا صور(نقولا سالم) لتقوما على تدريب البعثات القادمة بينما أرسل الباقين إلى جبهات الحرب فأنتما خير من اعتمد عليه في تدريب الشباب وإعدادهم لقيادة سرايا الرشاش. لقد خففت كلماته كثيراً من آلامي وانعشت قلبي المحطم وعللت نفسي بقرب وصول الترقية وبقائي في معهد الرشاش لأنجو من ساحات الحرب وويلاتها. ولما

خرجت من غرفة النقيب وجدت رفاقي في مهرجان من الفرح يغنون ويرقصون ويتبادلون التهاني فكنت بينهم كاليتيم البائس وكانوا في شغل عني وقد سكروا بخمرة الفوز، فانصرفوا إلى شوارع آياستيفانوس يخطرون فيها بحللهم الجديدة يتقبلون التحيات من الجنود ليقنعوا انفسهم انهم أصبحوا ضباطاً وانهم اصبحوا من طينة غير طينة أولئك البؤساء.

أصبحت مدربا

استقدم النقيب وفداً جديداً من خريجي المدرسة الحربية ثم آخر وعهد إلى كل منا نقولا وانا بتدريب مجموعة من القادمين عددهم خمسة عشر طالباً. فشرعنا بالتدريب تحت اشراف النقيب ثم أتت بضعة مجموعات عهد بتدريبها إلى الضباط الذين قام على تدريبهم النقيب بنفسه قبلنا. وكانت سهول آياستيفانوس تعج بالمتدربين والرشاشات الخشبية وكنت ابتعد بتلاميذي عن انظار النقيب لأكون في نجوة من رقابته واتمتع بقسط من الراحة وكنت ألجأ إلى مقهى داخل حرج كثيف أقيم عند عين ماء شهيرة تدعى(كوجوك جكمجة) فأقضي مع رفاقي بعض الوقت طلباً للراحة.

رفاق المكتب

كنت عندما انتهي من التدريب انضم إلى رفاقي البيروتيين منهم راشد الحوري، سعيد بكداشي، كامل طبارة، يوسف زينة، مصطفى سنو، عزت طبارة ونقولا سالم فنقوم بنزهة في شوارع المدينة واحياناً نتناول الطعام سوية ونقضي سهرتنا في غرفنا في حديث عن شؤوننا وشجوننا واخبار بلادنا وكان المرحوم سعيد بكداشي قطب حلقتنا. كنت انام مع صديقي نقولا سالم في غرفة واحدة جنباً إلى جنب وقد اشترى كل منا سريراً نقالاً ينعم بالنوم عليه وكنت أقضي أكثر أوقاتي بصحبته لا أفارقه ولا يفارقني فنحن زميلا عمل وصديقان حميمان من بلد واحد.



مع بعض الرفاق

تمثيلية مازوريا

أتت أخبار هزيمة الروس أمام الألمان في مستنقعات مازوريا إذ غاص قسم كبير من الجيش الروسي في تلك المستنقعات وهلك أكثرهم غرقاً، وكان صنف الالمان يومئذٍ طاغياً فعمت البشرى البلاد التركية وقام أحد ضباط معهدنا بإعداد تمثيلية عن تلك الواقعة وضمّنها الأغاني التهكمية وعبارات السخرية والشماتة فجعل زعماء دول الحلفاء يتلاومون كل يلوم الآخر على إقحامهم في الحرب ضد الالمان، جون كيكر بك الانكليزي وبوانكاريه الفرنسي يتبادلان الشتائم والانتقاد المر. أما هندنبرغ قائد الجيوش الالماني فقد حلق اسمه في هذه التمثيلية.

الفرصة في استانبول

كنت اجتمع إلى بعض الرفاق العرب في عطلة الأسبوع ونقضي نهارنا في استانبول

واحياناً نقصد إلى أحد المنتزهات ولا بد من تناول طعام الغداء سوية وكانت أحب المآكل (النيفا) رأس الغنم المحمر والسمك المشوي وفي صبيحة يوم من الأيام في آياستيفانوس نهضنا لنجد السهول وقد غطتها الوف مؤلفة من الماشية والخيل فعجبنا لهذه الكثرة من الحيوانات تزدحم في جوار استانبول بعد ان كانت نادرة في ذلك الوقت واسعار اللحوم مرتفعة جداً. علمنا ان فرقة تركية كانت ارسلت إلى رومانيا لمساعدة الجيوش النمسوية - الهنغارية في جهة دوبريجة قد عادت غانمة بعد ان هزمت العدو بالسلاح الأبيض وتعقبت الجيش الروماني والروسي وعادت بغنائم لا تقدر من المواشي والخيل والحبوب والمحاصيل الزراعية الأخرى التي اشتهرت بها رومانيا. وسبب استدعاء تلك الفرقة التركية إلى تلك الجبهة هو ان الجيش النمسوي- الهنغاري من جهة والروماني-الروسي من جهة ثانية تقاربا بعد قتال عنيف إلى بضعة عشرات الأمتار بحيث لم يعد للمدفع أو الخيالة فائدة في زحزحة أحد من المتخاصمين عن مكانه فمرت الأشهر والجيشان محافظان على مراكزهما فلم يصلح إلا السلاح الأبيض ولما كان الجندي التركي متميزاً بهذا النوع من القتال استقر الرأي على الاستعانة بالجندي التركي لإجلاء العدو عن مواقعه التي استطاع ان يحتفظ بها مدة طويلة، عندها أعدّت القيادة التركية فرقة من خيرة جنودها وجهزتها بأغنى الملابس والاجهزة الحربية واختارت لها نخبة من أشهر ضباطها لتظهر بالمظهر اللائق بين الجيوش الأوروبية ولتحتفظ بسمعة الجندي التركي الذي طبقت شهرته الآفاق الغربية في حرب السلاح الأبيض (السينكي). والواقع ان الجندي التركي بعقيدته الراسخة بأنه اذا قتل في ساحة الحرب يموت شهيداً ويدخل الجنة من دون حساب كان يتلهف على فرصة تتاح فينقض على عدوه بالحربة ولا يحسب حساباً للموت. لقد شاهدنا هذه الفرقة التي جرى اعدادها في سهول آياستيفانوس. يودعنا زميلانا وصديقانا عبدالرحمن حمود ويوسف فايد بالدموع والأسى، وقد قضى حظهما العاثر ان يكونا في جملة الضباط الذين اختارتهم القيادة لمرافقة هذه الفرقة الضحية، كما كنا نتوهم، ولم نكن ندري ما كان ينتظرها من توفيق وشهرة ومغانم وقد قصّا علينا هذان الصديقان حمود وفايد بعد عودة الفرقة إلى استانبول مجريات تلك الحملة الكاسحة والنصر العارم الذي أحرزته في رومانيا. وفي جملة ما قالاه

ان الجندي التركي حلّق في مجال القتال واكتسب شهرة كبيرة لشجاعته ونبل قتاله وأقسما ان أحداً من الجنود لم يعتد على إمرأة أو مسن أو طفل أو أساء إلى أحد من سكان المدن والقرى التي أكتسحوها فأصبح الجندي التركي مضرب المثل في العفة والشهامة في أوروبا.

عاشت استانبول بضعة أشهر في بحبوحة من اللحم والحبوب وباقي المواد الغذائية بما تدفق عليها من مغانم رومانية وقد أصابنا من هذه البحبوحة الشيء الكثير فحمدنا الله تعالى وتمنينا لو تدوم حرب السينكي وترِدُ علينا الخيرات وكذلك وددنا لو كنا مع تلك الفرقة إلى دوبريجة وجبال غاليشيا.

الفصل الثالث

تشكيل سرية الرشاش في أزمير

قلت ان مدير معهد الرشاش النقيب غوسلاو احتفظ بنا نقولا سالم وانا كمدربين في المعهد وعملنا مدة خمسة أشهر بإخلاص كامل لكنني سئمت تلك الحياة الروتينية وراودتني أحلام العنجهية والقيادة وتاقت نفسي إلى العمل في ساحة الحرب فصرت اتقاعس في أعمال التدريب فانطلقت بتلاميذي الخمسة عشر إلى إحدى الخمائل الغربية منها فلوريا وجكميجة، فأقضي بضع ساعات في راحة واطمئنان حتى بلغ ذلك غوسلاو فقرر إرسالي إلى ازمير مع رفيقين لي هما كامل طبارة ويوسف زينة من بيروت على ان يتسلم كل منا سرية يقوم على تشكيلها وتجهيزها وتدريبها في مدى ثلاثة أشهر لتصبح قادرة على دخول جبهات الحرب، وكان زميلاي كامل ويوسف قد خضعا لبرنامج التدريب نفسه لكنهما لم يعملا في حقل التدريب بل أرسلا إلى الجبهة. ركبنا القطار إلى مدينة آيدين التابعة لأزمير والمتصلة بها بخط حديد على مسافة اربعين كلم منها. قصدنا إلى مقر القيادة فوجدنا انفسنا وسط معسكر تعج فيه الجنود، وقد احتشدت في أرجاءه الخيم المخروطية الشكل فاخترقنا هذه الخيم ودخلنا خيمة قائد الآلاي الذي كان بانتظارنا فرحب بنا واكرم مثوانا بالصورة التي كنا ننتظرها وهذا ما حملنا على الاعتقاد ان ضابط الرشاش موضوع احترام الوحدات العسكرية لخطورة وظيفته من جهة ولندرة الضباط المتخصصين به من جهة ثانية. أخذ القائد يطرح

علينا الاسئلة ونجيبه بتواضع وأدب، فسألنا عن الاسم والبلدة والشهادة التي نحملها ومقدار استعدادنا لقيادة سرية الرشاش. لقد أدركنا السبب ودار في خلدنا ان امتعاضه نتج عن اكتشافه اننا عرب ولسنا أتراك كما كان ينتظر. لقد صحت توقعاتنا، إذ أمرنا بالانتظار خارج الخيمة بعد ان أرسل في طلب قادة الأرهاط الثلاثة التي يتألف منها الآلاي وبعد خلوة قصيرة معهم طلبنا وسلم كل واحد منا إلى أحد هؤلاء وكان نصيبي الفوج الأول وقائده عثمان بك مقدم من مدينة سيواس. أخذ هذا يسألني عن معلوماتي العسكرية ودرجة استعدادي لإدارة المدفع الرشاش وإدارة السرية وتبين لي انه كان مقتنعاً بأهليتي لذلك المنصب لكن الأمر خرج من يده فأسرّ اليَ قائلاً انتم الثلاثة لا شك اختصاصيون في الرشاش ومخرَّجون من المعهد الحربي للرشاش، وقد أرسلت لتسليم كل منكم قيادة سرية للرشاش، لكن بعد البحث تبين لنا انكم حديثو العهد بالحياة العسكرية القاسية لذلك رأينا ان نعينكم معاونين لمدة يسيرة حتى تألفوها وتعتادوها وبعد ذلك يعهد اليكم بقيادة السرية، عندها القيت عليه نظرة فهم منها ما كنت أرمي إليه فابتسم وكأنه يقول نعم انا أكذب عليك والسبب انكم عرب ولا حيلة لي في ذلك ثم أردف يقول، عليك العمل والأيام بيننا. لقد اكتشفت في هذا القائد الرجل المخلص الصادق التقي، كيف لا وهو من الرعيل الأول من ضباط الاتراك الذين نشأوا في المدارس الحربية قبل ان يتسرب اليها فساد القرن العشرين في ظل أنور باشا وعصبته المتهتكين الملحدين، فشتان بين الضباط القدامى وبين المحدثين في التقوى والاخلاص والنزاهة. لقد اطمأن قلبي إلى هذا التدبير الجائر في ظل القائد عثمان بك، فقلت له انا جندي فعليَ الطاعة والعمل فقط، سره جوابي وبعث في طلب قائد السرية بالوكالة واسمه تحسين وقدمني اليه قائلاً: لقد قررت القيادة ان تجعلك القائد الأصيل للسرية وسيكون هذا الشاب المساعد الأول وهو خريج معهد الرشاش في استانبول ويمكنك الاعتماد عليه كل الاعتماد وتستعين بخبرته ونشاطه. قادني تحسين إلى جنود السرية وقدمني لهم بتحية عسكرية. هناك تعرفت إلى الضابط عثمان طرابزون المساعد الثاني وهو من مدينة تحسين نفسها، فهما همشريان(ابناء بلدة أو مدينة واحدة وهي كلمة فارسية مؤلفة من(هم شهر)) وكل جندي ينادي الجندي ابن بلده يا همشري، أي المدينة نفسها ثم تعرفت إلى الرقيب حسين من

الشام وهو خريج معهد (كوجك ضابط) في دمشق، حسن الهندام حلو الحديث وكمره مليئ بالذهب ينفق منه عن سعة. رأيت هناك بعض الجنود العرب لا يتجاوز عددهم الاربعة ولست أدري كيف قذفت بهم القيادة إلى هذه السرية ولو انهم استبشروا بوجود ضابط عربي على رأسهم إلا انني لم آت بحركة يُشْتَمُّ منها رائحة التعصب أو التميز بين جندي وآخر وكان معنا الرقيب الأرمني ميناي. منذ اليوم الأول تبينت ان تحسين هذا كان مرشح ضابط من صف المشاة لا يعرف حرفاً واحداً عن الرشاش وهو فوق ذلك مدّع متعجرف متهتك واذا مشى أو تكلم فبخيلاء وجبروت دونها عظمة المارشال البروسي وجبروته. ولما تبينت في ذلك قررت استعمال الحكمة في تجنب الصدام معه وكنت أعلم انه لا شك يحتاج اليَّ وهو بحكم هذه الحاجة مضطر إلى مداراتي ومصاحبتي، لكن هذا لن يمنعه من التعدي عليَّ أو الحط من كرامتي اذا دعت الحاجة وبفضل حسن تصرفي وشدة حاجته إليَّ أمكننا تجنب الصدام طيلة الثلاثة أشهر إلا مرة واحدة كان الصدام فيها عنيفاً وذلك في قرية «قرة بينار» كما سيأتي الكلام عنها، ومن المتعارف عليه القيادة تأخذ برأي الضابط الأعلى ولا تقيم وزناً لشكواه حقاً كانت الشكوى أم باطلة سيما وانا العربي. كانت آيدين قرية كبيرة ويصح ان نسميها مدينة فهي وسط منطقة زراعية كبيرة وأهم محاصيلها التين، فبساتين التين تمتد إلى مسافات بعيدة وثمرة التين حجمها كبير وطعمها حلو المذاق وهذا المحصول يصدّر جافاً إلى الأقطار الشرقية والأوروبية ومنه تتكون ثروة المنطقة، لم يتورع الضباط والجنود عن غزو تلك البساتين واكل ما طاب لهم وكنت أشاهد البعض منهم يأتي بكمية وافرة ليجففها ويدخرها في سفره المرتقب. وفيما انا أجول بين أشجار التين شاهدت قائد الآلاي يتجول مثلي فعجبت ان يقوم على سرقة التين ودفعني تطفلي إلى مراقبته فرأيته يتقدم إلى بيت هناك وسط الكرم بخطى حذرة وكأنه يتحاشى ان يراه أحد. ثم دخل البيت وبعد دخوله خرج طفل يعدو إلى جهة في الكرم بعدها إذ بي أشاهد بضعة رجال يقتحمون البيت وتوقعت شراً اذ تبين لي ان القائد انتهز فرصة غياب الرجال عن البيت وحدثته نفسه في مغامرة نسائية، وقفت بضع دقائق انتظر معركة وقتلى، فقائد الآلاي له مكانته وسطوته ولسكان الأناضول شهامتهم واستماتتهم لأجل كرامتهم دفاعاً عن العرض لكن الحادث انتهى على غير ما

كنت توقعته، فقد شاهدت الأناضوليين يودعون القائد ويسير بعضهم معه مودعين. أعجبني تصرفهم هذا وعلمت انهم استعملوا الحكمة فتصرفوا معه كأنه ضيف أحب زيارة البيت فقدموا ليقوموا بواجبهم نحوه وقدموا له الليموناضة والحلوى وكان الله يحب المحسنين. في هذا الوضع الشاذ لم أجد وسيلة إلى الصمود في وجه ذلك التعصب العنصري إلا إظهار امكانياتي في حقل المدفعية وتفوقي على سائر أقراني المنافسين وحمل القادة على الاعتقاد بأن لا غنى لهم عني في تنظيم رشاشاتهم وادارتها فشمرت عن ساعديَ وتوجهت إلى ازمير مصطحباً بعض جنود السرية وهناك أخذت اتسلم المعدات اللازمة لتشكيل سرية الرشاش، ستون رأساً من الخيل والبغال مع جميع معدات علفها وسقايتها وطمارها، سبع عشرة عربة ذات الدولابين والاربعة رشاشات من طراز مكسيم الالماني مع القطع اللازمة للغيار، ١٠٠ صندوق رصاص(١×٢٥٠) و١١٠ بندقيات ماوزر المانية وتوابعها، جميع اواني المطبخ، ملابس الجنود والخيم والاغطية، معدات لحفر التراب والصخر والادوات الصحية والقرطاسية واجهزة التلفون، إلى ذلك من لوازم الرشاش التي لا تخطر على بال القادة انفسهم ولم ينقصني سوى نعال الخيل لأنها كانت مفقودة من العنابر نفسها يومذاك وقد سببت لنا كارثة في طريقنا إلى حلب؟ سيأتي الحديث عنها في حينه. بعد ان استكملت السرية معداتها أجريت التقسيم بين الجنود ووزعتهم على المدافع والعربات والخيل وعينت لكل جندي دوراً يتناسب ومؤهلاته ثم شرعت في تدريبهم على استعمال الرشاش في تسديد المرمى وإطلاق النار وتغيير القطع ووضع الشريط في علبته الخاصة وتبديل الماء في براد الرشاش، ثم العناية بالحيوانات في علفها وسقايتها وطمارها وكيفية ربطها إلى العربات وشد الأحمال على ظهورها. رحت أعلمهم كيفية العمل في ساحة الحرب كبناء المتاريس والتمويه والزحف بالرشاش ونقل الذخيرة والماء إلى مواضع القتال والاتصال والاشارة وغيرها من الدروس التي تلقيتها في المدرسة الحربية ما أبهر تحسين وحمله على الاعتراف بتفوقي وبشدة حاجته اليَ لكنه لدهائه وأنفته لم يبدِ اعترافه امام الجنود فكان يرافق السرية أحيانا على صهوة جواده إلى ساحة التعليم ويتظاهر بالعلم والخبرة ويبدي للجنود كتمان معرفته لإمتحاني وانه يراقب تدريبي وليتأكد من حسن قيامي بهذه المهمة فيختال بحصانه

جيئة وذهاباً ويبدي ملاحظاته الخنفشارية بكثير من التهكم والغطرسة ولا يتورع عن الترجل ليجلد جندياً بدا له انه أخلَّ أو قصَّر في عمله ليثبت للجنود المساكين خبرته وإلمامه بغرض فرض هيبته عليهم. شاهدني قائد الفوج عثمان بك أجهز السرية وأسهر على تدريب أفرادها تدريباً عالياً لاعهد له به فأسر بذلك إلى قائد الآلاي ان أشرف على تدريب سرية الآلاي الخاصة المؤلفة من ستة رشاشات فقمت بهذه المهمة خير قيام.



مخيم الالآي



أثناء تدريب طواقم سرية الرشاشات

بدأ تحسين يرسل الخيل للمرعى ليوفر اثنين من الأربعة كلغ المخصصة لكل دابة وبذلك يكسب كل يوم ١٢٠ كلغ من الشعير يبيعها بمبلغ ٦٠ ليرة تركية يضعها في جيبه لينفقها على ملذاته في الليل. كنت اتجاهل هذه السرقة تحاشياً للاصطدام به وتكون النتيجة في غير مصلحتي. فيوم الجمعة، يوم الغسيل والاغتسال تسلمت من العنبر ١٣ قطعة صابون كبيرة فاعطيت كل طليعة قطعة واحدة وزاد قطعتان احتفظت بهما، ولما حضر تحسين سألني عما فعلته بالصابون وما ان علم بطريقة التوزيع حتى جنّ جنونه وانتهرني قائلاً: أانت معتوه، فماذا أبقيت لنا؟ فقلت له نحن ليس لنا الحق في هذا الصابون مع ذلك بقي لنا قطعتان كبيرتان تكفينا لشهر، وهلا أخبرتني كيف كان يجب ان اوزعه؟ فأجاب الأمر بسيط، كان عليك ان تعطي كل طليعة نصف لوح وتحتفظ بالباقي، ما شاء الله، ١١٠ جنود يُعطونَ ثلث حقهم ويسلبهم ضباطهم الثلاثة الثلثين الباقيين. ربما كان من السهل عليَّ ان اتقبل سرقة

نصف حق الدواب من الشعير ولكن طريقة توزيع الصابون التي اقترحها ذلك الرجل أثارت دهشتي واستغرابي، وجدت نفسي في واد والعالم في وادٍ آخر، أنا احلم بإقامة العدالة والمساواة بين الجنود والسهر على تأمين حقوقهم والترفيه عنهم ما استطعت إلى ذلك سبيلا فاصطدم بهذا النوع من البشر والظلم والتعدي وتتحطم أحلامي. لا بأس سأستعمل الحكمة وسعة الصدر فربما تمكنت من تحقيق رغبتي من دون ان أصطدم بذلك الطاغية. كان ضباط الآلاي وعددهم اربعين يتناولون الطعام على طاولة واحدة متبعين قاعدة واحدة يسمونها(التبل دوت). الطاهي يصنع الطعام من أرزاق الضباط المخصصة لهم وما اشتراه من الخضار والفاكهة والمشروب، ويدفع كل ضابط مشترك ما يصيبه من النفقات الاضافية. كان جميع الضباط يتناولون العرق مع الطعام، اما انا فكنت أمعن في أكل أصناف المازة المعدّة للمشروب الممقوت. أثار تصرفي استياء بعض رفاقي الضباط المجاورين على الطاولة فحاولوا ان يحملوني على مجاراتهم في تناول العرق، ولما أعيتهم الحيلة في اقناعي حزموا أمرهم على استعمال القوة فقبض على ذراعيَ اثنان من اليمين ومن اليسار وأخذ الثالث قدح العرق ليسكبه في فمي، انتفضت بما أوتيت من قوة وثارت ثائرتي فطرحت الضابطين أرضاً أتبعتها بضربة على وجه الساقي وزميله وركلة قوية للذي حاول النهوض فاغمته وعلت الضجة وساد الهرج على المائدة وسمعت قائد الآلاي ينادي ما الخبر؟ ثم استدعاني اليه يسألني تفاصيل الحادث وبعد ان استمع إليَ أعلن عن سروره لحسن تصرفي واستيائه من سلوك الضباط المعتدين وإزدرائه لجبنهم وتخاذلهم طلب إليَ ان أعود إلى مقعدي واتناول ما أشاء وكيفما يطيب لي وكان أكثر الحاضرين اعجاباً بإمتناعي عن شرب الخمر وبدفاعي الصاعق الذي قمت به هو عثمان بك، قائد الفوج ذلك الرجل النبيل التقي، فامتدح عملي هذا وارتقت منزلتي عنده وازداد احترامه لي. بعد ان مكثنا اسبوعين في آيدين صدر الأمر بانتقال الآلاي إلى قرية قره بينار، وهي تقع وسط آيدين وأزمير وهي قرية كبيرة تخترقها سوق يبلغ طولها الخمسمئة متر تزدحم بمتاجر التين المجفف المعبأ للتصدير، وهي منطقة تعدّ من أشهر موارد التين في العالم، فتجار أزمير يشترون المحصول من الفلاحين ويكنزوه في تلك المخازن بعد تجفيفه إلى حين تصديره إلى الخارج، اذ من

المعلوم ان هواء أزمير البحري رطب لا يصلح للتين، فضلاً عن غلاء أجور المخازن في تلك المدينة. هناك فوقها مسجد صادره الجيش ليؤوي فيه القسم الأعظم من جنودنا ويقابله خان ذو ساحة فسيحة وفيه اسطبل كبير يتسع لجميع الخيل وفي الطرف الثاني بناء صغير من طابقين اتخذنا من الطابق الأعلى منامة للضباط، الغرفة الممتازة لتحسين بمفرده والغرفة الثانية لثلاثتنا- عثمان أفندي المعاون الثاني وحسين أفندي الرقيب اول وانا وجعلنا الطابق الأرضي مستودعاً لتجهيزات السرية. خرجنا في اليوم التالي إلى السهول المجاورة لمتابعة التدريب فترجلت وزميلي عثمان أفندي وباشرنا العمل وكان زميلي رغم جهله تعاليم الرشاش يبذل جهده في مساعدتي ويتقبل تعليماتي بالرضى والشكر إلا صاحب العظمة تحسين الذي لم ينزل عن جواده وغطرسته بل ظل يراقب عملنا كأنه جنرال أتى للتفتيش والتحقق من صحة التعاليم. لم يخْفَ على الجنود شيء من هذه الأمور فكانوا على علم بصفاته وأعماله الدنيئة وكانوا يضمرون له ما يستحق من كره وعلى عكس ذلك كانوا يحبونني ويحترمونني ويقدرون التضحيات التي أقوم بها في سبيل راحتهم والحب الذي كان يكنه قلبي لهم والمعاملة الأخوية التي أعاملهم بها. كنت في بعض الليالي أجمعهم في ساحة الخان حول النار وأقص عليهم ما كنت أذكره من قصص ألف ليلة وليلة وروايات شكسبير بلغة تركية صحيحة فيتهافتون على سماعها وكنت أحياناً أحيي ليلة راقصة فكان يتقدم بضعة من أبناء البلد الواحد ويقومون برقصتهم الشعبية ويغنون أغانيهم المحلية الجميلة وكان لكل بلد في الاناضول رقصه وأغانيه الشعبية التي يتميزون بها قسطموني، طرابزون، اورفه، قونية، أسكي شهر، سيواس وغيرها من المدن. هنا تعلمت أكثر الأغاني الشعبية الأناضولية الصريحة بغزلها الصريح ولا يرى الاناضولي غضاضة في ترديدها علانية على الرغم من الأخلاق العالية التي تميز بها هذا الشعب. كنت أشاهد النساء والفتيات يقفن على الشرفات وعند النوافذ فوق مخزن التين عند مرور الجنود في سوق قره بينار ليستمعن إلى هذه الأغاني الجميلة فكن يضحكن عند سماع الكلمات الاباحية ومنهن كانت تنفر عند سماعها ويغلقن النوافذ مع كثير من الغنج والدلال والتظاهر بالخجل. كان لتحسين خادم اسمه حسني كما كان لكل منا خادمه اتخذه من بين الجنود ليقوم على الخدمة. وكان حسني

هذا أشبه بثعلب محتال مراوغ وبكلمة موجزة كان متمماً لما ينقص تحسين من مزايا الإجرام والوحشية. جاءني يوماً وأعطاني شكاً طالباً مني أن أقبض له قيمته لصالح أحد أقاربه من بنك في أزمير لعدم قدرته على السفر إلى أزمير التي أتردد إليها في أعمال للسريّة واحتفظت بالشك لحين زيارتي، ولم أكُ أدري أن الشك لا يقبضه إلا حامله أو إذا كان موقعاً من صاحبه. في اليوم التالي أتاني حسني بشك ثانٍ ورجاني أن أقبض قيمة الاثنين معاً، وفي اليوم الثالث أتاني أيضاً بشك ثالث مدّعياً أن القوم علموا بنزولي إلى أزمير فسارعوا إلى تكليفي بهذه المهمة لتوفير مشقة السفر. آنذاك ساورتني الشكوك وكنت عقدت النية على زيارة أزمير لإستلام بعض لوازم السرية. وكان يوم الثلاثاء موعد السوق الأسبوعية التي تقام في قرة بينار، وكان يقصد السوق الفلاحين من القرى المجاورة لبيع محاصيلهم وشراء ما يلزمهم، في خضم الزحام وقفت أتفرج على الفلاحين وبضائعهم وطرق مساوماتهم(العرض والطلب) فلفتني عجوز طاعن في السن يرتدي الثياب الأناضولية بزناره العريض من الفخذين إلى الابطين مشغولاً بعرض ما معه لبيعه، وإذ بحسني يقف بجانب العجوز عن شماله يجادله بالأسعار ويرمي بجسده عليه وبسرعة خاطفة جداً سحب حسني المحفظة من جيب العجوز وانسحب بعيداً لينجو بفعلته وعن الشبهة ليفاجأ بي واقفاً بوجهه وآخذ منه المحفظة لأعيدها إلى العجوز الذي كان يلطم وجهه ويصرخ لقد سرقت فقدت نقودي لقد سرقت، تقدمت منه أعطيه اياها ومنبهاً له: خذ أمانتك ولا تسل عمن سرقها بل ضعها في مكان يصعب سرقتها، رُدّت روحه إليه مقبّلاً يدي ويدعو لي. ولما سألت حسني عن أعماله هذه، أجاب بكل صفاقة: أنا لا أخفي عليك أنني أنشل محافظ هؤلاء الأغبياء وأقدمها إلى قائدنا تحسين بك من دون أن أفتحها، فهو يأخذ النقود ويعيدها مع اوراقها لي. نصحته بالكف عن هذا العمل وإلا سأطلع القيادة إذا هو عاود سرقة الناس. واكتشفت فيما بعد أنه يقوم بأعمال أبشع من السرقة فكان يقوم بالوساطة بين تحسين والمومسات. تمادى تحسين في طغيانه فأخذ يمد يده إلى أرزاق الجنود فيبيع اللحم والأرز والبرغل ويترك الجنود تعيش على الكفاف من الطعام، وزاد في تقنين الشعير للحيوانات فترك للدابة كيلوغراماً واحداً والباقي يبيعه. كان يمر في الأسواق على الناس الجالسين وجلّهم من الشيوخ والمسنين

لأنهم لم يقفوا احتراماً له. لقد دفعه غروره وصلفه إلى مخاصمتي وفرض سلطته عليَ وأنا القائد الفعلي للسرية أحمل أعباء العمل وأغضّ الطرف عن جرائمه، وذلك انني في صباح ذات يوم جمعت الجنود في ساحة الخان كعادتي وأعددتهم للتفتيش حسب الأصول، لما نزل تحسين من غرفته ليستعرض الجنود أعطيت الأمر، بالتأهب، تحية القائد، لكن تحسين لم يرد على التحية كما هو مفترض بالقائد بل وضع يديه في جيبه ويتمشى مقلباً الأفراد بنظرات الاحتقار والازدراء، ثم قال ما هذه الفوضى؟ ما هذه السخرية يا عبدالله أفندي؟ ما هي وظيفتك أيها المعاون الشاطر؟ وذلك على مسمع الجند والأهالي. ثارت ثائرتي ولم أعد أحتمل هذا التمادي، فأعطيت أمراً عكسياً متحدياً به تحسين: إسترح! (أي لا سلام ولا احترام)ثم هرعت إلى غرفتي غاضباً وقررت أن أثيرها حرباً عليه مهما كانت النتيجة، أنا الآن بين أمرين، إما أن أُحال على المجلس الحربي لهذا التحدي الصارخ والتمرد على ضابط أعلى وإما ان يُرسل تحسين إلى السجن وأفوز بالقيادة مكانه، لكن تحسين كان من الدهاء والتعقل بحساباته للعواقب سيما أن أحد الرقباء المقربين منه أسرّ إليه: أرى ألا تسيء إلى عبدالله أفندي فله مكانته الكبيرة بين الجنود. اجتمع تحسين بعصابته المؤلفة من أشقياء الضباط أمثاله فعرض عليهم الأمر واستشارهم في إحالتي على المجلس الحربي فنصحوه بأن يسترضيني مهما كلف الأمر وتعهد بعضهم أن يقوم بهذه المهمة، وبالفعل أتاني اثنان منهم للوساطة جهدا لإقناعي بالمصالحة فاشترطت عليهما أن يأتي بنفسه يعلن لي سوء تصرفه ويعتذر عما بدا منه، وقد تم لي ما أردت ومنذ ذلك اليوم لم ألقَ منه سوى الاحترام والمعاملة الرفيعة. سبق أن ذكرت شيئاً عن الرقيب الأول حسين أفندي الشامي خريج معهد صغار الضباط(كوجك ضابط) في دمشق لقد ضممناه إلى أسرة الضباط فغدا يتناول الطعام معنا وعلى مائدتنا وينام في غرفتنا على الرغم من انه يعتبر في منزلة الجنود لا يجوز له أن يعايش الضباط. لقد خصصته بعطفي لكونه عربياً وخصّه تحسين بعطفه للذهب الموجود في كمره والمآكل الطيبة التي كان يعدها بفنه ودراهمه. نحن ثلاثة كامل طبارة ويوسف الزينة وأنا نجتمع إلى بعضنا في كل مناسبة نستعرض مشاكلنا ونتشاكى مصائبنا، ولا عجب في ذلك فنحن أولاد بلد واحد، قررنا يوماً أن نقضي اليوم الأول من عيد الأضحى في مدينة

آيدين وفي الصباح امتطينا خيلنا وسرنا على بركة الله في طريق ضيق بين البساتين إلى أن مررنا ببئر على قارعة الطريق فتوقفت الخيل طلباً للماء، ولما حاولنا أخذ الماء كان لدلو البئر قرقعة سمعها أهل البيت المجاور، فخرج الينا رجل عجوز وحوله زمرة أطفال وأولاد، نادانا قائلاً: خففوا عنكم نحن نقوم على سقاية الخيل، فترددنا ولما ألحّ علينا أذعنا وسلمنا قيادها إلى الصبية، ثم أدخلنا إلى حقل واسع وفي زاويته بيت متواضع، قادنا العجوز إلى ذلك البيت فإذا بنا عند باب المطبخ وقد جلست فيه امرأة وثلاث نسوة في مقتبل العمر كلهن منهمكات في تقطيع اللحم. لقد فوجئن لرؤيتنا وهمّت إحداهن بترك المكان لكن الرجل العجوز بادرهن قائلاً: هونوا عليكن فهؤلاء أولادنا منَّ الله علينا بهم في صباح هذا اليوم المبارك، ثم قصّ عليهن ما تأتى له معنا فرحبت العجوز بنا ترحيبها بأولادها وأضافت تقول ان لي ثلاثة أولاد في خدمة السلطان وقد حرمنا من مشاركتهم لنا عيد الأضحى فمنَّ الله علينا بكم لتكونوا موضع عطفنا فتخففوا عنا كثيراً من لوعة الفراق التي تمزق قلوبنا. بعد ذلك دخلنا الغرفة الوحيدة ودلفنا إليها عبر المطبخ فوجدناها خاوية إلا من سرير حديد عار من فراش وتحته بطيخة يتيمة. الأرض حجرية يغطي جزء منها حصيرة مقطعة أُعدت لجلوسنا. جلست العجوز قربنا تحدثنا حديث أولادها والدموع تنسكب من مقلتيها فتقول شكراً لله الذي منَّ عليَ بكم لتشاركونا العيد وتأكلوا معنا أضحية العيد بدل أولادي الثلاثة المجندين الذين لا يعرف مقرهم ومصيرهم إلا الله. كانت النسوة الثلاث يشاركن العجوز تلك العاطفة بما كان يبدو على وجوههن وحركاتهن، وقد علمت من الأم العجوز انهن زوجات أولادها ولكل منهن بضعة أولاد يعيشون جميعاً في هذا البيت وان معيشتهم تعتمد على زراعة حقلهم، فالشيخ يقود المحراث والنساء والأولاد يجرونه بدل البقر والثيران فالدولة لم تبقِ على حيوان في ذلك الاقليم.



عاملات يميزن التين المجفف وتجهيزه للتعليب في ازمير كما في سميرنا وآيدين وقرى أخرى

بعد برهة قليلة وضعت بين أيدينا صفحة من النحاس ملئت بالبرغل وسكبت عليه كمية كبيرة من اللحم والدهن فشاعت رائحة زكية لن أنساها ما حييت، وكنا جياعاً إلى أقصى حدود الجوع فأخذنا الملاعق الخشبية وخضنا معمعة دونها معمعة السلاح الأبيض فالجوع وجودة الطعام وكرم أصحاب البيت تضافرت لتحملنا على تناول الطعام أكثر مما كانت تحمله معدتنا، لم انتهينا من البرغل جاء دور البطيخة التي ربما احتفظوا بها منذ زمن لهذا اليوم فأكلنا منها ما طاب لنا، ثم شكرنا لهم صنيعهم ودعَونا ان يرد الله لهم اولادهم سالمين. لست أنسَ موقف النساء منا عندما علمن اننا من البلاد العربية، لقد زاد إكرامهن لنا وأخذن يضعن أكفهن على ظهورنا تبركاً ويدعون لنا بالتوفيق. ان الاناضوليين لا يزالون على الفطرة متمسكين بدينهم وفوق ذلك فهم ينظرون إلى العربي بشيء من القدسية والأفضلية لاعتقادهم ان الدين الاسلامي جاء على يد العرب والقرآن عربي، فالعرب هم الأصل والباقي هو الفرع، هذا هو تفسيرهم وهذا هو اعتقادهم. تركنا هذا البيت ويممنا شطر آيدين فقضينا النهار نتجول في أسواقها ونشاهد معالم الزينة وبهجة العيد، وعند المساء عدنا إلى قواعدنا

سالمين. في جملة جنودنا شقيقان جاوزا الخمسين سنة ولست أدري كيف جاز استخدامهم في الوحدات العسكرية فأشفقت عليهما وعهدت اليهما مهمة الطهي في المطبخ وكنت فوق ذلك أخصهما بعطفي لشيخوختهما وبراءتهما الظاهرة. تقدم الشقيقان مني يطلبان فرصة ثلاثة أيام يذهبان فيها إلى قريتهما «شوريل» القريبة منا ليتفقدوا اولادهما ويؤمنا المؤونة اللازمة لهم قبل مغادرة الديار إلى ساحات الحرب. وعدتهما خيراً واستمهلتهما يومين لأراجع القيادة في ذلك. في اليوم التالي انتهز أحدهما فرصة وجودي في عنبر التجهيزات لوحدي ودخل متوجهاً إليَ ودسَّ في جيبي ورقة مالية وقال: أعذرني اذا كان هذا المبلغ ضئيلاً لا يتناسب مع مقامك والمعروف الذي أسديته الينا لكننا نعدك بأن نأتيك لدى عودتنا بهدية قيمة. عندها رددت الورقة المالية اليه وشتمته طارداً إياه قائلاً له: لن يكون لكما اذن بعد ان ارتكبتم هذه الفعلة الشنعاء وسوف أمزق الوثيقة التي استصدرتها لكم بشق النفس. ذهب هذا إلى رفاقه يجر أذيال الخيبة والخزي وساد الهرج بين الجنود، فأصغيت بشغف إلى ما يتحدثون به وسمعت بعض عبارات التعنيف والسخرية وما هي إلا برهة حتى دخل عليَ الرقيب محمود، وكنت أخصه بثقتي ومحبتي، فعرض عليَ تفصيل الحادث قائلاً: نهضنا هذا الصباح وتناولنا حديث الإذن لأبناء «شوريل». فقال فريق من الجنود لا سبيل إلى الحصول على إجازة إلا بهدية مالية لعبدالله أفندي وعارض الفريق الآخر وانقسمت الجنود إلى فئتين، الاولى تؤيد الرشوة والثانية تعارضها، فلجأنا إلى الشرط (الرهان) وتعهد الفريق الخاسر ان يقوم بطمار الخيل اسبوعاً كاملاً. ولا تسل عن الحزن الذي أصاب العجوزين والندم الذي وقعا فيه، فهلا تعطفت وعفوت عنهما وأكملت معروفك معهما؟ طلبت اليه ان يجمع السرية كلها. استقبلني الجنود بالهتاف والتصفيق وبادرتهم بقولي يؤسفني ان أرى بينكم من يجهلني أو يسيء الظن بي بعد ان قضى ثلاثة أشهر بصحبتي لا يرى إلا العطف والرعاية الأخوية من جانبي واعلموا انني بعد ان ضمنت لأبناء شوريل فرصة اسبوع لا ثلاثة ايام كما طلبوا، قررت بعد هذا العمل الدنيء من قبلهم ان ألغي الفرصة، ثم دفعت بالوثيقة اليهم ليشاهدوا بأعينهم ثم يمزقوها بأيديهم. عندها تقدم أحد الرقباء وقال: انا من الذين خسروا الرهان ورغم الحب الذي نكنه لك والثقة التي لنا فيك اردنا ان نمتحنك ولو لمرة واحدة، ونحن على أبواب الجبهة الحربية التي سوف نضن عليك فيها بأرواحنا. اننا نفضل

ان نقوم بطمار الخيل سنة كاملة اذ أثبت لنا نزاهتك وترفعك، فأرجوك باسم أفراد السرية ان تعفو عن هذين العجوزين وتعطيهما الوثيقة، فأجبت طلبه وهتف الجنود طويلاً في آخر امتحان دبره الجنود لي، فالحمد لله. جرت العادة ان نقوم بدورة تفتيشية بين الجنود ليلاً، وفي منتصف إحدى الليالي صعدت الدرج إلى المسجد حيث ينام الجنود واذا بي أشاهد جندياً يعالج قصبة أدخلها في ثقب في أرض المسجد الخشبية ولما أخرجها كان عالقاً في نهايتها بضع حبات التين الجاف، ثم أعاد المحاولة متابعاً صيده وما ان شاهدني حتى اضطرب والقى بالقصبة جانباً وحمل سلاحه ليقوم بواجبه الحراسة. قلت له: لا تخشى شراً شرط ان تخبرني بالتفصيل، أجاب: نحن على وشك السفر فأردنا ان يأخذ كل جندي ما يستطيع إخراجه بهذه القصبة أثناء حراسته، وها انا أحاول الحصول على نصيبي خلال وردية حراستي كما فعل القسم الأكبر من الزملاء، عندها أمرته بالتوقف عن السرقة والقيام بواجب الحراسة وان يبلغ الحراس بعده بالامتناع عن هذا العمل. وفي صباح اليوم التالي حاولت الاهتداء إلى صاحب المخزن المسروق إلا انه كان في ازمير، فأرسلت في طلبه ولما حضر قصصت عليه تفصيل ما حصل وطلبت اليه ان يحصي خسارته لأدفع له ثمنها، وكنت اتوقع منه ان يطالبني بإعادة التين المسروق ويجعل التعويض على الله. لكن هذا أبى بشهامة إلا ان استدعي اللذين لم يحصلوا على نصيبهم ان يأتوا ويملأوا حقائبهم ثم توجه إلى الى المخزن وفتحه على مصراعيه وسلمني المفتاح قائلاً ربما أخجلهم وجودي بينكم، دع الجنود تأخذ ما تشاء ثم تكرم بإقفال الباب والاحتفاظ بالمفتاح لحين عودتي واستلمه. بارك الله بكرمك. انه فوق ذلك كله وضع لي في غرفتي صنوقا مليئاً يزيد وزنه أكثر من ٢٠ كلغ وكتاباً يقول فيه انه هدية منه إليَ تقديراً لموقفي منه ومن الجنود البائسين.

في الطريق إلى ساحة الحرب

اقمنا في ربوع ازمير أكثر من ثلاثة أشهر قضيناها في إعداد السرية وإكمال معداتها ولوازمها وفي تدريب الجنود وقد اصبحنا على أتم استعداد للاشتراك في الحرب. علمنا اننا مغادرون تلك الديار واننا متجهون إلى الجنوب، إلى بلاد العرب واننا سوف نمر بحلب ورياق وربما دمشق. فمر ببالي بلدي واهلي سيما والدتي التي كنت اشاركها الالم الذي

تعانيه من فراق ثلاثة من اولادها لا تعلم شيئاً عن مصيرهم، أخي الأكبر عمر في بئر السبع الذي كان يعاني ويلات الصحراء في جيش منهزم امام الجيوش الانكليزية والعربية. وأخيراً ضمن لنفسه بفضل دراهمه عملاً ليناً في تلك الصحراء القاحلة فأصبح مساعد طبيب في المستشفى السيار يعطي العلاج للمرضى الجنود حسب تعليمات الطبيب ويأمره ان يعطي الدقيق بدل الكينا ليدفع عنه شرهم. وأخي الثاني محمد سعيد ذلك النابغة العصامي، كان يكافح في سبيل تأمين قوت البيت ونفقاتنا نحن المجندين. لقد انتهت مدة اجازته ستة اشهر أعقبتها ستة أشهر أخرى فاضطر إلى تزوير اجازات جديدة وكان له كل الحق في ذلك لأنه لا يقوى على احتمال متاعب الجندية من جهة ومن جهة ثانية كان الرجل الفرد المكلف في القيام بأود العائلة وتأمين نفقاتها. وسبب القلق للوالدة عليه كلما وقع بأيدي الدرك المتعقبين اما ولدها الثالث فكان ابعدهم عنها مسافة واقربهم إلى مواطن الخطر فهو سيخوض غمار الحرب على رأس سرية رشاش ليكون الهدف الرئيس لنار العدو، لقد كنت سبباً كبيراً في قلقها وأحزانها. وها هي ثمانية عشر شهراً تمر من دون ان أشاهد أهلي، لقد برّح بي الحنين إلى الديار ووددت لو أطير إلى بيروت لأروي غليلي من رؤية والدتي واخواني. كان يلوح لي بريق أمل كلما خطرت لي بعلبك ورياق والمدن العربية الحبيبة التي سوف أمر بها في طريقي إلى الجنوب وكنت أعلل النفس بانتهاز فرصة لزيارة بيروت ولو مشياً على الأقدام.
تلقينا الأمر بالسفر شرقاً، فطلبت وضع ثلاث عشرة عربة تحت تصرفنا في محطة قرة بينار عربتان للجنود وعربة للضباط في الدرجة الأولى وثمانية للخيل والبغال وشاحنة للعربات وشاحنة للذخيرة والمدافع والملابس. قطار خاص سار بنا إلى «أفيون قرة حصار» هنا يجب ان نمكث ثلاثة أيام من دون ان نعلم السبب، فآوينا الدواب والجنود وصادرنا غرفتين للضباط من أحد البيوت الكبيرة بعد ان انتهيت من تأمين بقية السرية خرجت اتجول في الاسواق فراقت لي مناظرها ووجدت في «افيون قرة حصار» المدينة الاناضولية المثالية، فهي قرية ومدينة في آن واحد تجد فيها مظاهر القرية من سوق اسبوعية وتعامل على طريق المبادلة وماشية تخترق الاسواق وازياء قروية ومحاصيل زراعية مكدسة في الطرقات والساحات، ثم تجد من جهة ثانية أبنية حديثة كدور الحكومة والمدارس والمساجد

والمساكن العصرية وتجد في شوارعها عربات الخيل الغنية والمطاعم والازياء المدنية. لقد استرعى انتباهي في هذا البلد صناعة اللباد فإذا ما ذكرت «افيون قرة حصار» ذكرت معها صناعة اللباد الطريفة. ركبنا القطار نتابع السفر إلى الشرق وكان البرد شديداً في الطريق. نحن الضباط نحتل غرفة كاملة في الدرجة الأولى. أشعل تحسين النار وكان وقودها أخشاب السقف والرفوف وإطارات النوافذ بل كل ما يمكن انتزاعه من أخشاب القطار الثمينة، فتألمت لهذه الهمجية وما ان توقف القطار في قونية حتى أخذت سلة فارغة واندفعت بها نحو القاطرة فغاصت ساقاي بالثلج إلى الفخذين وكافحت بصعوبة لأخرجهما محاولاً الوصول إلى قاطرة الوقاد لأطلب منه ان يعطني شيئاً أعود به إلى غرفتي وهي في آخر القطار فشبت النار في السلة ورفعتها على راحتي، فكان المنظر مضحكاً لكنني تمكنت من الوصول بعد ان اشتعل النصف الأعلى من السلة فانفرجت أسارير رفاقي لمشهد النار المتأججة وكفّ تحسين عن تكسير خشب عربتنا وتخريب القطار. توقفنا في أطنة وضربنا خيامنا خارجها ومكثنا فيها أسبوعاً كاملاً. كان تحسين يبيع الشعير كله فالمراعي موفورة هناك، ويجمع رفاقه الأشقياء ثم يقصدون إلى المدينة ويقضون أكثر الليل في صالاتها يخمرون ويعربدون ويعتدون على الأعراض ويعملون تخريباً في كل ما تصل اليه أيديهم من أثاث تلك الصالات واوانيها، ولم يكن هناك من يتجرأ على الوقوف بوجههم وهم ضباط الجيش العثماني الهمايوني المدللين سيما وهم في طريقهم إلى ساحات الحرب وقد نذروا انفسهم للدفاع عن الوطن بأرواحهم. في آخر الليل يعودون محمولين كأكياس النخالة يملأون المخيم صراخاً وعربدة. أتاني رسول يقول لي أن بعض الجنود في الثكنة يرجونك ان تزورهم، فبدا لي ان هناك بعض أقاربي أو أصحابي يطلب مساعدتي أو مقابلتي على الأقل. فقصدت إلى الثكنة أو ما يسمونه مركز السوقيات واذا بي أمام عدد كبير من الجنود الفارين وقد قبض عليهم وأرسلوا تحت حراسة إلى الوحدات العسكرية. وجدت هؤلاء في حالة يرثى لها بثيابهم الممزقة ووجوههم التي أضناها الجوع والمرض والبرد والعطش والمشي وضرب السياط المبرح، وبينما انا أجيل النظر في هذا القطيع الهائم الجاثم على الأرض اذا بجنديين يرتميان على قدمي فزجرتهما وامرتهما بالوقوف لأتبين انهما العجوزين اللذين

ساعدتهما لزيارة ذويهما في شوريل ونكثا بالعهد ولم يعودا وكان ذلك سبباً في خيبتي امام قائد الفوج عثمان بك. ارحمنا يا سيدي فقد كفرنا بنعمتك واخطأنا فلم نبر بوعدنا وقد قبضوا علينا وساقونا مع من ساقوهم من الفارين وساموا سوء العذاب، فهلا عفوت عنا وشملتنا بعطفك فأعدنا إلى كنفك على ان نفديك بحياتنا؟ أشفقت عليهم من دون ان أتفوه بكلمة طلبت إلى الضابط المسؤول ان يعيدهما إليَ، وبعد ان وقعت على الاوراق امتطيت جوادي ومشيا في ركابي إلى مقرنا فاستقبلهم الجنود بكثير من التعنيف والسخرية وزادني صنيعي تقديراً لديهم. انقضى الاسبوع الأول ونقلنا إلى بوزانطي حيث ينتهي الخط الحديد العريض وتبدأ جبال طوروس التي لا يمكن اجتيازها إلا على الخط الضيق الذي يمر عبر نفقين طويلين تخترق هذه الجبال وهذا متيسر للوحدة الألمانية فقط أو الضباط أو للمهمات المستعجلة. إذ يجب ان نجتاز جبال طوروس على الأقدام. أما تحسين فكان مسبقاً قد استحصل على تقرير طبي يخوله حق السفر بالقطار، إلى اللقاء في حلب سيد عبدالله أفندي، انا بانتظاركم في حلب لأهيء لكم اقامتكم فيها فتسلم القيادة وآمل ان تقوم بواجبك وتصل بالسرية من دون أي شكاوى. لقد أحسست ان كابوساً قد أزيح عن كاهلي بذهابه على الرغم من المسؤولية الملقاة على عاتقي. أمرت بالاستعداد للرحيل فشددت الخيل إلى العربات ونقلت الاثقال اليها وحمل ما تبقى على ظهور البغال فبرزت قافلة كبيرة يزيد طولها على الثلاثمئة متر، ثم امتطيت صهوة جوادي وتقدمت القافلة يغمرني الزهو والفرح بعد ان طلبت من زميلي عثمان أفندي ان يسير في المؤخرة. سارت القافلة على بركات الله. مضى اليوم الأول على ما يرام وعند المساء كان علينا ان ننام في العراء فوق الثلج. أعد لي خادمي السرير فوق الثلج وعليه حرام واحد من الصوف وتغطيت بحرام آخر وعليه معطفي الغليظ فلم يغمض لي جفن تلك الليلة لشدة البرد. أما الجنود فقد رفعوا الثلج عن البقعة التي اختاروها لنومهم وحفروا التراب إلى عمق شبر وضمنوا لأنفسهم مكاناً دافئاً طيلة الليل. عند الصباح علمت ان الجنود كانوا أوفر حظاً مني فتمنيت لو اني فعلت ما فعلوا، في اليوم الثاني تابعنا السير في طريق سهل إلى وقت الظهيرة وهنا أخذنا بالصعود، وبدأت الخيل تعرج فهي تمشي على أظلافها من دون نعال وأين النعال؟ لقد بذلت جهدي في أزمير لتأمينها لكن من

دون جدوى واشتد البرد وجلّدت مياه المطر على الطريق فكانت الخيل تنزلق حوافرها على الجليد فلا تستطيع جر العربة، حاول الجنود المساعدة في دفع العربات، عشرون جندياً اجتمعوا على عربة واحدة ليتمكنوا من دفعها وجعلها تتقدم وينتقلوا لغيرها ليدفعوها للأمام، وهكذا ظلوا يعملون إلى ان أظلمت الدنيا وبرّح بهم البرد، لقد تجلت لي بوادر الكارثة وشعرت بخطورة الموقف فدفعت الجنود إلى متابعة العمل بما اعرفه من عبارات التشجيع واستحثهم بما لي عليهم من موْنة. سارعوا إلى تلبية طلبي بما أُوتوا من قوة وقاموا بواجبهم ما تعجز عنه الجبابرة. السماء تمطر والطريق يغشاه الجليد وقد اشتد البرد وتكاثف الضباب ليزيد من حلكة الليل بحيث لم يعد باستطاعتنا ان نرى بعضنا بعضا. نزلت عن حصاني وشمرت عن ساعدي وأخذت أعمل في الدواليب دفعاً إلى الأمام والجنود يقتدون بي ويعطون إقصى ما يستطيعون، وما هي إلا فترة حتى أخذ الجنود ينسحبون جماعات وفرادى فلم يبق بجانبي سوى ثلاث رقباء أشداء وأكثرهم اخلاصاً. خيم السكون المخيف فلم نكن نسمع إلا صوت ناعم لسقوط المطر واذ بنا نسمع صوت دحرجة العربات في المنحدر على بعد مئة متر فمشينا حيث كانت واقفة هبطنا نتحسس طريقنا إلى حيث استقرت بعض العربات يهدينا اليها صوت أنفاس الخيل المتقطع نتيجة ضغط العربات على أجسادهم. ولما وصلنا اليهم قطعنا الأربطة وانقذنا الخيل التي نفرت غير مصدقة انها نجت وتحررت ذاهبة إلى حيث لا ندري. ولما عدنا نسير على الطريق شاهدنا ناراً تشتعل في منخفض بعيد عنا فقصدناها لنجد بضعة جنود وقوفاً حول نار يصطلون بها فإخذني العجب وتساءلت كيف استطاع هؤلاء إضرام النار تحت المطر. كنت موهوماً انني بفضل الكشفية أعرف كل شيء لكنني ازاء أعمال الجنود والنار وجدت نفسي عاجزاً امام تجاربهم وخبرتهم. فهم يعرفون كيف يضمنون النوم الدافئ فوق الثلج بغطاء تساوى وجوده وعدمه وكيف يضرمون النار تحت المطر بوقود مخلوط ماءً. كانت السرية مبعثرة أولها في أعلى الجبل وآخرها في الوادي مسافة اربعة كلم. قررت ان أتفقد العربات وأحل وثاق خيلها فرافقني الرقيب محمود وأخذنا في طريقنا صعوداً وكل عربة نشاهدها نحل قيودها ونطلق سبيلها. فشاهدنا عربة اوشكت على السقوط وأخرى قد سقط خيلها أرضاً عاجزة ان تنهض وثالثة صعد خيلها

مرتفعاً بجانب الطريق وبقيت العربة وكأنها معلقة بالخيل لقد شاهدت الجنود قد اندسوا بين أكياس الملابس داخل العربات ليدفعوا البرد عن انفسهم ومنهم من برّحتهم آلام مختلفة نتيجة البرد والتعب فآثروا اللجوء إلى العربات عوضاً عن متابعة السير مع رفاقهم إلى الثكنة، وهي على مسافة بضعة كيلومترات كما تبين أخيرا. وفيما انا منهمك في عملية الانقاذ اذا بالرقيب محمود يقول لي ويده على بطنه، أرجوك ان تعذرني فلم يعد باستطاعتي احتمال البرد. هذا آخر سهم في الكنانة، فليذهب ولأبقَ وحدي في ذلك الليل البهيم أكافح الكارثة التي حلّت بنا. تابعت السير صعدا وتممت على آخر عربة وكان الليل قد تجاوز منتصفه وبينما انا أفكر في ما أعمل لاح لي ضوءان على مقربة مني فقصدت اليهما ونزلت من الطريق إلى المنحدر وحاولت الدنو منهما متحسساً بكلتي يدي واذا بي أقبض على رأس حيوان لعله ذئب أو ضبع أو غيره من الحيوانات الضارية وتبينت بعد لحظة انه كان حصاناً أو بغلاً فاستأنست به بعد خوف ووحشة فهو لا شك من حيواناتنا الشاردة. تهيأ لي ان امتطيه على الرغم من عريه حتى من الرسن، وما ان علوت ظهره حتى قفز بي إلى الطريق وجعل يعدو بما أوتي من سرعة، وكلما جذبته من شعره أمعن عدواً فلم أجد إلى تهدئته سبيلاً إلا أن أشدّ ساقاي إلى بطنه وأسلم أمري إلى الله، راح يعدو كما شاء له الهوى وبعد ان قطع مسافة تزيد على ثلاث كيلومترات توقف فجأة وكدت أسقط من فوق رأسه وهنا سمعت خرير ماء امامي فتبين لي اننا كدنا نسقط معاً في السيل الذي جرف الجسر هناك واخذ يتدفق بقوة زاخرة. بعد ان هدأ روعي تلفت إلى يميني فشاهدت ضوءاً بعيداً في الوادي، حولت رقبة البغل إلى تلك الناحية فأطاع وسار بي الهوينا وربما كان مرد ذلك التعب الذي حل به. تركنا الطريق وسرنا بين الصخور الوعرة وهدفنا ذلك الضوء البعيد. بلغت البيت المضيء ترجلت وطرقت الباب مرة وثانية وثالثة إلى ان سمعت رجل يقول: من الثقيل الذي يزعجنا في هذا الليل؟ ولما فتح الباب والمصباح بيده وتبين له انني ضابط تبدل موقفه واضطرب ثم ألقى التحية العسكرية قائلاً: عفواً مولاي أرجوك ان تتجاوز عما بدر مني، ولما سألته عن موقع الثكنة التي أوى اليها الجنود قادني بمصباحه إلى حيث تجمعت الجنود في بناء يبلغ طوله خمسين متراً وعرضه ستة، مؤلف من طبقتين ليكون ثكنة يبيت فيها الجنود العابرين لجبال طوروس،

الطابق الأعلى زال سقفها الخشبي كلياً كما يجري إزالة سقف الطبقة السفلى وذلك بهدف التدفئة وقد شاهدتهم يقتلعون الجسور الخشبية ليشعلوها ويتقوا البرد. احتل الجنود الذين سبقونا من سرايا الرشاش المكان الصالح المسقوف ما اضطر جنودنا إلى الوقوف في العراء تحت المطر ملتفين حول النار التي اشعلوها وتركوا البغال المثقلة بالأحمال واقفة تحت رحمة الطقس البارد. ناديتهم هيا ايها الشباب إلى مساعدتي في انزال في الأثقال عن ظهور الدواب فسارعوا إلى نجدتها ثم عادوا إلى نارهم وعدت إلى نفسي علّي أجد مكاناً لي آوي اليه فأضمن قليلاً من الراحة حتى أتابع عملي في اليوم التالي. كان باستطاعتي ان أجد لنفسي حيّزاً مع الضباط الذين احتلوا جزءًا من المكان المسقوف لكنني لم أشأ ان أميز نفسي عن جنودي. لقد قاربَ بزوغ الفجر والماء يسيل على جلدي وملابسي تحمل من الماء ما يكفي لسقاية بغل. حاولت التمدد على الأرض فأنام ولو ساعة، لكن أين النوم؟ وكيف يغمض لي جفن وانا غارق بالماء البارد والكارثة التي حلّت بي تعصف في رأسي. ترى ماذا أفعل وكيف السبيل إلى جمع ما تبعثر من الجنود والبغال والمتاع في أعالي الجبال ووديانها؟ وماذا يكون مصيري لدى المجلس العسكري الرهيب؟ راودتني فكرة الفرار، لكن إلى أين؟ وأنا غريب عن هذه الديار، فربما مصيري عاقبته أسوأ. وبينما انا غارق في مثل هذه الأوهام اذا بي أرى الغيوم تنقشع ويلوح الفجر فنهضت وناديت الجنود المبعثرين هناك واستنهضت هممهم ثم مشيت امامهم فاندفعوا ورائي حتى بلغنا المنطقة التي تشتت فيها شملنا فأخذنا نجمع الدواب من رؤوس الجبال وشعابها ونشدها إلى العربات وعدنا إلى مقرنا وعرّضنا ما تبلل من ثيابنا ومعداتنا لضوء الشمس ودفئها وكانت السماء صافية لا أثر للغيوم فيها. وعند الظهيرة استعرضت السرية فلم أجد نقصاً في الجنود أو في الحيوانات أو المعدات سوى غطاء واحد لقبضة رشاش فحمدت الله تعالى وسجلت بذلك أعظم توفيق أحرزته في حياتي العسكرية وجدير بالذكر ان أروي انني بعد بحث طويل بين رشاشات السرايا التي سبقتنا إلى حلب تمكنت من العثور على ذلك الغطاء على أحد الرشاشات، وكان رقمه مطابقاً لتسلسل رشاشاتنا، لقد سرقه أحد الجنود منا ونحن في غمرة الكارثة. قررت الاقامة يوماً آخر في تلك الثكنة وقد خلت من نزلائها واعلنت يوم راحة للجنود والدواب متحدياً اوامر الجيش

بوجوب مواصلة السير، ثم قصدت إلى مركز الاعاشة وطلبت زاد يوم فوق العادة لنا وللدواب فرفض ضابط الاعاشة وحجته في ذلك ان الأوامر لا تخوله تقديم الزاد لأكثر من يوم واحد إلى كل وحدة عسكرية تمر بمركزه، فقلت أعطني زاد يوم واحد واكتب إلى مرجعك ان السرية الفلانية أخذت زاد يوم واحد عنوة، وبالفعل سوف آخذه عنوة اذا انت لم تعطنيه طوعاً، لم يرَ الرجل بداً من إجابة طلبي سيما وقد تبين ما حلَّ بنا فاعطاني ما طلبت وأخذ على عاتقه تبعة هذه المخالفة، فكان كريماً وحكيماً. وهكذا استطعنا ان نقضي يوماً كاملاً بين غناء ورقص وألعاب منوعة وحكايات أقصها عليهم. عند الصباح نهضنا لنتابع سيرنا لكن الخيل بريت حوافرها لم تعد تقوى على السير أو الجر. بعد مسيرة ساعة أو أكثر خشيت ان نقع بما وقعنا فيه قبل أيام فجمعت الرقباء وبينت لهم أمر استحالة وصولنا بسبب ضعف الخيول وطلبت اليهم ابداء الرأي في وسيلة تساعدنا على متابعة السير فبرز الرقيب محمود وطلب إليَ ان أترك الأمر إلى عهدته، وبعد ان اصطحب احد الجنود الأشداء وقصد بهم نحو الحقول حيث البقر في المرعى وما هي الا برهة وجيزة حتى عاد ببضعة ازواج من البقر وبعد ان شدها إلى العربات راح يطلب غيرها بينما نحن نتابع سيرنا البطيء إلى ان أمّنَ لكل عربة زوجاً من البقر لجرها فاصبحت الخيل تمشي طليقة وراء العربات. كنت اشاهد الفلاحين الاكراد أصحاب تلك البقر يتبعوننا وفي يد كل واحد منهم هدية(سلة بيض، سطل حليب أو اللبن، زجاجة زيت، سطل سمن) يحاول تقديمها إليَ أو إلى أحد الرقباء لنطلق سراح أبقارهم رفضت كل هدية ومنعت الجنود من أخذها، وأعلنت إلى الرقباء المكلفين في جمع البقر ان يستبدلوا اول زوج نصادفه في طريقنا بأول زوج سخّرناه وهكذا تمكنا من بلوغ قرية كردية أجهل اسمها وهي على رابية. قيل لنا ان الأكراد في تلك الديار قوم أشداء يقطعون الطرق ولا يتورعون من مهاجمة وحدات الجيش التي تمر بهم بقصد السلب والانتقام، فأخذت الحيطة الكافية ونصبت الرشاشات حول المخيم الذي أقمناه وأكثرت عدد الحراس كيلا نؤخذ على حين غفلة، وتداولت السهر مع زميلي عثمان أفندي زيادة في الحيطة، ولكن الليل انقضى من دون ان يحدث شيء مما توقعناه. عند الصباح قصدت القرية مع بعض الجنود لأجمع ما يلزمني من البقر، وفيما انا أسير في إحدى الطرق الضيقة صادفت

شاباً ينظر إليَ ثم يفر خائفاً فناديته من دون جدوى ولم يتوقف إلا بعد ان أطلق الجند عليه النار تهويلاً وبعد أخذ ورد تبين انه أحد جنودنا الفارين منذ كنا في «قرة بينار» عندها بكى وقال لي ان له زوجة واولاد ووالدان عجوزان يتضورون جوعاً وانه المعيل الوحيد لهم وقد فر ليقوم بأودهم، فطلبت اليه ان يقودنا إلى بيته لأستوثق من صدقه. ولما شاهدت والده الأعمى وامه المقعدة واولاده الستة واكبرهم لا يتجاوز العاشرة، رقّ قلبي عليهم فأعلنت له تجاوزي من اقتياده شرط ان يدلنا وساعدنا على أخذ ما نحتاج اليه من البقر، وما هي إلا فترة حتى جاءت البقر وكنا في الطريق إلى دير جمال هذه أول قرية عربية نمرّ بها، مئات القبب البيضاء منتشرة في تلك البقعة حسبناها لأول نظرة بيوتاً يقطنها أهل القرية لكنها وضحت الينا حين اقتربنا منها، انها كانت عبارة عن أغطية لمداخل بيوتها المدفونة تحت الأرض. قصدت إلى شيخ القرية فساعدنا على إيواء الدواب والجنود ثم دعا الضباط للمبيت عنده وكان بيتاً فخماً مبنياً فوق خان كبير يتسع لإيواء قافلة بكاملها. أعد لنا عشاءً ممتازاً من العسل والجبن والبيض واللبن والقاورما. فأكلنا ما شئنا واخذنا نتبادل أطراف الحديث، وقبل ان نأوي إلى فراشنا أسررت اليه عن حاجتنا إلى بقر أو ما يقوم بمقامها، شأننا فيما سبق، وعدنا خيراً شرط ألا نسخر بقره الخاصة، عند الصباح طلبت البقر فأجاب ان الفلاحين تمنعوا عن تقديم بقرهم فيحسن بكم ان تصادروا ما تحتاجونه بأنفسكم وبذلك تنقذونني من سخطهم، ارسلت الرقباء بحثاً عن البقر في زرائبها تحت الأرض فعادوا بخفي حنين إذ لم يجدوا بقرة واحدة تصلح لغرضنا، ساورتني الشكوك وذهبت بنفسي فكان حظي كحظهم إذ لم أجد إلا ثوراً مريضاً أو بقرة في حالة الوضع أو العجول التي لا تقوى على الجر. عندها تبين لي ان شيخ القرية قد أنذر الأهلين وان البقر قد أرسلت إلى مكان مجهول.



أبقار في سهول الاناضول الغربية

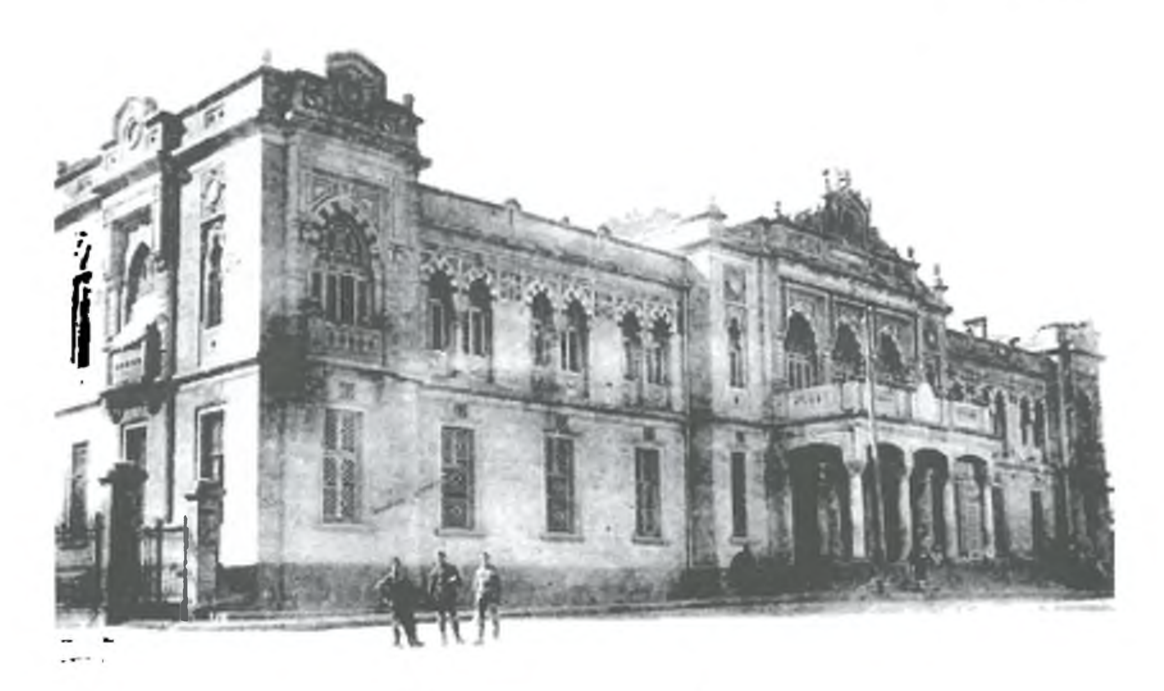
ألقيت نظرة على السهول المترامية حول القرية فشاهدت رابية على بعد خمسمئة متر من الجهة الغربية للقرية، فتأكد لي أن البقر هناك خبيء وراء تلك الرابية، فطلبت إلى الرقيب محمود ان يذهب إلى هناك مع بعض الجنود ويأتينا بجميع البقر هناك. وما هي إلا فترة قصيرة حتى رأينا قطيعاً من البقر يزيد عدده عن المئتين بقرة يتقدم نحونا والجنود من ورائه فكان إستعراضاً رائعاً هتف له الجنود طويلاً. أقبل شيخ القرية عليَ يرجوني إعفاء بقره، فطلبت إليه أن يفصل بقره جانباً، واذا بها أسمن بقرات القرية ويقارب عددها العشرين بقرة، فأمرت بشدّها كلها في الأول ثم بشد ما نحتاج اليه من بقر الفلاحين. وهكذا جازيت شيخ القرية المغفل الذي أوعز إلى أهل قريته بتهريب أبقارهم ثم جاء يطلب استثناء ابقاره من ان نستخدمها، كان الجنود يراقبونني فتعجبهم تصرفاتي هذه ويزيد احترامهم لي وحبهم. كان يصلني صدى أعمالي هذه نحوهم ونحو الأهلين فقد سمعتهم أكثر من مرة يقولون ليت الضباط الأتراك كانوا على شاكلة هذا الضابط العربي. كان سيرنا بطيئاً والمرحلة طويلة فقدرت اننا لن نبلغ المنطقة قبل منتصف الليل على هذا النحو، وفيما انا أفكر في وسيلة تساعدنا على الاسراع اذا بي أرى قافلة من سيارات الشحن الالمانية كانت في عودتها إلى حلب بعد ان افرغت حمولتها، فأشرت اليها بالتوقف وطلبت اليهم ربط كل عرباتنا إلى سياراتهم تجاوب معي قائد القافلة، وكان لطيفاً، سنحقق رغبتك شرط ان تعطيني جوادك

واعطيك مكاني في السيارة في هذه الرحلة، قبلت الشرط شاكراً وجرى ربط العربات إلى سياراتهم وأطلقت البقر لحسن حظ شيخ القرية وعهدت إلى بعض الجنود بمرافقة الخيل في سيرها البطيء ثم أخذت مكاني في السيارة بعد ان سلمت الجواد للضابط الالماني فسارت القافلة سيراً رفيقاً ما جعل الخيال الالماني يمثل لنا دور دون كيخوته وغيره من فرسان التاريخ فيهاجم دواليب العربات حيناً وينقض على جمل في الطريق حيناً آخر، ويداعب الفلاحين والجنود ويخيفهم ثم يسترضيهم بالبسكويت والحلوى التي يحملها. قطعنا تلك المرحلة في مشاهدة أجمل انواع الكوميديا، وفرحنا اذ بلغنا القرية قبل مغيب الشمس، فنعمنا تلك الليلة ببحبوحة من الطعام والراحة وعند الصباح نهضنا لنجتاز المرحلة الأخيرة إلى حلب. عدنا إلى البقر وكان موفوراً في الطريق فبلغنا حلب قبل المغيب ورأينا في استقبالنا صاحبنا تحسين وقد أقضّ مضجعه تأخر السرية ليدخل بنا حلب دخول الفاتحين. لكن تحسين رغم الاستقبال الحار الذي استقبل به الجنود الا انه لم يلق منهم الا الصدود وعدم الاكتراث، وذلك بعد ان لمسوا انانيته واستهتاره بهم الشيء الكثير، يقابل ذلك التضحيات التي قمت بها في مرحلة جبال طوروس والعطف الاخوي الذي لاقوه مني، فكانت المقابلة واضحة وضوح الشمس، وبضدها تتميز الاشياء. كان الجيش العثماني يضم كثيراً من أمثال تحسين وأكثر هؤلاء هم طلاب المدرسة الحربية الحديثة التي كانت تنشئ الشباب كما تبين لي على الفسق والفجور والقسوة والقهر. يدخل الطالب الاناضولي المدرسة وهو الساذج المتدين المخلص ويتخرج مزوداً بكل انواع الرذيلة، يقابل ذلك الضباط القدماء الذين تخرجوا من المدارس الحربية القديمة هؤلاء كانوا على جانب عظيم من التقى والزهد، مخلصون لوطنهم ولأمتهم وقد تميزوا بتمسكهم بالدين وسلامة ضميرهم وعطفهم على الجنود، ومن هذا النوع عثمان بك قائد الفوج الذي سيأتي الكلام عنه وعن بطولته وزهده واخلاصه. دخلنا حلب وآوى الجنود إلى احد المساجد بجوار القلعة والخيل إلى مخازن بجوار المسجد ونزلنا نحن الاربعة في بيت قريب ها انا أنعم بسماع اللغة العربية بعد ان قضيت مقدار سنة ونصف في جو تركي وها انا امتع النظر بقلعة حلب واسواقها ومساجدها ومحلة الجميلة وباب الفرج واستمع إلى منيرة المهدية أم كلثوم ذلك العصر. بعد استراحة

يوم واحد خرجنا إلى التدريب وتخلف جندي واحد في المسجد بسبب مرضه فلم يرق ذلك إلى تحسين وعزّ عليه ان أسمح له بالبقاء من دون مراجعته، فأمره بالخروج، ولما أعلن له عن مرضه انتهره وركله وبقي يركله بحذائه العسكري صاباً عليه أقذع الشتائم القذرة والجندي يتلوى من الألم ويستغيث ويقسم الايمان على صدقه والمجرم تحسين يمعن في تعذيبه وشتمه، ولما لم يجد سبيلاً على حمله للخروج تركه وانصرف، ولدى عودتنا ظهراً عرفنا ان الجندي البائس قد فارق الحياة، فعم الحزن جميع أفراد السرية. فقررنا ان نعلن احتجاجنا على هذا العمل الوحشي فكان جزاؤنا ان أمر بسجننا انا وعثمان أفندي في مئذنة المسجد مدة ساعة ولما خشي تفاقم الأمر بما لمسه من سخط الجنود أمر بإخراجنا وانتهى الامر. وصلتنا اخبار المجاعة في بيروت وجبل لبنان وسمعنا الشيء الكثير عن غلاء فاحش لسعر الخبز وباقي انواع الاغذية وموت الكثير من الاهلين بسبب الجوع. مرَّ بخاطري أهلي سيما والدتي وتمنيت لو استطيع مساعدتهم اذ لا سبيل إلى الوصول اليهم وليس لدي ما اقدمه لهم سوى صندوق التين الذي أتاني هدية في «قرة بينار» بعته في سوق حلب لقاء ليرة ذهبية واحدة واحتفظت بها في الكمر لعلّي استطيع ارسالها اليهم كبزرة خروب. ها نحن نستعد للرحيل بعد ان مكثنا اسبوعاً كاملاً في حلب وقد تخلف عنا تحسين لأنه لم يرتو من مباهج حلب وملاهيها الصاخبة فعهد إليَ بقيادة السرية معلناً انه سوف يدركنا ونحن في الطريق. انني رغم المتاعب والتبعات التي كنت اتحملها في غيابه ولم يك يسيئني تخلفه بل كنت ارحب في بُعْدِهِ بأي ثمن. سار بنا القطار من حلب إلى رياق، هنا حاولت أن أجد من أعهد اليه ارسال الليرة الذهبية فلم أوفق ولا سبيل إلى ترك السرية لأزور بيروت وهي في عهدتي، لا بأس لعلّي استطيع ذلك في دمشق أو بعد بلوغنا المستقر الذي لا يعلمه إلا الله. تابع القطار سيره إلى التكية، وهي محطة ثانوية بعد الزبداني وهنا علمت ان القطار سيتوقف طويلاً ليتزود بالماء فغادرته وقصدت نهر بردى بغية النزهة. كانت المياه عالية تكاد تطغى على حافتيه والحشيش الأخضر يتماوج مع النسمات العليلة ما ارتاحت اليه نفسي، فتهيأ لي ان اضطجع قليلاً من النوم، وإذ أفيق على صوت صافرة القاطرة لأذهب مذعوراً وانطلق القطار لأدركه وفيما انا أعدو شاهدت القاطرة البخارية على رأس العربات متجهة إلى رياق

وليس إلى دمشق، ان القطار الذي أراه آت من دمشق في طريقه إلى رياق وان قطارنا قد غادر المحطة إلى دمشق، وقد زاد في المصيبة أنني تركت سترتي في القطار وليس عليَ من الثياب سوى سروالي والجزمة العالية، فلا دراهم ولا أوراق حتى ولا منديل للجيب. ركبت القطار هذا إلى الزبداني وهي مدينة التجئ اليها خير من أبقى في التكية الجرداء. قصدت إلى السوق في الزبداني علّي أجد من أعرفه وقد أضناني الجوع والبرد سيما وقد علمت ان أول قطار يمر بالزبداني إلى دمشق سيصل بعد بضع ساعات، فكيف وأين أقضي هذه الساعات السوداء. بعد ان برّح بي الجوع تذكرت الليرة الذهبية المدللة فأخرجتها من الكمر الذي كنت متمنطقاً به، ثم عرضتها على الأهلين لصرفها فلم يلبِ طلبي أحد ولم أعلم لذلك سببا. دخلت دكان لحام يشوي لحم الجمال الذي كنت امقته ولم أذق طعمه من قبل، ولما طلبت اليه ان يقدم لي شيئاً آكله سألني اذا كان لدي الخبز، جمدت عند هذا السؤال وسولت لي نفسي ان أصفعه على وجهه، ولما شعر بما تهيأت له أعلن استعداده لشراء الخبز اللازم ورجاني ان أعطيه الدراهم لهذه الغاية فدفعت له الليرة الذهبية وهي أعز ما أملك في ذلك الوقت. وما ان شاهد الليرة حتى ارتعدت فرائصه واستولت عليه الدهشة وأعادها إليَ كأنها مرض معدي، واردف قائلاً: عفواً سيدي إذ لا يوجد من يستطيع صرف ليرة ذهبية فانتهرته وهددته بالضرب اذا هو لم يستجب لطلبي. وفيما انا أهدد وأتوعد إذ بشاب من آل العيتاني يرتدي لباس الدرك يتقدم نحوي ويناديني باسمي فعرفته وقصصت عليه ما جرى فهوّنَ عليَ واصطحبني إلى لحام يبيع لحم الضأن وأتاني بخبز من عنده ولما جلست إلى الاكل أخذ يشرح لي القضية فقال ان الليرة الذهبية لها سعر رسمي يعادل ليرتين ونصف الليرة واما سعرها في السوق السوداء يبلغ ستة ليرات وأكثر. والويل لمن يصرفها بسعر السوق السوداء وانت ضابط كما أرى، فهل يعقل ان يورط نفسه في مشكلة مع الجيش؟ تكرّم العيتاني ودفع ثمن اللحم وعرض علي دراهم أستعين بها لقضاء حاجاتي فشكرت فضله وانصرفت إلى المحطة وانتظرت القطار ولما أتى ركبته وسار بي إلى دمشق يغمرني القلق على السرية يحملها القطار إلى حيث لا أدري والأمل الضعيف بالاجتماع بها وبيننا خمس ساعات. عند محطة القدم في دمشق سألت مأمور المحطة عن قطاري بعد ان أعطيته اوصافه فأجاب ليس

عندي من معلومات إلا أن قطاراً يحمل الرقم..... غادر هذه المحطة منذ ساعتين قاصداً محطة الحجاز، فاندفعت أعدو على الخط الحديد علّي أدركه قبل ان يغادر محطة الحجاز والمسافة تقارب الكيلومترين وما ان بلغتها حتى رأيت قطاراً يتحرك والظلمة تلف المكان وتعيق الرؤية وركضت بكل قوتي لا ألوي على شيء سوى الصعود اليه وبيني وبين آخر عربة بضع خطوات بشق النفس تمكنت من القفز مخاطراً وانا على آخر رمق تمسكت بحاجز الممشى. والآن هل هو قطاري؟

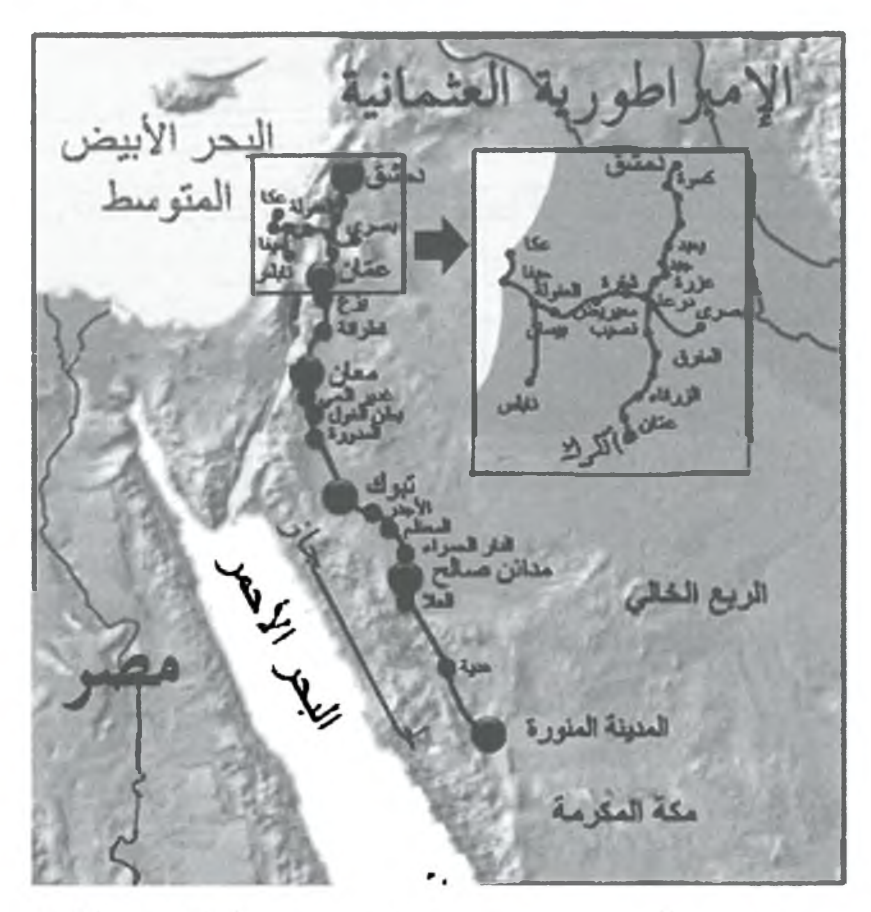


محطة سكة حديد دمشق- الحجاز سنة ١٩١٢

مكثت على الممشى لا أستطيع التقدم إلى العربة الأمامية لأنها هذه كانت مقفلة ولا سبيل إلى اجتيازها لأصل لما بعدها والقطار سائر، فوقفت مكاني مضطراً والوساوس تعصف برأسي والرياح الباردة تعصف بجسدي حتى بلغ القطار المحطة التالية وتقدمت لأجد عربات الخيل وشاهدت الجنود فاطمأنت نفسي وحمدت الله وشيئاً فشيئاً استعدت روعي وهدوئي. قصدت غرفة الضباط فاستقبلني رفاقي وكأنني لم أغب عنهم ظناً منهم أنني نائم في عربة الملابس الدافئة كما سبق لي ان فعلت. كنت أفضل النوم في عربة الملابس

والاسلحة والأمتعة، فأنام على أكداس الحرامات والثياب فأضمن لنفسي نوماً عميقاً من جهة ومن جهة ثانية أشرف على الاسلحة الثمينة المكدسة في الطرف الثاني من العربة نفسها، سار القطار على خط درعا في دجى الليل وكنت نائماً عندما توقف القطار في محطة واتاني جندي يبكي ويتوسل ان آخذه في قطارنا ليدرك قطاره الذي فاته، فهل يعقل ان أرفض طلبه وقد أصبت بما هو أصيب به اليوم نفسه؟ دخل الجندي وأخذ مكاناً بين الاسلحة وعند المحطة التالية خرج لقضاء حاجته كما ادعى ثم عاد إلى مكانه، وعند المحطة التالية خرج ليتبين اذا كانت وحدته معسكرة هناك كما ترجح لديه وهكذا فعل في المحطة التي خرج فيها ولم يعد، فساورتنا الشكوك وتفقدنا السلاح لنكتشف نقصاً في البنادق لا يقل عن تسعة. كان يحمل تحت معطفه في كل مرة ثلاث بنادق يبيعها للبدو في جوار المحطة لقاء ريالين أو ثلاثة للبندقية الواحدة، كانت الظلمة حالكة ولا ضوء نستنير به، فكان السارق يتهز هذا الوضع فيخرج بصيده من دون ان نراه. كتمنا هذا الحادث عن تحسين لأنه لا شك سوف يستثمره في إخضاعي إلى سلطانه أو ليجعل منه قميص عثمان أو على الأقل ليضمن التعادل بيني وبينه. لقد تركت أمر هذا النقص في البنادق إلى الأيام لعل الله يهيء لنا منه مخرجا.

تابع القطار سيره إلى عمان حيث وجدنا تحسين في انتظارنا فانضم الينا وتابعنا السير إلى القطرانة* على خط الحجاز، ومنها سرنا مشياً إلى الكرك في أرض موحشة مدة ١٢ ساعة فبلغناها ليلاً وعسكرنا في مدرسة الكرك الكبيرة وقد اتخذ منها الجيش ثكنة لضخامتها وملاءمتها لعدد الجنود.



خط سكة الحجاز. يستغرق قطار دمشق -الحجاز للوصول إلى المدينة المنورة ٧٢ ساعة من دون توقف في ذلك الوقت، أنشئ الخط لايصال القوات العسكرية وضبط الشؤون الادارية السياسية وتسهيل خدمة الحجاج لتأدية فريضة الحج، كان لهذا الأمر أهمية سياسية ادارية ثقافية اقتصادية لبلاد الشام وداخل شبه الجزيرة العربية. بدئ بالمشروع عام ١٩٠٠ ودشن عام ١٩٠٨ سابقاً كان يستغرق وصول الحاج من دمشق إلى المدينة ٤٥ يوماً مشياً إذا لم يسلب، أو يُقتل من بدو مسلمين.



مدينة الكرك ١٩١٨

شهر في الكرك وضواحيها

اتخذ تحسين لنفسه غرفة ممتازة وخصص للضباط غرفة واحدة وللجنود بضع غرف وبقيت الحيوانات والعربات في العراء. لقد سبقنا إلى هنا فوجنا بقيادة المقدم عثمان بك وكان يتظرنا بفارغ الصبر لخطورة المهمة التي ألقيت على الفوج، وهو يعتمد على الرشاش وعليَ بصورة خاصة. أخبرني ان الفوج مكلف بإخماد أي ثورة من جانب أهل الكرك وضواحيها وصد أي هجوم تقوم به القبائل العربية في تلك المنطقة. لقد أصبح العرب بعد انتفاضة الشريف حسين على الدولة العثمانية أعداء لا يؤمن جانبهم. الكرك قرية كبيرة ولها شهرة تاريخية، بيوتها كانت صغيرة وطرقها ضيقة قذرة وأهلها بدو فقراء جداً، ليس لهم عهد أو ميثاق، وفوق ذلك كانت تطغى في أرجاء القرية الروائح الكريهة التي لم نقْوَ على احتمالها. والثمر الوحيد الذي كنا نجده هو التين المجفف ويسمونه قطين،



بدو كركيون مسلحون

وكان من القذارة بحيث لم نستطع أكله على الرغم من حاجتنا الماسة إلى الفاكهة والحلوى. لقد خبرت الرشاش وبرعت في استعماله ودربت بضعة أفواج على استعماله واطلقت مئات الرصاصات، فمتى استطيع ان أضع خبرتي موضع العمل المثمر؟ ها قد سنحت الفرصة اذ

بينما نحن في الثكنة سمعنا هدير طائرات في الجو فهرعنا إلى الرشاشات واتخذنا من دولاب إحدى العربات قاعدة للرشاش بحيث وضعناه في حفرة وثبتناه عليها بإحكام لنتمكن من توجيهه إلى الفضاء وتحريكه دائرياً على محور الدولاب نحو جميع الجهات. وعلى مسافة قريبة من الارض حلقت طائرتان انكليزيتان متجهتين إلى عمان لعلمهم ان الناحية التي نحن فيها لا توجد فيها وسائل دفاع جوية ففوجئتا بنار رشاشاتنا



جنود عثمانيون يوجهون الرشاش نحو الطائرات وإمكانية إدارته ٣٦٠ درجة على محور(اكس)دولاب العربة، هذا الأسلوب استخدمته كل القوى المتحاربة في كل الجبهات

منطلقاً من فوهات رشاشاتنا الأربعة في وقت واحد نحو الطائرتان اللتان مرتا من دون اصابتهما، وتهيأ لنا اننا فشلنا في محاولتنا، وبعد دقائق عادتا في هبوط لولبي نحو الوادي السحيق تحت الكرك الأمر الذي أكد لنا ان إحدى الطائرتين قد أصيبت وان الثانية تتعقبها لإنقاذ ملاحيها. هرع الجنود إلى الوادي يتسابقون لاقتسام الغنيمة فلم أجد سبيلاً إلى صدهم إلا ان أركب جوادي وألحق بهم خشية ان يمسوا الملاحين بسوء. تمكنت من السيطرة على الموقف وأمرت الجنود بالتوقف حيث كانوا. حطت الطائرتان على الأرض وغادر ملاحي

الطائرة المصابة بعد تفخيخها فأنفجرت محدثةً دوياً هائلاً في ذلك الوادي ثم هرعا إلى الطائرة الثانية السليمة وأخذا مكانا فيها. لحقنا بهم لنمنعهم من الهرب والتحليق بها، وحاولوا الإقلاع لكن من دون جدوى بسبب ان عجلات الطائرة كانت غارقة بالوحل، اوقف ملاحها المحرك وفيما نحن نحاول الوصول اليهم كانوا خرجوا من الطائرة وفجروها واحتموا وراء صخرة للدفاع عن انفسهم. لحظتها أعلنت لهم بأن لا خوف عليهم ان هم استسلموا وان حياتهم في أمان من أي اعتداء أو أذى. لقد استولى الخوف عليهم ودخل في روعهم انهم مقتولون لا محيص، وكم كان سرورهم عندما شاهدوا العطف والتقدير يصدر عن الأتراك المتوحشين حسب زعمهم. أرسلت بطلب أربع أحصنة ومكثت أتحدث اليهم وأهدئ من روعهم والجنود يشهدون أموراً لا عهد لهم بها وأكثر ما استرعى انتباههم أنني أخاطبهم بالانكليزية ولأنهم لم يكونوا ليتصوروا ان جندياً أو ضابطاً في الجيش العثماني يتكلم اللغة الأنكليزية والفرنسية والعربية إلى جانب التركية. أقبلت الخيل فركبوا وسرنا تتقدمنا الجنود وكان استعراضاً رائعاً. لم يفت البعض من الجنود ان ينقبوا في بقايا الطائرتين علّهم يجدوا ما يستفيدوا منه، لذلك حذرتهم من المتفجرات ولم اعترض سبيلهم التي لا تخلو طائرة منها. كان عثمان بك آمر الفوج يراقبنا بمنظاره وينتظر وصولنا بفارغ الصبر، وما ان تقدمت اليه وقدمته اليهم وتبادلوا التحيات بالمصافحة والابتسامات الرقيقة، دعانا إلى غرفته وأمر بإعداد مائدة غنية حوت كثيراً من المأكولات مع ان البسكويت والمربى والزبدة كانت مفقودة من لائحة الإعاشة في تلك الديار، فقد وضع منها الشيء الكثير على المائدة ولا غرو في ذلك فقد أرسلت في طلب ما سلبه الجنود من هذه الاطعمة عند تفتيشهم الطائرتين، واعتقد ان الأسرى لم يخطر ببالهم انهم كانوا يأكلون من مؤونتهم. تحدثنا طويلاً وفي مواضيع كثيرة وكنت أقوم بالترجمة وقال أحد الملاحين الأسرى انه كان على يقين من خلو الكرك من المدافع الرشاشة ولم يخطر على باله ان الرشاش يستطيع ان يلحق بهم أي أذى لأنه ليس لدى جيشنا القاعدة التي توجهه إلى الجو وهو يعجب كيف أتتنا تلك الفكرة في استخدام الدولاب لهذه الغاية. ثم أضاف اتمنى لو أستطيع الاتصال بالقيادة الانكليزية لأدلهم على هذه الطريقة المبتكرة. أما سبب سقوط الطائرتين فكان ان الرصاص أصاب

خزان الوقود في الأولى فاضطرت إلى الهبوط فوراً وقد تبعتها الثانية لإنقاذ الملاحين من الأسر أو القتل، هذه كانت تعليمات قيادتهم ولما لم يساعدهم الحظ دمروا الطائرتين حسب التعليمات أيضاً. ولما انتهينا من الطعام كانت عربة الشحن طبعاً جاهزة وقد وضع في أرضها أربعة مقاعد، فشيعناهم وأُخذوا إلى دمشق. لقد أعجب آمر الفوج بمعرفتي اللغة الانكليزية وأثنى على حسن تصرفي في ذلك الحادث(اصابة الطائرة- انقاذ الأسرى) فأمر بالكتابة إلى استانبول يقترح منحي وسام التضحية(فدا كارلك) فشكرت له عطفه وأردفت قائلاً لو أنهم يرسلون أوراق ترقيتي الضائعة خير من عشرة أوسمة، فوعدني بالكتابة في ذلك أيضاً. أما تحسين فكان في شغل عن كل ما جرى منغمساً في ملذاته كما هي عادته، ولما بلغه ما حصل غضب وكاد الحسد يأكل قلبه وكان يود بجدع الأنف لو يحصل هو على شرف إسقاط الطائرتين وأسر طياريها وشرف الترجمة والتحدث إلى الأسرى. انني اتعمد الحديث عن **هذا الضابط تحسين لأن على شاكلته يوجد عدد كبير من الضباط في الجيش العثماني، فهم كانوا العامل الأول في تحطيم هذا الجيش وقتل الروح المعنوية في أفراده.** حمدت الله تعالى ان سجلت نصراً مبيناً في فاتحة أعمالي الحربية وتردد اسمي على ألسنة كبار القادة في تلك الربوع. صدر الأمر إلى فوجنا بالخروج إلى الطفيلة لإستردادها من الانكليز والعرب، فنفرنا خفافاً وتركنا الأثقال في الكرك، كانت الطفيلة على مسير يوم كامل. هذه أول فرصة أتيحت لي في دخول ساحة الحرب. اندفع الجنود إلى البيوت يعملون فيها نهباً وتخريباً وقد سمعنا صوت الزجاج والآنية الصينية تتحطم ونحن في مكاننا خارج المدينة. لم يكن في وسعي كبح جماح الجنود فقد شجعهم بعض الضباط المجردين من الانسانية والرحمة، وقائد الفوج عثمان بك هو المسؤول الأول لغضه الطرف فخرج الجنود حاملين ما خف حمله وغلا ثمنه وتحسين خرج بسبعة أكياس تنباك تحملها بغال لبيعها في الكرك وفي عودتنا إلى الكرك صدر الأمر في بقاء نصف سريتنا في قرية عند منتصف الطريق تسمى «جعفر كوى» بقيادتي وبقي عثمان بك وسرية المشاة مهمتها النظام والارهاب في تلك القرية وما جاورها. أوينا إلى بيوت القرية الحقيرة وبقينا فيها بضعة أيام اطلعت خلالها على حياة أهل القرية وشيء من عاداتهم فشاهدت رجال البدو يجلسون أكثر النهار عند شيخ القرية يشربون

ويدخنون ولا يتكلمون إلا قليلاً ونساؤهم منهمكات في أعمال المنزل وإعداد الطعام والعناية بالمواشي والخيل والاطفال وصنع الجبن ثم غزل الخيوط وفي وقت الفراغ تنسجها. وكلما عنَّ للرجال الخروج أصدروا أمرهم إلى النساء فتجلب كل واحدة لزوجها حصانه وتمسك له بركابه فينطلقون إلى المعسكر الانكليزي بين هتاف كله رياء وحداء منكر بغيض وهناك يأكلون ما يقدمه لهم المطبخ ويقبضون بضعة ريالات ثم يعودون إلى مقر عثمان بك منادين يا بيش يا بيش الانكليز في المكان الفلاني وعددهم كذا وسلاحهم كذا، وهكذا يدلون بمعلومات يعرف عثمان بك مقدار صحتها ويعلم انهم وبالطريقة نفسها يدلون \ للانكليز بكلام مشابه عن الجيش التركي ومع ذلك فهو يعطي لكل منهم ريالين ويقدم لهم الخبز والطعام ثم ينصرفون إلى بيت الشيخ ليعيدوا تمثيل الرواية نفسها في اليوم التالي. لم أرَ في عمري أشقى من تلك المرأة وأكثر خمولاً من ذلك الرجل، وهذا ما حملني على الاعتقاد بأن لا خير يرجى من هؤلاء البدو ولا شر يخشى وان الترك والانكليز كانا يتنافسان على كسب مودتهم من دون جدوى. أوينا إلى فراشنا والسماء تنذر بعاصفة شديدة، أتى الليل وأمطرت السماء مدراراً وعصفت رياح باردة أقضت مضاجعنا وقبل ان ينبلج الفجر أتانا نذير ينبئنا بوجود عدد من الجنود العثمانيين على بعد عشرة دقائق من القرية في حالة يرثى لها. فانطلقت وتبعني رجالي واذا بنا نغوص في الوحل إلى الركب، فالارض صلصالية عملت الامطار فيها عملها فأدركنا هؤلاء البائسين بشق الأنفس لقد شاهدناهم ويالهول ذلك المشهد، عشرات ممددين على الأرض وقد فارقوا الحياة وهم في أوضاع مختلفة، ومنهم ما وجدناه ممدداً على الأرض وراء صخرة يدرأ بها الرياح الباردة ومنهم من تجمعوا على بعضهم ليتعاونوا على تخفيف وطأة البرد القاتل فماتوا جماعة وظلوا مكدسين كتلة من الأجساد البشرية ومنهم من غاص نصفهم بالوحل والنصف الآخر تحت رحمة الريح البارد. وجدنا بينهم من كان فيه رمق حياة فسارعنا إلى نقله إلى القرية ثم تابعنا إرسال الأحياء إلى القرية إلى ان صادفتنا مجموعة كبيرة منهم قد تجمعوا إلى بعضهم وتواروا تحت خيمة كبيرة نشروها واعتصموا بها فألفيناهم في حالة حسنة تمكنهم من متابعة السير وعددهم نحو الثلاثين. كان بينهم آمر الفوج العراقي وجندي من بيروت يدعى ابراهيم المدور الذي كان

شريكاً لأخي عمر في تجارته. أكملنا عملية الانقاذ إلى ان تم لنا نقل جميع الأحياء وقد زاد عدد الموتى على الخمسين. هدمنا أحد البيوت لنتخذ من خشب السقف وقوداً للتدفئة يصطلي بها المنكوبين وطلبت إلى كل جندي من جنودنا ان يقدم نصف رغيفه إلى أحد الجائعين ليسد به رمقه وأعطيت إلى شريكنا ابراهيم المدور حصتي من الخبز واستبدلت ردائي بردائه المبلل وكان من النوع النمسوي الممتاز، على ان نتبادلهما في لقاءٍ ثان، ولكن للأسف تم ذلك في بيروت. وانتهت عملية الانقاذ وأمّنا الجنود على حياتهم أمرني عثمان بك ان أقوم بعملية دفن الموتى. مهمة لم تخطر على بالي على الرغم من تنوع المهام التي قمت بها في حياتي العسكرية وتعددها. كلفت بعض الجنود وزودتهم بالمعاول والرفوش وتوجهنا إلى مكان الكارثة وقد هدأت ثورة الطبيعة وأشرقت الشمس وأخذنا نحضر لكل بضعة موتى حفرة واحدة تضمهم معاً. بينما انا أراقب العمل لفتني ان الجندي الذي وضع قبل قليل صدره يعلو ويهبط معنى ذلك انه حي فاعترتني رعشة وتملكني الخوف وأغميَ علي لبرهة ولم ثبت إلى رشدي لمت نفسي على هذا الخوف، الذي لا معنى له وأنا أقوم على دفن عدد كبير من الموتى من دون أن يترك ذلك العمل أي أثر في نفسي. حزمت أمري على الثبات وأمرت بإخراج جثة الجندي من الحفرة وأخذت ألطم وجهه ففتح عينيه وبدت منه حركات ضعيفة، فتابعت بمعونة الجنود عملية الاسعاف من تدليك وتنفس اصطناعي حتى عاد اليه وعيه وعاد إلى عالم الأحياء. لهذا طلبت إلى الجنود إخراج كل الجثث التي وضعناها في الحفر(القبور) وقمت أتفحصهم واحداً واحداً بدقة ولم ندفن أحد إلا بعد ان استوثقنا من وفاته، وهكذا ضمنا لنفسنا راحة الضمير والطمأنينة. عدنا إلى الكرك لنقضي بها الأيام الباقية من الشهر، وفي اثناء إقامتنا قمت برحلة إلى القطرانة مع بعض الجنود لتسلم أرزاق السرية، وفي طريق عودتنا شاهدنا عند منتصف الطريق جنديين قادمين من ناحية الكرك ففاجأني أحدهما بقوله: سيدي نحن مرسلان بمهمة إلى القطرانة، وفي طريقنا صادفنا نفراً من قاطعي الطرق فسلبوا منا السلاح والدواب وما نملكه من الدراهم والأفضل ان تعودوا ادراجكم في هذا الليل لئلا يصيبكم ما أصابنا. لم يخطر ببالي انهما فاران وانهما اختلقا هذه الرواية لتشغلنا عن التحقق منهما. حقا كانا بارعان بحيث أنطلت علينا الحيلة

ترددت بادئ الأمر ثم تغلبت الشهامة العسكرية فتركتهما وشأنهما وأمرت بمتابعة المسير وكان الليل قد انقضى أكثره فاتخذت التدابير العسكرية التي تعلمتها لمثل هذه الحالات فأمرت الرقيب ان يتقدمنا مع أحد الجنود مقدار ٥٠ مترا والبنادق مشرعة في يديهما وهذه تسمى المقدمة ومشى جندي على بعد خمسين مترا عن يسارنا وآخر عن يميننا وهذان يشكلان الميمنة والميسرة وبقيت انا مع جندي آخر وهذه تسمى القلب، وهكذا سرنا في الظلام الحالك بحذر أكثر من ساعة. وقبيل انبلاج الفجر لاحت للمقدمة حركة عن بعد فأعطيت إشارة الحذر وتابعنا المسير وأعيننا مسمرة على النقطة المشار اليها وكلما تقدمنا ظهرت لنا الأشباح أكثر وضوحاً إلى ان تأكد لنا وجود رجل كان يظهر ويتوارى وراء كومة الحجارة، فأخذنا التأهب بانتظار أمر إطلاق النار. وأخيراً تبيناه عجلاً تائهاً في البراري يرعى الحشيش ويمشي كما يطيب له غير مكترث بما جرى لنا من إضطراب وخوف. فأعطيت الأمر بمحاصرة العجل والقبض عليه حياً فكلفنا ذلك عذاب ساعة كاملة بين كر وفر، وأخيراً تم لنا النصر فقبضنا عليه وسقناه صاغراً. تبين ان هذا العجل قد تفلت من قطيع إحدى الوحدات العسكرية التي سبقتنا وان رواية قطع الطريق كانت من نسج خيال الجنديين الفارين. بلغنا الكرك عند الضحى فقدمت العجل إلى جنود السرية هدية لهم وهو يزن أكثر من ١٠٠ كيلوغرام لينعموا بطعام وافر دسم في ذلك اليوم واحتفظت بالكبد وتوابعه للضباط فتمزق تحسين غيظاً لهذا التدبير السخيف إذ كان علينا ان نحتفظ بالعجل للضباط وحدهم وثارت ثائرته واتصل ذلك بالجند وكاد ان ينال مني لو لم يكن للجند ضلع في الموضوع، سيما وهم ذبحوا العجل وباشروا بطبخه واعدين بطونهم بطعام غني لذيذ لم يتح ولن يتاح لأحدهم مدة خدمته في الجيش مثله، ولو ان تحسيناً حاول انتزاعه منهم لانتزعوا روحه، إذ عند البطون تضيع العقول، لذلك لم اك غبياً عندما قدمته للجنود قبل ان يطلع تحسين على أمره، بل قبل ان يراه أو يرانا، وقد ربحت المعركة. بعد بضعة أيام من حادث العجل جاءني زميلي عثمان أفندي وقال لي وهو يثق كل الثقة بي، لقد أجمعنا على الفرار إلى الانكليز انا والرقيب الأول حسين والرقيب محمود وجنديان آخران، وانا أطلعك على هذا لاعتقادي انك تشاركنا هذه المجازفة ونحن أحوج ما نكون اليك كونك تجيد اللغة الانكليزية، وربما

كان لك حظ أوفر مع الانكليز والعرب. بعد تفكير طويل ترددت وأعلنت له موافقتي، سيما وقد جاء هذا الاقتراح في وقت بلغ بيَّ السأم فيه منتهاه من ذلك الطاغية وتعسفه وجوره وتنصيبه آمراً عليَ ظلماً وعدواناً على الرغم من جهله في حقل الرشاش ولا ذنب لي في ذلك سوى انني عربي، والذي زاد في نقمتي ضياع أوراق ترقيتي التي حاولت العثور عليها مدة ثمانية أشهر من دون فائدة، ولو أنني وصلت إلى حقي في الترقية لأصبحت آمر السرية فوراً ومن دون من دون منازع، لقد تكسرت النصال على النصال وقررت الفرار مهما كانت النتيجة. والجدير ذكره في هذه المناسبة ان استعرض حوادث الاعدام الرهيبة التي كانت تنفذ في ساحة قيادة الفرقة والتي كان ضحيتها الجنود والضباط الذين أُكتشفوا وهم يحاولون الفرار إلى العدو في المدة التي قضيناها في الكرك، كانت القيادة كل فترة تفاجئنا باعدام عدد من الجنود رمياً بالرصاص لمحاولتهم الفرار، وكانت ترسل في طلب عشرة جنود من كل سرية ليشاهدوا عملية الاعدام، وقد شهدت بنفسي إعدام خمساً وعشرين جندياً وضابطاً دفعة واحدة. على الرغم من ذلك عزمنا على الفرار وعقدنا جلسة رسمنا فيها الخطة، فنظمت جدول الحراسة الليلية وجعلت دور الجنديين والرقيب محمود في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وأخذنا الحيطة الكافية حسب زعمنا لإخفاء هذه المحاولة عن بقية الجنود، كان تحسين غائباً عن الثكنة بعد ظهر اليوم وعند المغيب حضر وشاهدت الرقيب الأول حسين يدخل غرفة تحسين، فساورتني الشكوك والمخاوف وألهمت انه انما دخل للوشاية بنا. لقد أصبح الموقف حرجاً كل الحرج ما يتطلب أعصاباً قوية وتفكيراً صحيحاً وسرعة متناهية في العمل. طلبت إلى زميلي عثمان أفندي أن يأتيني بالعصبة كلها إلى غرفتي ولما حضروا أعلنت لهم ما جرى وطلبت إليهم ان يفترضوا النتيجة السيئة من اجتماع حسين إلى تحسين وان نتدبر أمرنا لمجابهة تلك النتيجة. ثم سردت عليهم نص الإفادة التي يجب ان يدلي بها كلٍ منهم إذا صحَّ ما افترضته وهي: في الساعة الواحدة ظهراً جاء الرقيب حسين إلى الرقيب محمود في الطرف الشمالي من الممر وأقنعه بمشاركته في الفرار، فاتصل الرقيب محمود بنا فوراً في الغرفة وطلب منا متابعة رواية الفرار، فبعد السعي إلى إستدراج غيره والأفضل يستدرج عثمان أفندي وبعده عبدالله أفندي فهما شديدا النقمة على تحسين وعلى

الحياة في السرية، فاتصل الرقيب الأول حسين بالجنديين وأغراهما بحضور الرقيب محمود ثم قصدا إلى عثمان أفندي الذي تظاهر باستعداده للموافقة ووعده بمحاولة إقناعي ثم حضر إلى غرفتي بصحبة الرقيب محمود لهذه الغاية حسب اعتقاد حسين وهنا قصّا عليَ الحادث كما طلبت اليهم متابعة العمل إلى ان يأتي موعد الفرار فنقبض عليه بالجرم المشهود بعد ان نكون قد أطلعنا آمر السرية على التفاصيل طبعاً، وها نحن بانتظار عودتك لنطلعك على ما جرى. وهكذا فصّلت لكل منهم الافادة التي يجب ان يدلي بها وحرصت على تعيين الزمان والمكان ووضع كل من المتحادثين أثناء الحديث، ولما ضمنت لكل منهم اتقان دوره في هذه الإفادة حررت تقريراً خطياً بالواقع، وما ان خرج حسين من عملية الوشاية حتى دخلت غرفة تحسين فوجدته قد امتقع لونه وظهرت على وجهه علامات الظفر بالفريسة وشهوة الانتقام، فحدجني بعينيه وقال: نعم عبدالله أفندي ماذا جرى؟ حقاً انه لموقف رهيب، انه صراع مرير بيني وبين مجرم يتعطش للانتقام مني وقد وجدها اليوم، (وعلا وجهي ابتسامة ساخرة كأني أقول له أغبي أنت لهذه الدرجة حتى تنطلي عليَك حيل هذا اللئيم) ثم دفعت اليه التقرير وقبل ان يلقي عليه نظرة طلب مني ان أدلي بافادتي، فأجبته هذه افادتي مدونة على الورق ومذيلة بتوقيعي وليس عندي ما أقول علاوة على المدون. قرأ التقرير وهو يغلي غيظاً ويود لو يروي ظمأه بكأس من دمي، لكن حينما أتى على آخره شاهدت تبدلاً في موقفه وظهرت عليه امارات التردد، فطلب إلي ان أجلس ونادى على ابن بلده عثمان أفندي وكان له فيه شيئاً من الثقة، فأدلى بإفادته كما تلقنها وأضاف قائلاً: عندما أخبرنا الرقيب محمود عن الحادث كان بوده ان يلقي القبض على الرقيب الأول حسين لكنني اقترحت عليه ان يقبض عليه بالجرم المشهود حتى لا يترك له مجال للنكران. بدأ تحسين يتراجع ويتخاذل إثر الإفادة التي سمعها من ابن بلده ثم نادى على الجنديين فأدليا بإفادتهما كما تلقناها بالحرف، وأخيراً طلب الرقيب محمود وهذا قص عليه الحادثة من ألفها إلى يائها بما لا يترك مجالاً للشك في ان المحاولة كانت من قبل حسين وحده وان الشركاء لم يكونوا سوى وسطاء يسيرهم وكيل القائد للقبض على حسين بالجرم. عندها لم يستطع تحسين إلا ان يعترف ان الرقيب حسين قد تمكن من خداعه وانه تسرع بالحكم. فاجابه عثمان أفندي ان حسين إما ان يكون اكتشف اننا كنا نخدعه وهذا هو المرجع وحاول إلصاق التهمة بنا ويثبت براءته واخلاصه وإما ان

يكون من اللؤم والغدر بحيث دبّر هذه المؤامرة ليشي بنا حتى يحظى بعطفك ويشبع ناظريه بمشاهدة اعدامنا. بعد ان تم تسجيل افادتنا أرسل بطلب حسين فدخل يرتعش خوفاً وقد شعر بفشل تدبيره. فبسطه الجنود أرضاً وأخذ تحسين يهوي عليه بالسوط وحسين يستغيث ولا يغاث، مشهد تفتت له الأكباد، حاولت ان أخفف عنه من دون جدوى. بعد ان سالت دماؤه وروى تحسين ظمأه أمر بنقله إلى السجن ريثما يدون تقريره بهذه القضية ليبعث به إلى المجلس العسكري، لقد تم لنا الفوز، وكنت اسأل نفسي هل كان في تصرفي ما يتنافى مع الشهامة والحق؟ وهل أسأت إلى ذلك الرجل؟ ألم يكن في عمله خيانة؟ هل يجوز ان يعدم خمسة أشخاص لينجو واحد خان العهد وكاد يبعث بنخبة السرية إلى ساحة الاعدام؟ نعم كان تصرفي عادلاً وحكيماً وكان ضميري مرتاحاً لِما انتهينا اليه ولو كان في إعدام ذلك الخائن، لكني أردت ان أتمادى في إراحة ضميري فسعيت بمساعدة زميلي عثمان أفندي لدى تحسين إلى تمزيق ذلك التقرير ولو كلفني كثيراً من إراقة ماء الوجه، فذهبت بصاحبنا الظنون شتى الاتجاهات، اولها اخشى ان يقوم المجلس بتحقيق دقيق فتنقلب الآية ونُدان جميعاً، وثانيهما انني أسعى إلى انقاذه بدافع الرابطة العنصرية فحسين من دمشق. وأخيراً نزل عند رغبتنا ومزق التقارير جميعها وطلب مني ان آتي بحسين من السجن بنفسي ولم وقعت العين على العين جرى التفاهم بيننا من دون ان يقول احدنا للآخر كلمة واحدة، وكأني به يقول نعم أنا المخطئ فمعذرة عما بدر مني وشكراً لسعيك لإنقاذي من الموت. لقد مرَّ على وجودنا في الكرك ما يقارب الشهر وكان لا بد لنا من الاشتراك في حرب قانونية طويلة الأمد لذلك كان لا بد من استكمال عدد الجنود في السرية وهو ١١٠ وسدّ النقص الحاصل بسبب المرض أو الفرار فطلبنا إلى القيادة في الكرك إمدادنا بـ ٢٥ جندي وهذه أصدرت أمرها إلى فوج المشاة في الثكنة تسليمنا العدد المطلوب، فجرى التسليم واكتملت السرية. من المعلوم ان سرية الرشاش لا تستطيع الاستغناء عن جندي واحد لأن الطاقم محدّد ولكل جندي فيه دوره ووظيفته وكل عنصر متمّم للآخرين في ذلك الجهاز. وعكس ذلك في المشاة اذ ان الجندي الواحد يستطيع بمفرده القيام بدور مستقل. أما الملابس فكانت لا بأس بها إلى يومنا هذا وقد نفد كل ما كان عندنا في المخزن من ملابس احتياطية والطعام كان مؤمناً وكافياً إلى آخر أيامنا في الكرك.



مدينة عمان والمدرج الروماني سنة ١٩١٨

صدرت الأوامر بالسفر إلى عمان على جناح السرعة، وكان علينا ان نتوجه فوراً إلى القطرانة حيث ينتظرنا القطار ليقلنا إلى عمان. فشددنا الرحال وانتظمنا للسير مغادرين إلى الكرك قبل شروق الشمس، لكن عند آخر لحظة تبين ان الجنود الذين ضمنتهم للسرية مفقودين، لقد تواروا ريثما نغادر الثكنة. صعب الأمر عندي فقررت القبض عليهم جميعاً ورسمت الخطة لهذه الغاية وطلبت إلى تحسين ان يتابع السير بالسرية وبقيت مع الرقيب محمود وجنديين في كهف خارج المدينة مدة نصف ساعة تقريباً لاستيقن من أن الجنود المتوارين قد اطمأنوا إلى ابتعاد السرية عن الكرك وعادوا إلى الثكنة لينضموا إلى رفاقهم الاقدمين، وبسرعة خاطفة هاجمت الثكنة ووضعت حارساً عند الباب الشمالي وآخر عند الباب الجنوبي ثم دخلت الثكنة مع الرقيب إلى غرفة آمر الفوج الذي تم إكمال النقص من جنوده وعرضت الأمر فاعتذر وأجابني: فتش وخذ معك كل من يقع في يدك، ففتشت الغرف جميعها وقبضت على الكثير منهم وكانوا قد تفننوا بالتخفي والاختباء ما أضحكني كثيراً. ثم

قصدت إلى خارج المدينة لأجد قسماً آخر قد لجأ إلى كهف تحت الجبل له مخرجان واحد من الشمال والآخر من الجنوب فأخذت الحيطة وقبضت على اثنين في أعلى المئذنة وثلاثة في أحد البيوت، ولما تم لي الفوز في جمعهم كلهم سقتهم أمامي وأسرعت في السير حتى أدركت السرية. سُرّ تحسين لنجاحي في إعادة هؤلاء ورجوته ان لا يمسهم بسوء لأنه لم يك لهم ذنب إلا أنهم فضلوا البقاء مع رفاقهم القدامى الذين ألفوهم وقضوا مدة طويلة معاً. تابعنا السير طيلة ذلك النهار فبلغنا القطرانة عند المغيب ووجدنا القطار بانتظارنا. سار بنا القطار ليلاً إلى عمان، وهنا طلب الينا أحد الضباط بترك القطار والتوجه إلى القرية بسائر معداتنا. نحن نجهل مصيرنا ونجهل ما يجري وليس علينا الا تنفيذ الأوامر، قبيل الفجر كنا في طريقنا إلى عمان، وكانت يومئذٍ قرية لا يزيد عدد سكانها على بضعة آلاف يسكنون في بيوت متواضعة ويرتدون ملابس البدو. مررنا بمدرج روماني عند سفح الجبل ولكننا لم نأبه له ولم يك عندنا الوقت لإلقاء نظرة عليه. استبقانا ضابط اركان حرب الفرقة الـ ٥٩ التي عهد اليها بالدفاع عن عمان وصدّ الهجوم الانكليزي، وكان هذا الضابط غاية في اللطف والنشاط، فرحب بنا وأسرف في تشجيعنا، وما قاله ان الفرقة تعتمد على سريتكم كل الاعتماد فهي السرية الوحيدة المجهزة بالرشاشات، فعليكم ان تحققوا ظن القائد عاصم بك بكم، فاتركوا اثقالكم في بيوت القرية واصعدوا هذا الجبل بما امكنكم نقله من سلاح وذخيرة وكونوا مستعدين للقاء العدو واصلوه ناراً حامية، استودعكم الله. جرى احتلال بعض البيوت وآوينا الدواب والعربات فيها وبقية الاثقال، ثم حملنا ما استطعنا حمله وقصدنا إلى الجبل الرابض عند الجهة الشمالية من عمان والمشرف عليها وعلى السهول المنبسطة امامها. كان الجبل شديد الانحدار. نحن لم نسلك الطريق المؤدي إلى قمته لأن الظلمة منعت الاهتداء إليه. كنت أحمل صندوقين من الخرطوش لا يقل وزنهما عن العشرين كلغ شأني كشأن بقية الجنود وأجاهد في تسلق الجبل العالي واستحث الجنود على التسلق واستنهض هممهم حتى بلغنا القمة، وهناك أربع روابي توفرت فيها الشروط الفنية. حسب المعلومات التي تلقيتها وأمرت بنصب الرشاشات عليها ثم بناء متراس حول كل رشاش ليقي طاقمه رصاص العدو وأخذ كل فرد مكانه استعداداً للعمل، وخلف كل رشاش جندي رامي ماهر مستعداً

لإطلاق النار وجندي ثان ينبطح أو جالس إلى يمين الرامي ليساعد على تمرير شريط الرصاص، وثالث منبطح أو جالس ليسار الرامي ليملأ طرف(براد) الرشاش بالماء لتبريد سبطانته ويخفف سخونتها، ورابع وهو آمر الرشاش ويكون في الغالب رقيباً يقف أو ينبطح وراء الرامي ويده على ظهره ليبلغه الأوامر التي يتلقاها من آمر السرية بإشارات يرسمها على ظهره لأن الصوت(الأوامر- التعليمات) لا تسمعه الأذن أثناء لعلعة الرصاص، ولكل رشاش (طاقمه) عدد من الجنود يعملون في تعبئة الاشرطة الفارغة بآلة خاصة ونقلها إلى خط النار ونقل صناديق الماء، أما بقية جنود السرية يعتنون بالخيل وخدمة المطبخ وغير ذلك من شؤون السرية.



طاقم الرشاش عثماني في وضعية الجلوس



طواقم جنود عثمانيـين ورشاشات

هذا أول يوم نخوض فيه معركة حربية حقيقية أطبق فيها الدروس والأعمال التي تتطلبها مهام سرية الرشاش في الدفاع والكمائن فلا غرو اذا خالج قلبي كثير من الرهبة والخوف مع انني تظاهرت بالشجاعة واللامبالاة وتمكني من الموقف أمام جنودي الذين هم أكثر مني تمرساً بالحرب سيما وهم من مواطني الاناضول المشهورين ببأسهم واستخفافهم بالموت. عند الضحى أطلت علينا طلائع الجيش التركي المهزوم قادمةً من جهة السلط وكانت في حالة يرثى لها، ما دفع القيادة ان تجمعهم وتؤلف منهم وحدات ومجموعات وتبعث بهم إلى التلال المجاورة ليشتركوا في صد الهجوم والدفاع عن عمان. تبين لنا ان عدد الجنود في عمان كان في ذلك الوقت قليلاً جداً على الرغم من وجود قيادة الفرقة ٥٩ فيها، ذلك لأن وحدات هذه الفرقة لم تصل بعد وهي في طريقها الينا، لذلك حشدت القيادة كل جندي وقع تحت يدها للعمل ريثما تصل الوحدات التي طلبتها على جناح السرعة من كل حدب وصوب. عند الظهيرة شاهدنا الاستراليين والهنود يتعقبون جنودنا ويطاردونهم وقد خلا لهم الجو ولم يحسبوا لأحد حساباً وكل اعتقادهم ان عمان خالية من الحامية. فتركناهم يتقدمون حتى أصبحوا على مسافة ٦٠٠ متر من مواقعنا ففاجأناهم بالرشاشات الأربعة

تقذف حممها، أطلقنا ٢٤٠٠ رصاصة في الدقيقة الواحدة فنفروا كما ينفر الغنم من الذئب ولجأوا إلى التلال المقابلة بعد ان تركوا كثيراً من الضحايا وأخذ عدد الانكليز في الازدياد مطلقين النار على مواقعنا، فتبادلنا النار إلى ان أسدل الليل ستاره فتوقف الفريقان من دون ان تحدث أي إصابة في جنودنا، لقد جاءت النتيجة كما أشتهي فسكرت بخمرة النصر ذلك اليوم وطابت لي الحياة وتمنيت لو طال النهار بضع ساعات أخرى لأقضي على تلك الوحدة الانكليزية التي كانت تطارد جنودنا كما يطارد الذئب الغنم. أشرقت شمس اليوم الثاني وبدأ الجانبان يتبادلان النار وعند الضحى بدأت مدفعية العدو تعمل وأخذت القنابل من عيار سبعة ونصف وخمسة عشر تتساقط على مواقعنا ثم حلقت فوق رؤوسنا ثلاث طائرات وألقت بقنابلها فوقنا، فحمي وطيس المعركة وفي غمرة هذه المعمعة أصيب آمر السرية برصاصتين في كتفه وأنفه فنقله رجال الاسعاف إلى المستشفى في عمان. تلفتت إلى قائد الفوج عثمان بك أبلغه عن إصابة تحسين فأجابني فوراً بوجوب استلام قيادة السرية تأكد لدي بعد قليل ان جنودنا هم الذين صوبوا الرصاص اليه وهذا كان منتظراً لأن الجنود قتلوا عدداً من أمثال هذا الضابط في أول يوم دخلوا في ساحة الحرب واختلط الحابل بالنابل انتقاماً لما لاقوه منه الظلم والجور. بلغني ان تحسين قبض مبلغ ٢٢٠ ريالاً فضية من قيادة الفرقة أي لكل جندي ريالين مكافأة لهم على التضحيات التي قاموا بها والفوز الذي أحرزوه في صد الانكليز. عند المساء قصدت إلى المستشفى ودخلت على تحسين فطلبت منه المبلغ فوراً ودون ان أفوه بكلمة من كلمات المجاملة والتحية. فصعق هذا لطلبي وتوسل إليَ ان أترك له هذا المال ليستعين به على التداوي فلم استمع لتوسلاته وهددته بنقل الخبر إلى قيادة الفرقة فأذعن وسلمني المبلغ كله مكرهاً وذهبت إلى السرية لأسلم كل جندي نصيبه من تلك الهبة. أصبحت منذ ذلك اليوم القائد الرسمي للسرية فتحققت أحلامي ونلت شيئاً مما كنت أصبو إليه لكنني شعرت بالتبعة أكثر من ذي قبل وزاد هذا في قلقي واضطرابي. في اليوم الثالث استعرّت نار المعركة واشتدت وطأتها علينا وكان الرصاص ينهمر علينا كالمطر والقنابل من كل الأعيرة تتساقط على مواقعنا فتحدث دوياً يقضّ مضاجعنا وبينما انا منبطح على الأرض وراء الرشاشات الأربعة أراقب بالمنظار أثر الرصاص الذي ترميه رشاشاتنا على مواقع

العدو لأعطي الأوامر اللازمة لتصحيح الخطأ وإحكام الرماية وإذ بقنبلة من عيار خمسة عشر تنفجر عن يميني على بعد ثلاث أمتار فتحدث دوياً هائلاً وتحفر حفرة يزيد عمقها على المتر ويتصاعد التراب والحجارة في الجو ثم تنهار على جسدي وتطمره ويدخل في روعي انني قُتلت أو جُرحت جروحاً بالغة. ولما نهضت من تحت ذلك الركام وتحسست جسدي بيدي وتبين لي انني لم أصب بأذى حمدت الله وعدت لمتابعة مهمتي، وما هي إلا فترة قصيرة حتى انفجرت قنبلة ثانية عن يساري فأحدثت ما أحدثته الأولى وكان الرقيب محمود يراقب ما يجري فدفعته غيرته وحنكته في تحذيري فنادى بأعلى صوته- عبدالله أفندي غير مكانك حالاً، فامتثلت لطلبه وتراجعت إلى وراء صخرة كبيرة لجأت اليها، وما ان أخذت مكاني حتى انفجرت الثالثة في المكان الذي كنت منبطحاً فيه فهلل الجنود فرحاً وأكبرت في الرقيب محمود خبرته الفائقة وغيرته القلبية. في غمرة تلك المعمعة أخذ بعض ضباط المشاة يبنون كوخاً من القصب الذي كانوا يقومون بقطعه ليلاً من ضفاف أحد فروع نهر الشريعة (الاردن) يشدونه إلى بعضه بأسلاك التلفون التي استولوا عليها من العدو وأتوا بنرد وورق اللعب وبعض الكتب. فأخذنا نتردد على هذا الكوخ المشيد بحمى صخرة كبيرة فنلعب النرد والورق تحت القنابل والرصاص في فترات من النهار وعند الأمسيات حيث تهدأ العاصفة. أصبحنا في اليوم الرابع لنجد ان الانكليز قد احتلوا رابية قريبة من خطنا على جانبنا الأيسر ما جعلنا ان نكون تحت رحمتهم ويعرض جنودنا إلى نيران جانبية لا سبيل إلى تجنبها. فتبادلنا النار إلى الضحى وفيما المعركة محتدمة إذ بنا نشاهد أمامنا في الوادي مقدار ٢٠٠ من جنودنا المشاة يهاجمون الرابية التي احتلها الانكليز ليلاً بجانبنا، فعجبت لذلك التصرف الخاطئ من القيادة التي كان عليها ان تنذرنا بذلك الهجوم لنتخذ الاجراءات المفروضة على مدفعية الرشاش في موقف كهذا. لا بأس أصدرت الأمر بتوجيه النار إلى حامية تلك الرابية حتى لا يرفعوا رؤوسهم وهذا ما يسمونه بنيران الحماية. نحن نحمي جنودنا أثناء صعودهم الرابية حتى لا يصيبهم العدو بنيرانه وما ان بلغ بعض مشاتنا الذروة حتى سمع أزيز رصاصنا ارتد على اعقابه ظناً منه انها نار العدو، فثارت ثائرتي وأمرت بوقف النار ورحت انادي بأعلى صوتي من دون وعي إلى الأمام إلى الأمام، لكن انّى لهم ان

يسمعوني وهم على بعد ٤٠٠ متر مني؟ وما ان أحسّ العدو بإنقطاع النار عنه حتى انتصب جنوده على أقدامهم مصوبين بنادقهم إلى جنودنا المرتدين فأمرت بإطلاق النار وفعلت فيهم فعل المنجل في الحصيد وتساقطوا كأوراق الخريف فأصيب منهم ما يزيد عن الـ ١٠٠ بين استرالي وهندي. تبادلنا النار مع تلك الرابية الخطرة وبينما انا منبطح قرب رشاش الرقيب محمود إذ برصاصة تخترق رأس هذا البطل وكان جالساً على مقعد الرماية، فأسفت لموته أشد الأسف، فهو الركن الذي كنت أعتمد عليه في السرية والصديق المخلص الذي كنت أوثره على جميع أفراد السرية. نقله رجال الاسعاف إلى المستشفى وحاولت ان آخذ مكانه مدفوعاً بعامل الانتقام فسبقني إلى المقعد العريف بربر حلاق السرية ومنعني من التعرض إلى الخطر المحدق وهذا أصيب برأسه بعد برهة قصيرة فسقط أرضاً وصار يهذي بكلام غير مفهوم، ولما حاولت أخذ مكانه منعني الرقيب علوان، وكان هذا من أشد رجال السرية بأساً وأكثرهم إخلاصاً فجلس على كرسي الموت معرضاً نفسه للموت ويطلق النار بإتجاه العدو لا يحسب للموت أدنى حساب. بعد بضع دقائق التفت إليَ وكنت منبطحاً بقربه، قائلاً لي سامحني عبدالله أفندي والدم يقطر من يده اليمنى فقلت له ما بالك إصابتك طفيفة في يدك فأجاب كلا في صدري لا حول ولا قوة إلا بالله. لقد عظم الأمر عندي فدفعته إلى الأرض لأقيه إصابة ثانية، ثم نقله رجال الاسعاف وهو يصارع الموت، فأسفت لفقده وأكبرت فيه الشجاعة والشهامة. لقد عرّض جزء كبير من جسده إلى نار العدو إستخفافاً بالموت بينما كان غيره من الرماة يكشف الجزء الأعلى من رأسه فقط متقيداً بتعليمات الرماية. لم يبق عند ذلك الرشاش أحد من الرماة يستطيع منعي من القعود إلى الموت المحدق، فجلست وشرعت أطلق النار وكان جنود الرشاشات قد سدوا الفراغ الذي حصل وصوبت رشاشي نحو الهدف الذي كان منه ذلك البلاء فاستطعت إسكات الرشاش الانكليزي المجرم واعتقد انه حلّ برجاله ما حل بنا بسببه وظللت أصليهم ناراً حامية من دون ان أصاب والحمد لله. كنا نشاهد في كل فترة بضع طائرات للعدو تهاجم خطوطنا لتلقي عليه القنابل وكانت تقابلها طائرة المانية واحدة يقودها طيار أعرج عرف عنه الدعابة والاستهتار بالعدو فكان كلما شاهد الطائرات الانكليزية قادمة يهب إلى طائرته اليتيمة في تلك الجبهة والشطيرة أو السيكار في يده ويحلق في الفضاء.



الطيار الالماني الأشهر في الشرق الاوسط فيلمي (felmy)

وما هي إلا جولة حتى يفرقهم ويردهم على أعقابهم فكان في هذا المشهد كثير من الفكاهة والتسلية. وأجمل من ذلك أنه لدى عودته ومغادرته الطائرة والشطيرة في يده يعمل فيها نهشاً، يقول مداعباً انهم يحاولون عبثاً إشغالي عن تناول طعامي في الوقت المعين وأقسم بالشرف البروسي انني لن أتركهم أو أترك الشطائر. أقبل الليل وأقبل معه رذاذ المطر والضباب. تلفن لي آمر الفوج عثمان بك يقول: اننا نخشى هجوماً على خطوطنا هذه الليلة من قبل العدو. فهو ينتهز فرصة كهذه وأغلب الظن ان الهجوم يكون قبل الفجر فكن على حذر. قررت انا وزميلي عثمان أفندي ان نتبادل الرقابة تلك الليلة كل ساعتين فينام الواحد ليسهر الثاني. قبل انبلاج الفجر، وكان دوري في النوم سمعت زميلي ينادي- انهض عبدالله أفندي لقد هاجمنا الانكليز. نهضت مذعوراً من سبات عميق لأقع على مشهد مروع، الرصاص يتفجر على الأرض فيحدث نوراً يهتك حجاب الظلمة الحالكة وأزيز يصم أذناي. مرت بي بضعة ثواني وانا في ذهول شديد لا أعرف أين أنا أو ماذا يجري، وما ان استعدت وعيي حتى هرعت إلى الرشاشات وكانت تطلق نيرانها على غير هدى، فأمرت بإدارتها إلى

الوراء، فالعدو أصبح وراء خطنا، ولكن هذا العمل يحتاج إلى وقت ثم اذا هم أطلقوا النار على العدو فانهم يصيبون جنودنا قبل العدو. وفي غمرة هذه البلبلة وأزيز الرصاص وتساقط القتلى رأيت صفاً من الهنود حاملين البنادق والحراب تلمع في رؤوسها وهم يتقدمون من الوراء إلى مواقعنا موجهين الحراب إلى كل من يعترض طريقهم. يا له من مشهد رهيب وجوه سوداء وعيون تلمع ولحى طويلة مجدولة وحراب مسددة.



جنود هنود (انكليز)

خلت نفسي في حلم ومرّ في رأسي شتى الأفكار بسرعة البرق. هل أفرّ إلى الوراء وألقي بنفسي في أحضان العدو أم أختبئ وراء صخرة هناك فيكشفونني ويقتلونني عاجلاً أم آجلاً. وقعت عيناي على بندقية مطروحة على الأرض فقبضت عليها من رأسها ولوحت بها في الهواء وهويت بعقبها على الهندي الذي أتى بوجهي فخرّ أرضاً واخترقت الصف الرهيب في تلك الثغرة واخذت أعدو على غير هدى وتبعني زميلي عثمان أفندي وجنديان آخران ووابل من الرصاص والقذائف. نحن نعدو والقذائف تنفجر على الأرض حولنا

ويروعنا أزيزها في الفضاء وفيما نحن نحاول ان ننجو بأرواحنا إذ بعثمان ينادي: عبدالله أفندي لقد سقط القلبق، وتوقف ليلتقطه فانتهرته وقلت تابع يا مجنون وانج بروحك، لكنه أبى إلا ان يلتقطه فأصيب في كتفه برصاصة لم يشعر بها إلا عند وصولنا إلى مأمن وراء رابية هناك، فهدأ روعنا واستعدت هذا الحادث المروع فتبين لي انه لم يستغرق أكثر من ٣٠ ثانية. بادرت إلى إسعاف عثمان بالجبيرة التي يحملها وتابعنا السير والخوف والخجل قد تضافرا على سحق قلبي. لأنني على الرغم من كل ما تعلمته من دروس عن الرشاش ورغم ما أدعيه من خبرة ومعرفة في كل ما يتطلبه في ساحة الحرب كان ينقصني ان أتعلم كيف أعمل عندما يهاجمنا العدو من الوراء وكذلك اذا نجوت بنفسي وتركت الرشاشات الأربعة مع جنودنا تحت رحمة العدو ماذا أعمل وأين أذهب؟ وأخيراً قررت أن أذهب إلى مقر القيادة مهما كانت النتيجة، فدخلت إلى قائد الفرقة عاصم بك لأجده واقفاً وراء التلفون يتلي أخبار الهزيمة ويعطي اوامره للتغطية وكان كما قلت رجلاً حازماً حكيماً، وما ان رآني حتى هشّ في وجهي قائلاً: لقد أُخبرت ان سريتكم وقعت في يد العدو مع ما وقع وأسفت لفقدك بصورة خاصة وقد سرني انك نجوت ورفاقك هؤلاء، فهل تعتزم متابعة العمل؟ فأجبت وكيف لا وهل أتيت إلى القيادة إلا لمتابعة العمل؟ بل اكون مديناً لكم اذا مكنتموني الالتحاق بالخط الثاني حتى أعمل المستحيل لإستعادة خطنا ورشاشاتنا. فأظهر ارتياحه الشديد وأمرني أن أذهب مع رفاقي وأتسلم قيادة سرية الرشاش عند الخط الثاني فوق تلال عمان وأخبرني ان تلك السرية قد خلت من ضباطها وانه سيعطي التعليمات اللازمة بالتلفون فشكرت له عطفه وودعته. ثم قصدت إلى موقع تلك السرية والفرح يملأ جوانحي وقدمت نفسي إلى أفرادها وأعطيت الأوامر اللازمة لمتابعة النار. ثم أرسلت في طلب جنودي الرابضين عند الحيوانات والمطبخ، فتضافر جنود السريتين على إعداد الأشرطة بكميات كبيرة حتى نؤمن حاجة المدافع الأربعة طيلة النهار وكانت صناديق الرصاص مكدسة بالألوف وراء الخطوط. فالسيارات الألمانية تنقل الذخيرة ليلاً نهاراً وتمدنا بأكبر قدر مما نحتاج اليه منها. أحرقنا في ذلك النهار مقدار ٥٠٠ صندوق من الرصاص. ولم نكف عن الإطلاق حتى لا نترك للعدو وقتاً للراحة، وعند الصباح لم نر إلا سكوناً رهيباً عند الخط الأول فبعثت ببعض

الجنود للكشف وعلمت ان الانكليز قد ولّوا الأدبار بعد ان تركوا قتلاهم وكثيراً من أثقالهم هرعت إلى التلفون لأبلغ قائد الفوج وهذا بشر بدوره قائد الآلاي فقائد الفرقة عاصم بك، فصدرت الأوامر بتعقب العدو المنهزم. تقدمنا إلى خطنا الأول الذي احتله العدو فوجدنا قتلى الهنود والاستراليين بالمئات ووجدنا رشاشاتنا سالمة إلا واحداً كان العدو قد ألقى ببعض قطعه بعيداً قصد تعطيلها، وبعد البحث وجدناها جميعها فأصبح لدينا ثمانية رشاشات جاهزة للعمل، وهذا لعمري كافياً لمجابهة فرقة كاملة. لم يفد جنودنا ان يعملوا نهباً وسلباً في ما خلّفه العدو من طعام وملابس، فكانوا ينتزعون ثياب الميت وقد شاهدت بعضهم يلوون اذرعة القتلى المتيبسة دون خشية لينتزع عنه قميصه الداخلي الثمين كلما مر بخاطري يقشعر له بدني وأعجب كيف كنت أحتمله وأمر به كانه أمر عادي. كيف نستطيع صدهم عن هذه الممارسات التي تعتبر شائنة وهم عراة حفاة وليس في متناول الجيش ما يقدمه لهؤلاء البائسين غير(البقسماط) وبضع حبات من الزيتون أو قدر كف اليد من القمر الدين. نفرنا خفافاً في تعقب العدو وتركنا العربات وبعض الخيل في عمان وسرنا في طريق معبد نحو السلط. كنا نشاهد كثيراً من مخلفات الجيش المنهزم على جانبي الطريق، صناديق القذائف المدفعية علب البسكويت الفارغة برانيط الفلين وكثيراً مما ثقل وزنه ورخصت قيمته فتبين لنا من ذلك ان الانكليز كانوا مسرعين في انسحابهم واعتقد انهم كانوا يخشون ان يقطع جيشنا في نابلس خط الرجعة عليهم بعد ان يئسوا من اختراق خط عمان. قضينا الليلة في السلط وعند الصباح قصدنا إلى الشونة وهي تقع عند منتهى جبال السلط وبدء السهل أو الغور الممتد إلى أريحا فسرنا في طريق موازٍ لنهر الشريعة أو فرع من فروع هذا النهر، تقدمنا حتى بلغنا التلال الأخيرة فصدر الأمر بالتحصن في تلك التلال، وعهد إليَ باحتلال أربعة منها، فأقمت مدفعين على كل منها فكنا نشرف من هذه المواقع على السهل الكبير الواقع بين تلالنا من الشمال ونهر الشريعة (الاردن) من الغرب والبحر الميت من الشرق وأريحا من الجنوب نحن في شهر كانون الثاني ورغم ذلك فقد شعرنا بوطأة الحر. لقد اتخذنا من الكهوف سكناً لنا ومقراً لأعمالنا وأخذ الجنود يشقون الخنادق في الصخور استعداداً لهجوم الانكليز المنتظر. جرى تنظيم الوحدات العسكرية التي تجمعت في تلك

المنطقة وبلغ عديدها الـ ١٠٠٠٠ آلاف، فتشكل منها ٣ فرق بقيادة اللواء ياسين باشا الهاشمي قائد الفيلق. كانت تعبئة هزيلة، فعشرة آلاف جندي تعبئ فرقة واحدة في الظروف العادية ولكن قلة الجنود بالنسبة للجهاز الاداري والمعدات الحربية اضطرت القيادة إلى الاحتفاظ بهيكلية الوحدات المحاربة مهما قل عديدها، ففوجنا المؤلف من ثلاث سرايا مشاة وسرية رشاش كان مجموع أفراده لا يزيد على الـ ٤٠٠ جندي. كان الفيلق هذا يشكل الجناح الأيسر لجبهة فلسطين وجناحنا الأيمن عند شمال غزة والقلب عند نابلس، ونواجه جيشاً يزيد عدده على الثلاثين ألفاً مزوداً بأحدث المعدات وجنوده غنية بالملابس والاطعمة والادوات الصحية وأسباب الرفاهية من حمامات وسجائر وثلج داخل الخنادق، يقابل ذلك عند الجندي العثماني جسد عار إلا من سترة وسروال مهلهلين يظهر لحم الجندي من بين خيوطها وشاروخ إقتطعه من جلد الخيول الميتة ليخفف من آلام قدميه وطعام مؤلف من رغيف أسود وشيء من الحبوب المسلوقة وقمل يعشعش في تلك الثياب البالية والملاريا تفتك بجسده فيقضي نصف يومه يصارع هذا الداء القاتل والنصف الآخر بحفر الخنادق وأعمال القتال «باد شاهم جوق ياشا» (ليحيا السلطان طويلا) طاعة وإخلاص يعجز القلم عن وصفهما. بدأ حبل النظام يتراخى منذ ذلك الوقت، وكأن الأفراد قد شعروا بحاجة كل ضابط إلى الجنود فكان الواحد منهم لأدنى سبب يغادر سريته ليلتحق بسرية غيرها فيجد من يسجله لكن بشيء من التكتم والحذر، وبعد مدة أخذ الجندي يقوم بعملية الانتقال حسب رغبته ويجد من يرحب به دون خوف أو حذر، وفي المدة الأخيرة كان الجندي يملي شروطه قبل التقدم إلى التسجيل وكان يجد شروطاً مرضية وترحيباً لائقاً. ولا تسل عن حركة الانتقال من سرية إلى أخرى جماعات ووحدانا والوسطاء بين أصحاب العرض والطلب يسرحون ويمرحون فكانت سوقاً تجارية قائمة في تلك الساحة بضاعتها الجنود ونقودها الكلام المعسول والوعود الطيبة. وقد كان اشتراك أفراد سريتي محدوداً ومع ذلك كان ربحنا فيها أكثر من الخسارة. عشرة طائرات انكليزية يقابلها طائرة ألمانية واحدة طيار اعرج خمسة بطاريات مدفعية يقابلها بطارية نمسوية واحدة من عيار ٧٥ ملم ومدفعان من عيار ١٥٠ ملم ومئة رشاش يقابلها ١٦ رشاشاً و٣٠٠٠٠ بندقية يقابلها ١٠٠٠٠ ومئات السيارات لنقل

الجنود يقابلها سير على الأقدام أثناء الليل وأطراف النهار. وهكذا صمد الفيلق التركي تسعة أشهر أمام الجيش الانكليزي بالرغم من محاولاته المستميتة لإختراق صفوفه بغية الوصول إلى عمان. اقتصرت المعركة في الاسبوع الأول على المدفعية والطائرات والمسافة بين المتقاتلين تقارب ثمانية كيلومترات. وكان الانكليز يوجهون قنابلهم إلى جسر مدخل الوادي فلم يُصب بقنبلة واحدة طيلة الأشهر التسعة. كنا نشاهد بضعة فرسان انكليز يتسللون إلى خطوطنا بغية الكشف فنبادرهم بنار حامية ونردهم على إعقابهم بعد ان يتركوا قتيل أو قتيلين. كانوا يهاجمون خطوطنا بجيوشهم المرة بعد المرة فنتبادل النار طيلة النهار عن بعد الف متر تقريباً ثم يعودون إلى مراكزهم ليلاً وكانت غايتهم من وراء ذلك على ما أعلم اما جس نبض قواتنا في تلك المنطقة أو إلهاء قسم منها نستقدمها من مناطق أخرى لنخفف الضغط عن قواتنا هناك وهذا ما يسمونه حرب الإلهاء، وكانت هذه العملية تكلفنا غالياً، إذ يتحتم على الوحدة التي نستقدمها ان تمشي على أقدامها عشرات الكيلومترات ذهاباً وإياباً بينما ينقل العدو جنوده بالسيارات بعشرات الدقائق.

الزيارة الأولى لبيروت

مرّ كانون الثاني وشباط من دون ان يحدث تبديل يذكر في صفوفنا وقد بدا لي أن هذه الحال سوف تدوم طويلاً على ما هي عليه فخطر ببالي السفر إلى بيروت ووجدت فرصة سانحة. قصدت صديقي قائد الفوج وعرضت الأمر عليه، ولما بيّنَ لي استحالة هذا الترخيص الذي لا يمكن ان يناله ضابط في ساحة الحرب إلا من قائد الفيلق ياسين باشا الهاشمي، قلت له ان لنا في عمان بعض العربات والخيل وعلي أن أذهب لإحضارها إلى الشونة لقد أصبحنا بحاجة اليها، واني ربما استطعت ان أنفذ من عمان إلى بيروت لزيارة أهلي من دون ان يعلم أحد سواك. فوافق الرجل وأعطاني كتاباً إلى قائد الفيلق راعى فيه قاعدة التسلسل الرتبي طبعاً وطلب فيه الإذن لي بالذهاب إلى عمان في مهمة عسكرية. ولحسن حظي كانت هذه الوثيقة مكتوبة بقلم رصاص، فمحوت كلمة عمان وكتبت كلمة بيروت، وعلى أساس هذه الوثيقة حصلت على تذكرة سفر للركوب في القطار مجاناً ذهاباً

وإياباً. كان معي خادمي الكردي واسمه ابراهيم، وكان هذا بتكوينه وصفاته كالثور لا يعرف للتعب أو الخوف معنى ركبنا القطار معاً من عمان إلى درعا فدمشق فبيروت، وكان يتجاذبني في الطريق عاملان، عامل الفرح بلقاء والدتي واخوتي وموطني بعد غياب سنتين كاملتين، وعامل الخوف على مصير أهلي وقد مضت ثلاثة أشهر على عدم مراسلتي لهم ولم أنسَ الليرة الذهبية التي احتفظت بها لأقدمها لهم ليسدوا بها شيئاً من الرمق توقف القطار عند محطة صوفر واعلنوا ان القطار لن يتقدم أكثر من ذلك خشية قنابل الأسطول الانكليزي المرابط في تلك السواحل الذي يتحين الفرصة لضرب القطار. وهذا من الأعمال العسكرية، عبثاً حاولت ان أجد عربة أو دابة تنقلنا إلى بيروت.



جانب من صوفر سنة ١٩٢٢

كان معي في ذلك القطار بضعة جنود بيروتيين العائدين إلى بلدهم فراراً وقد حسبوا لفرارهم كل حساب إلا توقف القطار في صوفر، فوجدتهم في حيرة مثلي وبعد التعرف اليهم والوقوف على أمرهم أعلنت لهم استعدادي لمساعدتهم فاغتبطوا لذلك ووجدوا فيّ المنقذ الذي يبتغوه، ولما لم يكن من وسيلة إلى بلوغ المدينة إلا السير على الأقدام، تقدم الكردي إلى حقيبتي التي لا يقل وزنها عن الـ ٣٠ كلغ وحملها على كتفه وقال انا سأسبقكم بهذه الحقيبة مهما بعدت المسافة وكانت الحقيبة هي العقبة التي حملتني على التردد في

تكملة الطريق سيراً جمعت هذه الشرذمة من الفارين في صف عسكري وسرت في مقدمهم كأنهم جنودي حتى لا يعترضهم جنود التعقب. كنا نتقبل التحية العسكرية من أفراد البوليس العسكري طيلة الطريق ولم يخطر ببال أحدهم ان يعترضنا، فأنا ارتدي لباس الضابط الذي هو فوق الشبهات ومن يجرؤ على إعتراض الضابط أو التحدث إليه، كان إبراهيم يتقدمنا بالحقيبة ويستحثنا للحاق به فكان لنا في ذلك تفكه وتسلية وكاد الجنود يطيرون فرحاً بعد أن أمنوا شر رجال التعقب. ولما بلغنا المدينة ودعني الشباب وتوجهت إلى سوق أبو النصر،



من سوق ابو النصر قبل ١٩١٠

فاجأت أخي عمر عند باب مخزنه فطوقته بذراعي من الوراء وكان لقاءًا مفاجئاً جميلاً، طلب أخي من المستخدمين إغلاق المخزن وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر ثم أتى بعربة

خيل لتقلنا إلى البيت في رأس بيروت، صعدنا السلم وقرع أخي الباب بعنف منادياً بشرى، فسألت والدتي: أكتاب من عبدالله؟ أجاب أخي عمر: بل هو كله، فتح الباب وعلا الصراخ وسالت الدموع. لقد يئسوا من امكانية عودتي لانقطاع أخباري مدة ثلاثة أشهر بعد ان عودتهم ان يتلقوا مني كتاباً على الأقل مرة أسبوعياً، فلامتني والدتي على هذا الاهمال، والحقيقة ان السبب كان في صعوبة الوصول إلى أسباب الكتابة ثم الأخطار التي كانت تشلنا عن التفكير بأمور عددناها ثانوية. ولما سألتهم عن أحوالهم المادية قادني أخي عمر إلى الدرج فوجدت فيه ما يقارب الألف ليرة ذهبية ما بين ذهب وفضة وأوراق نقدية، ثم سألتهم عن الوقود قبل الشروع في الحمام فأجابني أخي محمد سعيد لدينا من الحطب ما يكفي لحمامك طيلة حياتك. وقد علمت بعد ذلك ان أخي محمد سعيد قد سار بمعمل الفواش الذي باشرناه معاً قبل السفر إلى استانبول شوطاً بعيداً. وأصبح عنده ما يقارب الأربعين عاملاً ينتجون عشرة آلاف علبة يومياً من الفواش، وان هذا الفواش الذي يخرج من عندنا كان يشحن إلى فلسطين والعراق وتركيا فضلاً عما كان يُستهلك في سوريا ولبنان.

قصة الفواش

اضطر الأهلين إلى الاستنارة بزيت الزيتون بدل البترول الذي خلا من البلاد فارتفع سعر الفتائل الشمعية التي تضاء عائمة على الزيت، وكانت هذه تأتينا من أوروبا، ولما تهافت الناس على شراء هذه الفتائل التي كان السوق يخلو منها اقترح أخي عمر علينا(محمد سعيد وأنا) ان نقلد صنعها فحاولنا مدة ثم شرعنا في العمل فتمكنا من تقديم علب الفواش للزبائن بجودة لا تقل عن الجودة الأوروبية. وكانت الأرباح مغرية على الرغم من قلة الوسائل والبطء في العمل ثم قام في المدينة منافسين لنا في صناعة الفواش وكثر المشتغلون بها وتدنت الأسعار فقلّت أرباحنا وكدنا نفقد الأمل في متابعة هذه الصناعة التي كنا نعتمد عليها في تأمين معيشتنا. ولم دعينا إلى النفير العام في نيسان ١٩١٦ توقف العمل إلى ان عاد أخي محمد سعيد مأذوناً كما قدمت وهنا عقد النية على تسديد ضربة قاضية إلى منافسيه، فهو صاحب الفكرة ومنه تعلموا الصنعة فانكب على العمل وتمكن من اختراع بعض الماكنات

التي تقطع الأخشاب والفتائل والفلين بكميات كبيرة بأقل ما يمكن من النفقات والوقت واحتفظ بسر هذه الماكنات فلم يمكن أحداً من العمل عليها إلا من كان يثق بهم كل الثقة. وهكذا استطاع ان يقدم إلى اسواق الأقطار المجاورة ما يحتاجونه من هذا الفواش بأسعار هي أدنى من التكاليف عند منافسيه ما أضطرهم إلى عرض معداتهم والمواد الأولية التي بحوزتهم للبيع فاشتراها الواحدة بعد الأخرى. وبذلك خلا له السوق واصبح المنتج الوحيد للفواش في الدولة العثمانية. وأخذ يصنع هذا الجهاز الحيوي الدقيق بكميات وفيرة ويبيعه بأرباح زهيدة جداً ليضمن لعماله استمرارية العمل ويساندهم على دفع غائلة الجوع هم وعيالهم. تبين لي ان البيت في بحبوحة يحسدنا عليها الموسرين من أهل المدينة، لكن التقنين في الخبز كان قائماً يومذاك، والسبب في ذلك ان الحكومة كانت تعطي لكل مواطن رغيفاً من الخبز لا يزيد وزنه على ٦٠٠ غرام، وهذا لم يكن يكفي سد جوع سيما والأغذية قليلة، وفي بيتنا عدد من الأقرباء يأكلون على مائدتنا ما حمل الوالدة على تقنين الخبز مع الإكثار من الخضار والمواد الغذائية الباقية. وابتهاجاً بقدومي أطلقت الوالدة حرية الخبز فتهافتنا عليه وتمنوا لو تطول مدة إقامتي بينهم. أما الليرة الذهبية التي كنت محتفظاً بها إلى ذلك اليوم فكانت موضوع تندر وفكاهة وقالوا لي احتفظ بها وخذ ما شئت من المال فوقها. بعد ان أقمت مدة أسبوع بين أهلي عزمت على السفر إلى مقري فطلب إليَ أخي محمد سعيد أن أصحبه معي إلى جبهة الحرب بدافع الاستطلاع والنزهة، ولم أستطع منعه من تحقيق رغبته، سيما وقد علمت انه سئم الحياة في بيروت. تركنا بيروت قاصدين دمشق ومن بلد الجوع والتشرد إلى بلد الرخاء والبحبوحة، فدمشق كانت مقراً لقيادة الجيش السابع وممراً للقوافل العسكرية وفيها تقوم كثير من الصناعات الحربية وتتكدس المعدات والأرزاق على مختلف أنواعها. لذلك كان العمل فيها ميسوراً والتجارة لها شأن كبير وأرباح لا حدود لها، فجنى الدمشقيون زمن الحرب أرباحاً كبيرة وعاشوا في ررخاء وأمن حتى نهايتها، فيما نحن نتجول في أسواق المدينة إذ لاح لي مقر قيادة الجيش السابع فوق سوق الخوجة المطل على المرجة فخطر لي ان انتهز الفرصة وأقدم استدعاء إلى قيادة الجيش وأطلب به الحصول على ترقيتي الضائعة منذ أحد عشر شهراً، فاستكتبت أحد المختصين بالكتابة وقصدت إلى القصر

حيث يجلس فخري باشا قائد الجيش وظل أخي ينتظرني تحت الشرفة. ولما صعدت إلى الطبقة الأعلى حاول بعض الجنود الحراس إعتراضي فقلت لهم ان فخري باشا هو عمي وأنا قادم من استانبول لزيارته ففتحوا الطريق لي ودخلت غرفة ذلك القائد وإذ بي أمام رجل مخيف ونظر إلي شزراً وقال بلهجة عسكرية حازمة من انت ومن أدخلك؟ فأجبته بم اوتيت من قوة ورباطة جأش، أنا أحد أولادك الرابضين في ساحة الحرب، قائد سرية الرشاش في الفوج الثالث الآلاي الأول، الفرقة ٥٩ الفيلق ٣. أتيت من عمان بعد ان صددت الجيش الاسترالي عنها وأرغمته على العودة إلى مواقعه الأولى وأتيت إلى مقامك لأشكو لك ظلامتي، فقد ضاعت أوراق ترقيتي وبذلت المستحيل في الوصول اليها وقد مضى عليَ أحد عشر شهراً محروماً من حقي بينما انا أضحي في سبيل الدولة العلية دمي وروحي. تهلل وجهه لهذا الحديث وعلت الابتسامة ثغره وتناول الاستدعاء من يدي ولما قرأه قرأت على وجهه آيات العطف الأبوي، قال لي هل اطلعت على مجلة الجيش الشهرية؟ يا ولدي هذه المجلة تذكر أسماء الذين تمت ترقيتهم في كل شهر، فأجبته نحن نعيش في ساحات الحرب حيث لا مجلات ولا جرائد، وما هو شكل هذه المجلة وكيف الحصول عليها؟ فتناول مجلة وحيدة من على منضدته وقال يا ولدي هاك عدد من أعداد تلك المجلة، وجعل يقلب في صفحاتها أنظر هنا أسماء الألوية الذين أصبحوا فرقاء، وهنا أسماء الذين جرت ترقيتهم إلى مقدمين وهناك أسماء ملازمين ونقباء وغير ذلك وأخيراً تجد أسماء المرشحين أمثالك وقد أصبحوا ضباطاً، ثم أخذ في قراءة بعض الأسماء فسمعت أسماء رفاقي الذين جاءت أوراقهم إلى معهد الرشاش وكانت ورقتي الوحيدة التي فقدت من بينهم وألقيت بنظري بلهفة على تلك اللائحة ووقعت عيناي على اسمي مكتوباً فيها فقلت للباشا هاك أسمي مدرجاً مع أسماء رفاقي ما يؤكد لكم اني على حق، فهل تكرمتم وساعدتموني في الوصول إلى حقي؟ فضحك وقال يا ولدي لم يعد من حاجة إلى الاستدعاء أو إلى مساعدتي فهذه المجلة كافية خذها وعلّق الشارات والسيف واقبض رواتبك المتأخرة كلها بموجب هذه المجلة، لقد غمرتني الفرحة ولم أعد أعي ما أفعل، فتناولت المجلة من يد الباشا وهرعت إلى الشرفة المطلة على السوق بذلك الفوز لعاجل من غير انتظار وقد نسيت انني في حضرة القائد

فخري باشا، وتصرفت كم يتصرف الطفل في غرفة والده، لكن بدا لي انه تقبل مني هذا التصرف كما لو كان والدي وهش في وجهي وهنأني بالرتبة الجديدة ولما ثبت إلى رشدي تهيبت الموقف واحمر وجهي خجلاً وطلبت المعذرة ثم ودعته بتحية عسكرية المانية وهرعت إلى أخي لأفصل له الخبر المفاجئ. اشتريت الشارات اللازمة والقلبق المقصب فقد أصبحت ضابطاً حقيقياً أتمتع بما للضابط من مميزات. لقد حرمت من حقي ١١ شهراً ولكن عزائي في ذلك انني سأقبض الرواتب المتراكمة دفعة واحدة وهو مبلغ لا يستهان به مجموعه ٦٦ ليرة ذهبية لقد أصبح راتبي الآن ٦ ليرات ذهبية بعد ان كان ٣٠ قرشاً وأصبحت أتمتع بامتيازات المواد الغذائية لحاجتي وحاجة أهل بيتي، سأخصص للبيت من الأرزاق ما تزيد قيمته في السوق السوداء على العشرين ليرة ذهبية شهرياً لقاء ليرتي ذهبيتين من راتبي، هذا فضلاً عن الأرزاق التي اتناولها لحاجتي الخاصة والميزات التي اتمتع بها كملازم ثاني في الجيش، انتقال من الجحيم إلى النعيم دفعة واحدة. أخذنا القطار إلى درعا فعمان وعند المحطة فوجئنا بأصوات قذائف المدافع والقنابل، لقد اقتحم الانكليز خطوطنا مرة ثانية فتراجع جنودنا إلى عمان، وسألت نفسي هل تراجعت سريتنا أم بقيت مكانها وماذا حلَّ بها ما هو نصيبي من التبعة وأنا غائب في الوقت الذي كان فوجي بأمس الحاجة إليَ، انا اتحرق على فرصة ضاعت مني وبوحي من غروري والثقة بنفسي قررت اني لو كنت على رأس السرية لما تمكن العدو من اختراق خطوطنا والوصول إلى عمان. أقنعت أخي بضرورة العودة في هذا الوضع المضطرب فأذعن وعاد إلى بيروت، أما انا حاولت الوقوف على أخبار فوجي وسريتي فلم اوفق، فقصدت سرية مشاة تقوم بالدفاع عن روابي عمان وكان لديها رشاش واحد فأعددته وطلبت من سرية للرشاش في جواري بعض الأشرطة ودربت الجنود على إملائها بأيديهم، واستعنت ببعضهم لمساعدتي عند الرشاش وأخذت أطلق النار من دون هوادة. في الصباح كان العدو منسحباً من مواقعه كما في المرة السابقة وتقبلت التهاني من الضباط والرؤساء منهم والزملاء وقد اعترفوا بفضل هذا الرشاش الوحيد وأثره الكبير في تلك الواقعة القصيرة. والحقيقة انني وشارة الملازم على كتفي كانت أقوى من أربع رشاشات وشارة المرشح البغيضة لاصقة بي تلك المدة الطويلة. تقدمت مع خادمي

ابراهيم برفقة الجيش حتى بلغنا الشونة، موقعنا الأول فوجدت ان جناحنا الأيسر وقد ثبت في مراكزه ولم ينهزم بل كان العامل الأول في تراجع العدو الذي خشي ان تقطع عليه طريق الرجعة. قابلت أول من قابلت قائد الفوج عثمان بك الذي استرعت أنظاره الشارات المذهبة على كتفي فاندفع يهنئني وسألني كيف تلقيت مرسوم الترقية فدفعت له المجلة التاريخية وما ان شاهد أسمي حتى وضعها على رأسه ونادى على الكاتب وأمره بإعداد لائحة برواتبي فوراً، وفي مدة ساعة كان في يدي ستا وستون ليرة ذهبية وتحويلاً يخول والدتي تناول ما تشاء من المواد الغذائية لقاء ليرتين ذهبيتين تحسم من راتبي، وكان ما تأخذه الوالدة من هذه الأرزاق يكفي حاجة البيت طيلة شهرين مع كثير من البحبوحة. تجمع الضباط في كهفي لتهنئتي وانتزاع بضعة ليرات ذهبية ثمن وليمة أقيمها على شرف الترقية. ولكن أين أسباب تلك الوليمة في هذه الزاوية من جهنم؟ أرسلت أحد الجنود إلى السلط على دابة وأتاني بشيء من اللبن الرائب والليمون الحامض بقيمة ليرتين، فشربوا اللبن وتقاسموا الليمون وشكروني على هذه الوليمة التي أتت في وقتها. عادت الأمور إلى مجراها الطبيعي وتبادل بالمدفعية والصراع بالطائرات واستكشاف من الطرفين وبعض الغزوات الفجائية لكن الحر بدأ يشتد والملاريا الفاتكة تنتشر، وقد بليت ملابس الجنود الداخلية فاكتفوا بما تبقى من الملابس الخارجية لستر ما أمكن من أجسادهم، وفنيت نعالهم فمشى أكثرهم حافياً، كانوا يتحينون الفرص ليقعوا على دابة ميتة ليسلخوا قطعة من جلدها ويصنعوا منه شاروخاً يشدونه إلى أقدامهم ليقوا أنفسهم لظى الأرض الملتهبة والويل للدابة التي تموت على مرأى منهم، فأنها لا تلبث ان تقع أرضاً حتى يستلّوا سكاكينهم ويعملون في جلدها سلخاً وتقطيعاً لقد عمّ القمل الضباط فضلاً عن الجنود وقد شاهدت قائد الآلاي قد تعرى وجعل ينقب ثيابه من القمل وكأنه يقوم بعمل عادي من أعماله اليومية. أما الطعام فكان يعطى بكمية تكفي ما يجمع بين الجسد والروح، هاك مثل عن الطعام وتصرف ذوي الشأن في تقديمه، كانت السهول الواقعة بيننا وبين العدو مزروعة بالقمح، واعتقد ان هذا الزرع تم نموه لأول مرة في تلك الأرض المهملة فقد نما الزرع نمواً عجيباً، فجعل الجنود يشوون السنابل الخضراء ويقتاتون بها، ولما لم يكن من سبيل إلى حصاده من قبل أصحابه فقد عملت حراب الجنود

في حصده وأعقاب البنادق في ضربه ثم راحوا يطحنونه في مطاحن القرويين في خرائب قرية الشونة فصنعوا منها الطحين والبرغل ويخبزون العجين على الواح التنك الصدئة من دون ملح أو خمير ويحضرون البرغل بطرقهم الخاصة ليملأوا بطونهم من هذا الخبز الرديء والبرغل المسلوق. كانت السبب انقطاع الإعاشة عن الجنود مدة أسبوعين كاملين وحجتهم في ذلك عرقلة المواصلات والحقيقة انهم باعوا إعاشة ١٠٠٠٠ جندي أي ما قيمته نحو ١٥٠٠٠ ليرة ذهبية تُرى من قبض هذا المبلغ الضخم؟ وفي عنق من تتعلق هذه الجريمة النكرة؟ ويبقى علم هذا عند الله. فقد زاد في البلبلة ان الماء الذي كنا نشربه كان ساخناً وطعمه كريهاً ورائحته قاتلة. فكنا نملأ دلو القماش من هذا الماء الآسن ونقضي النهار نروي جدرانه من الخارج حتى يبرد الماء في داخله إلى درجة نستطيع احتمالها، ومنا من كان يدفن هذا الدلو في التراب ثم يروي التراب بالماء لفترات كي يبرد. ذات مساء عندما كنت في كهفي سمعت ابراهيم خادمي ينادي بأعلى صوته (مجدي) أي بشرى ما هي هذه البشرى يا إبراهيم؟ قال: أتى أخوك محمد سعيد وإذ بي أجده بلباس عسكري لم أدرِ من أين أتى به، سلمت عليه ورحبت به وفي قلبي غصة من مجيئه لم أستطع إخفاءها. لقد علم بعودتنا إلى مراكزنا ورجوع المياه إلى مجاريها فعاد ليحقق رغبته الجامحة بمشاهدة ساحة الحرب وإرواء ظمأه بالاشتراك في معمعانها. لقد ترك مجيئه في نفسي حسرة لكنني عللت نفسي بالقول المأثور(اذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون) هيأت له فراشاً في كهفي وأخذ على عاتقه تنظيم الطعام سيما وقد شاهد الأرزاق التي كانت تأتيني من لحم وأرز وسمن في كهفي وغير ذلك مما كنت أعطيه للجنود لجهلي الطبخ. قضى أخي أسبوعاً يعد أنواع المآكل اللذيذة ويشاهد الطائرات والمدافع وهي تقصفنا بقنابلها من عيارات مختلفة، فتعلم استعمال الرشاش وأطلق بضعة آلاف من الرصاص واشترك معنا في معركة قصيرة كان النصر حليفنا والحمد لله. صحبته يوماً إلى أمين الفوج حيث يجمع القمح الفائض عن حاجة الجنود وهم لا يدرون ماذا يصنعون به، ولما شاهدت القمح خطرت لي فكرة عظيمة فقلت له ما رأيك في قنطار من هذا القمح وستين ليرة ذهبية تحملها إلى البيت؟ غنيمة باردة سال لعابه لهذا الخبر قنطار قمح في بيروت الجائعة يعادل بيتاً كبيراً يستطيع شراءه بقيمته فلم يتردد وأعلن

استعداده للعودة إلى بيروت بهذه الهدية القيمة. اشتريت القمح بليرتين ذهبيتين وقصدت عثمان بك فقدمت اليه أخي وقصصت عليه الأمر كله وافق مغتبطاً وأمر بكتابة مذكرة إلى إدارة الخطوط الحديد لنقله إلى بيروت مع قنطار قمح مجاناً وأعطاه ترخيصاً لنقل القمح الممنوع نقله في ذلك الوقت وأخيراً أعطاه وثيقة إلى ان محمد سعيد دبوس مأمور في فوجنا وقد أرسل إلى بيروت في مهمة عسكرية أعدّ أخي الأكياس اللازمة ليلاً فجعل من البساط العسكري كيساً خاطه بمسلة صنعها من سلك حديدي والخيوط من أسلاك التلفون المبعثرة هنا وهناك. عند الصباح أعطيت أخي حصاناً لركوبه وبغلين لنقل القمح إلى عمان وأرسلت معه بعض الجنود لمساعدته في الطريق والعودة بالحيوانات من عمان بعد ركوبه القطار. لقد استطاع أخي الوصول سالماً بالقمح إلى بيروت وكان ذلك نصراً مبيناً. وأجمل من ذلك أن أخي لم يعد فاراً أو مريضاً مزيفاً تحت رحمة الدرك بل أصبح بفضل تلك الوثيقة جندياً قانونياً مكلفاً لا يستطيع أحد ان يمسه بسوء.

الكمين

أتاني يوماً بعض الجنود وطلبوا مني ترخيصاً للذهاب ليلاً إلى «البوسو» الكمين وهذا الكمين ينظمه بعض المغامرين من الجنود فيذهبون ليلاً إلى الخطوط الأمامية للعدو وهناك يتفرقون على شكل حدوة الحصان على ان يكون الطرف المفتوح منه لجهة العدو، حتى إذا خرجت شرذمة من فرسان الكشف، ويكون هذا عند طلوع الفجر، واذا دخلت هذا القوس هبَّ الجنود الكامنين في الحفر هبة واحدة موجهين البنادق إلى الفرسان الانكليز الذين لا يجدون مفراً إلا التسليم. عاد رجال الكمين نهاراً يقودون أسيراً واحداً من الهنود المسلمين مع جواده الانكليزي الضخم فكان لفوزهم هذا صدى كبير في ذلك الوسط وتقدير من الرؤساء. بعد بضعة أيام أتاني هؤلاء المغامرون أنفسهم ورجوني ان أرافقهم في المرة الثانية. فلم أستطع الرفض وماذا أبقيت للشهامة والكرامة اذا انا رفضت العرض الكريم، عند منتصف الليل اتاني الرقيب سليمان ومعه أربعة جنود مدججين بالسلاح، فدفع إليَ بندقية وقنبلتين يدويتين زيادة على المسدس الألماني الذي أحمله. سرنا نقطع ذلك السهل بين

الأشجار الشائكة حتى اقتربنا من خطوط العدو، فتقدم الرقيب يطلب إليَ قيادة الكمين فاعلنت له اليوم انا جندي وانت قائد هذا الكمين، أعطى الرقيب الأوامر بالإشارة حتى لا يشعر بنا العدو القريب منا واتخذ كل منا مكانه وقد جعلني معه عند رأس القوس، أخذنا نحفر خندقاً لأنفسنا فنرفع التراب من الحفرة ونضعه على حافتها للجهة المقابلة للعدو، وعند طلوع الفجر كنا على أتم الإستعداد لإستقبال الضيوف. سمعنا وقع حوافر الخيل فأخذت دقات قلبي تتزايد كلما اقتربت الخيل. رأينا خمسة من الفرسان الهنود بعمائمهم الضخمة ولحاهم السوداء المجدولة ورماحهم الطويلة والخيل السوداء الضخمة كانت تزيد في الروعة والرعب. كنت كلما اقتربوا أتحفز للنهوض بالبندقية فيمنعني الرقيب ويهدئ من روعي وهو هادئ كل الهدوء وكأنه يستقبل قطيعاً من الغنم. وكان لوقع الحوافر في ذلك السكون الرهيب روعة يعجز القلم عن وصفها. لقد حافظت على رباطة جأشي في ذلك الموقف الفاصل وخشيت ان أكون السبب في فشل عملية الكمين، فصبرنا حتى أصبح الفرسان الخمسة في وسط القوس واعطى الرقيب الاشارة فوثبنا جميعاً وثبة واحدة مسددين البنادق نحو الهنود وبادرتهم قائلاً بالانكليزية(سلموا تسلموا) وكان البعض منهم يحاول الفرار لكن رئيسهم رفع يديه مستسلماً وتبعه الآخرون ورفعوا أيديهم وسارعنا إلى إنزالهم عن الخيل ونزع سلاحهم ثم أخذنا نعدو نسوق الأسرى أمامنا حتى أصبحنا على مسافة بعيدة عن خطوط العدو وبعد ان كنا قرب خطوط العدو ونجونا منه توقفنا لنأخذ شيئاً من الراحة لكن الجنود أرادوا اقتسام الغنيمة قبل الوصول إلى مقرنا فيشاركهم بها رفاقهم، فطلبت اليهم ان يتقاسموا الغنيمة بالتساوي فينصرف كل جندي إلى أسير ويستأثر بكل ما يملكه عدا الثياب التي يرتديها فلا يمس قطعة منها. ولا تسل عما كانت تحويه حقيبة الهندي من الملابس الداخلية قطنية وصوفية وانواع الأطعمة المجمدة من لحم معلب ومربيات وشاي وقهوة وبسكويت وسكر وغيرها فضلاً عن المعدات الثمينة التي كان يحملها الواحد منهم كالمسدس والمنظار والبندقية الخفيفة ومصباح وغيره مما خف حمله وغلا ثمنه. تابعنا السير وبلغت الشمس الهاجرة فاشتدت وطأة الحر وأشرف المشاة الهنود على الموت فطلبت إلى جنودنا ان يرفقوا بهم ويقاسموهم ركوب الخيل حتى بلغنا مقر قيادة الفرقة

فكانت مفاجأة عظيمة وكان الاستقبال رائعاً ولما قدمت الأسرى إلى قائد الفرقة وأخبرته عن تفاصيل تلك المغامرة الناجحة شكرني كما شكر الجنود البواسل وأمر بإعداد وليمة للأسرى وعلى المائدة قمت بالترجمة بين الأسرى والقادة الأتراك، الذين استمعوا إلى الحديث بشوق ولهفة. كان يعتقد رؤسائي ان الفضل في هذا الفوز كان لي دون سواي ورغم إشادتي بفضل الجنود وسعيي إلى إنصافهم لم تصدر من أحدهم بادرة في تقديرهم أو مكافأتهم. ما الحيلة فهذا شأن القادة في معاملة الجنود وعلى كلٍ كانوا بما غنموه أوفر حظاً، فالطعام واللباس هما أقصى ما يتمناه الجندي في ذلك الوقت. تقاسم الضباط الخيل والأسرجة الثمينة وجرى تسفير الأسرى إلى الشام وعدنا إلى أعمالنا كالمعتاد حاول الكثير من جنود الفرقة نصب الكمين فلم يصابوا من التوفيق ما أصبناه نحن أخيراً لأن العدو أخذ الحيطة الكافية في تجنب هكذا كمائن. طلب إليَ بعض الجنود ان أسمح لهم بالذهاب لنصب كمين فرفضت وبينت لهم أسباب الفشل الذي ينتظرهم فأصروا وجاريتهم شرط ان يصطحبوا معهم رشاشاً وألف رصاصة على الأقل على سبيل الحيطة. وفي اليوم التالي عادوا بخفي حنين وقد أصيب إثنين منهم برصاص العدو، ذلك ان فرسان الاستطلاع كانوا على استعداد كبير بانتظار غزاتنا وما ان شعروا بهم في الكمين حتى أصلوهم ناراً حامية برشاشهم الخفيف فدافع رجالنا عن انفسهم برشاشهم الثقيل وتمكنوا من الانسحاب قبل ان تأتي نجدة العدو وبعد أن جرح إثنان منهم لكنهم ادعوا انهم تركوا بفضل رشاشهم عدداً غير قليل من جرحى وقتلى في صفوف العدو، ورداً على أعمالنا أتت شرذمة من فرسان الاستراليين عند الفجر إلى قرب خطوطنا حيث كان بعض الجنود يحصد القمح فقتلوا أحدهم وفروا هاربين، فثارت ثائرة الرقيب سليمان فالجندي القتيل كان من طليعته وأحبهم إليه فأقسم ان يأتي بالحرس الأمامي للعدو «ايلوي قرة قول» لقاء ذلك الجندي القتيل. والحرس الأمامي ليس بالأمر الهين فهذه طليعة من عشرة جنود تتخذ مكانها أمام الخطوط وراء الأسلاك الشائكة يقف فيها حارس كل نصف ساعة ليلاً، حتى اذا شاهد أي محاولة من العدو للتقدم أطلق من مسدسه ثلاث طلقات في الفضاء تشكل أقواساً باللون الأحمر(إشارة إلى الخطر) فتنهض الجنود في الخطوط الدفاعية وتأخذ الأهبة لإطلاق النار أما هذا الحارس يراقب بعينين

حذرتين أمامه ولا يلتفت إلى الوراء ولو أمره بذلك قائد الجيش نفسه وهذا لعمري أخطر وظيفة يقوم بها جندي في ساحة الحرب، إذ على يقظته أو إهماله يتوقف بقاء الجيش أو موته. ودّعت الرقيب سليمان الثائر وجنوده الثلاثة الذين تطوعوا لمشاطرته أخطار المغامرة بعد ان حاولت عبثاً إثناءه عن عزيمته، وقد زودته بما يحتاجه من معدات وأدعية. مضى أكثر الليل وأنا قلق على مصير جنودي الأربعة وكان أملي ضعيف في عودتهم وساورتني الوساوس وطغت عليَ موجة من الندم أقضّت مضجعي. وقبيل انبلاج الفجر سمعت لغطاً بعيداً ووطأ أقدام ثقيلة فلاح لي أنها أقدام جنود انكليز بأحذيتهم الضخمة القوية خلافاً لجنودنا الحفاة وهرعت لأتبين القادمين من الوادي وخشية ان يكون العدو اراد مباغتنا ناديت من القادم؟ وإذ بالجندي الأمامي يجيب جنودنا ومعهم أسرى انكليز. يالها من فرحة لقد برَّ الرقيب سليمان بوعده وسجل أعظم نجاح في تاريخ تلك الحرب الكونية في جميع ساحاتها. لم أتمالك نفسي لأنتظر وصول القادمين فجريت باتجاه الأصوات المتنافرة التي أخذت تزداد وضوحاً وناديت الرقيب سليمان وإذ بالجميع يجيبون على ندائي حتى الأسرى الاستراليين والهنود كل بلغته ودوّت في أذني هتافات النصر ووددت لو أطير اليهم لأشهد بعيني الحرس الأمامي للعدو في قبضة أربعة من جنودنا الحفاة. وما ان التقيت بهم حتى قبلتهم وصافحت الأسرى ووعدتهم بالمحافظة على روحهم وراحتهم وتابعت الطريق معهم إلى خيمة عثمان بك قائد فوجنا فاستيقظ من نومه وهنأنا بهذا الفوز وطلب الينا ان نتابع السير إلى قائد الآلاي فقائد الفرقة وكان الاستقبال رائعاً. عندها أمر قائد الفرقة ان تُعد للأسرى مائدة فخمة والليل لم يولِ وما ان طلع النهار حتى كنا نجلس إلى مائدة حوت ما لذَّ وطاب وأخذ الرقيب سليمان يسرد علينا قصة مغامرته التاريخية، فقال: بعد ان اجتزنا المغارة إقتربنا من الخط الأمامي للعدو وأخذنا نزحف على بطوننا ونحاول اكتشاف الحارس ولما رأيته أومأت لرفاقي عن مكانه وتابعنا الزحف محاولين الابتعاد عن موقعه ما استطعنا حتى بلغنا نقطة هي وسط بين هذا الحارس والذي يليه أي على بعد ٥٠ متراً بينهما تقريباً ثم تناولت المقص لأقطع الأسلاك السفلى الشائكة محاولاً طمس صوت المقص بإسناد قطعة من الجلد بين رأسيه ولما تم لنا فتح ثغرة كافية في هذه الأسلاك تابعنا الزحف متوارين بين

الأعشاب وعلمنا انهم لاهون بألعابهم وانهم عنا لغافلون، أعطينا الاشارة ونهضنا مهاجمين باب الخيمة والبنادق مسددة إلى الرؤوس لقد صعقوا لهذه المفاجأة ولم تبد من أحدهم أدنى حركة وبعضهم رفع يديه وتلكأ الباقي ما دفعني ان أوجه البندقية إلى المتلكئين فرفعوا أيديهم وجردتهم من السلاح وأمرتهم بالخروج من الخيمة وسقتهم أمامي كالغنم واتجهت بهم نحو الحارس الغافل فطوقناه واستسلم من دون مقاومة ثم هرعت إلى الأسلاك الشائكة المواجهة لموقع الحارس وقطعتها بسرعة البرق وركضنا مسرعين من دون ان يشعر بنا أحد من الحراس وتابعنا السير حتى بلغنا قواعدنا سالمين. قمت بالترجمة بين قائد الفرقة والأسرى وفيهم الهنود المسلمين والاستراليين وقد أعرب الأسرى عن تقديرهم للجنود الأتراك وشجاعتهم وحسن معاملتهم وأظهر الهنود دهشتهم انهم كانوا يحاربون رجالاً مسلمين مثلهم في حين كانوا يعتقدون أنهم يحاربون الألمان وعمالهم الكفرة فانتهزت هذه الفرصة فاقترحت على قائد الفرقة ان يوكل إليَ أمر الهنود الأسرى وما ان ولّى النهار حتى تولوا أمر الباقين إلى حيث شاء وبينت له انما أردت إتخاذ هؤلاء الأسرى وسيلة للدعاية في صفوف العدو، لقد طار قلب قائد الفرقة فرحاً وأمر لي بوسام رفيع فشكرت له عطفه وأردفت قائلاً هل يسمح أن أحيل هذا العطف إلى الرقيب سليمان الذي كان له الفضل لهذا النصر العظيم عندها أمر بترقية الرقيب إلى رقيب أول والجنود الثلاثة إلى عريف وأن يكون وسامي الذي وعد به لقاء معاملتي الأخوية نحو جنودي أما الرقيب والجنود فقد تلقوا ترقيتهم فوراً لأن قائد الفرقة يملك الصلاحية وأما وسامي فقد أرسل الاقتراح به إلى استانبول وقد أصبح في خبر كان. ودّعت قائد الفرقة وخرجت بالأسرى المسلمين إلى خيمة إمام الفوج وكان شيخاً معمماً على جانب عظيم من المقدرة والمهابة وقضينا النهار في حديث مع الأسرى عن الدين الاسلامي وقرأنا لهم بعض آيات القرآن الكريم وتبادلنا بعض الأحاديث الشريفة وكانوا يفهمون بعض الكلمات العربية وأحدهم كان يحسن اللغة الانكليزية فجرى التفاهم بيننا على أحسن وجه. وما ان ولّى النهار حتى غدوا أصدقاء مخلصين تغمر قلوبهم الثقة والطمأنينة، خلوت اليهم عند المساء وأعلنت لهم انني سأطلقهم ليعودوا إلى خطوطهم معلنين انهم فروا من دون رفاقهم الاستراليين مستفيدين من الحرية التي تمتعوا بها كونهم

مسلمون ثم أخبرتهم انه عليكم ان تعلموا رفاقكم المسلمين ان يتسللوا إلى خطوطنا رافعين مناديلهم البيضاء وليقبلوا علينا جماعات ووحدانا ونحن بدورنا سنعطي التعليمات لحراسنا كي يستقبلوا المستسلمين منكم من دون التعرض لهم بأذى. وبذلك أخبرتهم انهم سيعودون الينا بعد قيامهم بالدعاية الكافية سيكون لهم شأن كبير عند القيادة. بعد ان وثقت من إخلاصهم سجلت أسماؤهم وارسلت معهم من يصطحبهم إلى الحدود، ثم أطلعت رؤسائي على الترتيبات التي قمت بها. في اليوم الثالث لعودة هؤلاء الهنود المبشرين إلى خطوطهم أقبلت علينا جماعة من الهنود مستسلمين وعددها سبعة وفي اليوم التالي استسلم عشرة وبعدها عشرون وهكذا تقاطر المستسلمون إلى أن بلغ عددهم المئتين تقريباً وضمنهم اولئك الأسرى الأُول.



تكرار عمليات اعدام الجيش الانكليزي للجنود الهنود المسلمين الرافضين إطلاق النار على الجنود العثمانيين

لقد علمنا بعدها ان قيادة جيش العدو سحبت الجنود الهنود المسلمين من تلك الجبهة. وقد أُرسل الهنود المستسلمون إلى استانبول وعلى رأسهم الأربعة الذين قاموا بالدعاية معززين مكرمين. وكان لعملي هذا أثره الكبير في نفس قائد الفرقة إذ كانت نتيجة مسعاي ان خسر الجيش الانكليزي ٢٠٠ محارب من صفوفه. فأرسل اقتراحاً بترقيتي إلى ملازم أول

وكان مصير هذا الاقتراح كمصير سابقاته من الاقتراحات. في ذلك الوقت إزدادت حالة الجنود سوءًا فبليت ثيابهم، فكنت ترى الجندي يرتدي بذلته العسكرية ولحمه ظاهر من خروقها، فلا ملابس داخلية تستر جسده، ولا غطاء على رأسه ولا حذاء في قدمه إلا ما اقتطعه من جلود الحيوانات النافقة ليتخذ منها شاروخاً يقيه الحر والحجارة.



جنديان تركيان

جوع وعطش في ذلك الجو المحرق، حفر خنادق في النهار وحراسة في الليل، سير على الأقدام عشرات الساعات لبعض الأعمال الحربية من إشغال وتغطية، القمل يعشعش في ما تبقى من الثياب على جسده، والملاريا تفتك به من دون رحمة ومع ذلك فهو الجندي

المخلص المطيع ينهض للهجوم بالسلاح الأبيض قبل ان يتلقى الأمر بالهجوم ولا يتزحزح عن مكانه مهما اشتدت وطأة العدو عليه وهو في وضعه هذا يقابل عشرة من جنود العدو المجهزين بالعدة الكاملة ينعمون بأفضل الملابس والأطعمة والحمامات والمياه الباردة وكثير من أسباب الرفاهية المنوعة.



جنود هندسة استراليون يعيدون تأهيل جسر بنات يعقوب

صدر الأمر يوماً بالاستعداد لمهاجمة العدو عند جسر بنات يعقوب على نهر الشريعة وذلك لإشغاله ولحمله على نقل أكبر عدد ممكن من جنوده في القلب عند نابلس إلى أريحا عند الجناح الأيمن، فقطعنا المغارة ليلاً وعند إنبلاج الفجر أخذ قائد الفرقة بنفسه يحدد لكل وحدة عسكرية هدفها للهجوم ولما جاء دور سريتي في ذلك التوزيع لأخذ المهام تقدمت وجنودي إلى التلال البيضاء المشرفة على نهر الشريعة، وكان علينا ان نجتاز سهلاً منحدراً معرضاً للعدو، وما ان توسطنا السهل حتى انهمر علينا الرصاص غزيراً فأخذنا نعدو حتى بلغنا المنحدر وراء تلك التلال الرملية، ثم تسلقنا التلال ونصبنا المدافع عند رؤوسها حيث تشرف على العدو البعيد عنا نحو ٨٠٠ متر. أخذنا نتبادل النار وقد زاد في روعنا ان العدو كان يستهدفنا برصاص الدمدم المحرم دولياً الذي ينفجر داخل الجسم البشري، تبين لي بعد برهة أن رشاشاً كان مفقوداً مع طاقمه وبحثت عنه من دون جدوى وتوجهت شمالاً

فاعترضني نهر يصب في البحر الميت وكان لابد لي من اجتيازه وكان يبدو لي قليل الغور حتى اذا توسطته غمرتني الماء إلى العنق. خرجت من النهر إلى الضفة الثانية غير عابئ بما أصابني من بلل فقصدت إلى التلال التي يغشيها جيشنا أما أنا فقد جننت وجعلت أو حاولت أن أقف على أخبارهم ولا تسل عن كيف استقبلني الضباط والجنود لمنظري المضحك الغريب، عدت أدراجي لأخوض النهر مرة ثانية، ولما بلغت موقع السرية شاهدت الرشاش المفقود واخبرني طاقمه انهم ضلوا فابتعدوا جنوباً بينما كنت أبحث عنهم شمالاً. كانت فكرة سخيفة وفصلاً مضحكاً قمت به في ذلك الوقت الحرج لأرفه عن الجنود وأخلق لهم جواً مرحاً مسلياً تسلقت الرابية الوسطى ولم تمض مدة طويلة من الوقت حتى رأيت فرقة من خيالة العدو تبرز فجأة من بين التلال وتنقض علينا إنقضاض الصاعقة ففاجأتهم مدافعنا بوابل من الرصاص وكانت تحصد فيهم كما يحصد المنجل الأصيل والرجال تتساقط كما تتساقط أوراق الخريف، فارتدوا ولم يجتازوا نصف المسافة الينا ومعلوم ان الخيالة في الهجوم تقطع ١٠٠٠ متر في الدقيقة تقريباً. عندما ارتدّوا إلى خطوطهم تلقوا الرصاص من رفاقهم الرابضين خصيصاً لصدهم بالنار عن الإدبار، ما أجبروهم لتكرار الهجوم علينا فكنا لهم أكثر استعداداً وأشد عزيمة فأصليناهم ناراً حامية وفعل فيهم رصاصنا أكثر مما فعل في الكرة الأولى. أما أنا فقد جننت وصرت أنادي بأعلى صوتي النار النار صوبوا إلى رؤوس الخيل، اليوم يومكم وكنت انتقل من رشاش إلى آخر أحض رجاله واتأكد من متابعة العمل وغمرتني عاصفة من الهياج والفرح دفعتني إلى الحماس اللا معقول. لقد ارتد الخيالة للهجوم علينا للمرة الثانية بعد أن سقط منهم ما يقارب النصف بين قتيل وجريح وهم من مجموعة عددها ٤٠٠. والخيالة تعتمد في هجومها على تقدم الفرسان السريع الصاعق لإحداث الارتباك في صفوف العدو إذ يكفي منظر الفرسان الخيالة وما يؤديه في نفوس خصومهم الذين يستولي عليهم الرعب وترتبك أيديهم فلا يستطيعون إعداد الرشاش لإطلاق النار، فأقل تأخير في هذا الوقت الحرج يمكّن الخيالة من بلوغ خط العدو وتشريده وإبادة جنود، ومعلوم ان الخيالة في انقضاضها لا تحتاج إلى أكثر من ٤٠-٥٠ ثانية للوصول إلى خط العدو وقد كنا جد موفقين إذ كانت رشاشاتنا جاهزة وأصابع الرماة على الزناد

للإطلاق. تبادلنا إطلاق الأسلحة النارية على أنواعها طيلة ذلك النهار وعند المساء أقمنا الحراسة وأعددنا مهاجعنا في مكان آمن عند أسفل التلة، وانتظرنا الطعام الذي لم يأتنا منه شيء فبقينا على الطوى وسهرت على يقظة الحراس وكيف يغمض لي جفن وأنا جائع مضطرب ولم يكن هناك إتصال بيني وبين الوحدات الأخرى أو القيادة نفسها، عند منتصف الليل خامرتني الظنون فأرسلت بعض الجنود إلى مواقع اليمين وآخرين إلى الشمال فعادوا بخبر عن انعدام أثر لجنودنا في الاتجاهين فاستولى عليَ الخوف وأيقنت ان سريتنا وقعت بين أشداق العدو وأصبحت غنيمة باردة عنده. وانا كذلك إذ بي أشاهد بضعة خيالة انكليز يتجولون في المنطقة فأيقنت ان جيشنا قد انسحب ونسيَ تبليغنا الأمر، وأما الخيالة هذه خرجت لتتأكد من انسحاب جنودنا، فأرسلت إلى الجنود الواقفين بقربي كي يتخفوا وينذروا الباقين بالنزول إلى الحفر ولزوم الصمت الكامل. مكثت أراقب هؤلاء مدة ساعة كاملة حتى عادوا، وفي عودتهم مروا بقربنا بمسافة ٥٠ متراً وكدنا ان ننكشف. بعد انتظار نصف ساعة تقريباً أمرت الجنود بالاستعداد للانسحاب. فسرنا متسترين بالاماكن المنخفضة حتى بلغنا السهل المكشوف لأنظار العدو، وهنا تقدمنا ممسكين بقلوبنا خشية ان يرانا العدو وقد ادركتنا العناية الإلهية فاجتزنا السهل من دون ان يرانا أحد. وفيما كنا نسير على طريقنا من غير هدى إذ بفارس يقترب منا وينادي من القوم؟ فتبين انه رسول يبحث عنا وقد مضى عليه بضع ساعات يحاول الاهتداء الينا. دفع إليَ برسالة علمت انها الأمر بالانسحاب وانصرف الفارس. لم استطع الاطلاع على مضمونها لصعوبة الإضاءة خوفاً من العدو لذلك تابعت السير وانا على يقين مما تتضمنه تلك الورقة ولما أصبحنا في منأى من العدو جلسنا أرضاً طلباً للراحة. عندها أتتني فكرة شيطانية قررت تحقيقها مهما كلفني الأمر. أشرقت الشمس وتابعنا السير إلى أن بلغنا وادي ظليل يخترقه نهر صاف وعلى ضفافه أشجار باسقة، فأمرت الجنود بالتخيم على ضفة النهر وطلبت إلى بعض الجنود أن يقصدوا إلى قرية بدت لنا على مسافة ساعة تقريباً ليأتونا منها ببعض الأغنام والبرغل والدقيق والملح بأي وسيلة كانت، وفيما الجنود في ثيابهم عاد رفاقنا من القرية ومعهم جميع ما طلبناه بكمية وافرة، فعملت السكين في رقاب الأغنام وأضرمت النار وطغت على الجنود موجة ابتهاج عندما أعلنت لهم

استراحة لمدة ٣ أيام في تلك المنطقة الجميلة سيما عندما شاهدوا الطعام والمياه والظلال وأعظم من ذلك فكرة التواطؤ التي جعلتهم يشعرون اني كنت أكثر من قائد لهم بل راعياً أميناً وأخاً رحيماً لقد علموا أنني أخذت تبعة هذا العمل على عاتقي في سبيل راحتهم ورفاهيتهم. انصرفوا إلى غسل ثيابهم بالصابون والماء الساخن ثم ألقوا بأنفسهم في النهر كما انجبتهم أمهاتهم أول مرة، ريثما تجف ثيابهم وما ان انتهوا من عملهم هذا حتى كان الطعام جاهزاً وملأوا بطونهم من البرغل واللحم ثم انصرفوا إلى النوم بعد ان أعدوا لي فراشاً وثيراً من القش. ناموا ملء جفونهم حتى صباح اليوم التالي فقضينا ثلاثة أيام بين نوم واغتسال ورقص ولعب واغان وقصص أقصها عليهم من ألف ليلة وليلة ومن شكسبير باللغة التركية طبعاً. ولما اقتربنا من مقر قائد الفرقة عاصم بك أمرت الجنود بالتعارج وتعفير وجوههم بالتراب وإظهار التعب والنهوك والسهر والجوع ولم أنسَ ان أفعل ما فعلوا ثم دخلت خيمة القائد أجرُ ساقاي جرّاً حتى تهالكت على كرسي بجانب القائد الذي نهض وأمسك بيدي قائلاً : ماذا جرى لكم. وأين كنتم؟ لقد ظننا انكم وقعتم أسرى بيد الانكليز. أجبته عفواً سيدي لقد انسحب الجيش وبقينا حيث تركتمونا وكدنا نقع أسرى غنيمة باردة. لولا ان يسر الله وانسحبنا متسترين بظلمة الليل فسرنا نبحث عن الفرقة ونحن نجهل الوجهة التي اتخذتها ولم نقف لها على أثر وضللنا الطريق وسلكنا دروباً بين الجبال المتشابكة وتهنا كما تاهوا بني اسرائيل في صحراء سيناء. لقد أضنانا التعب والسهر وها هي السرية على الطريق تنتظر اوامركم خرج صاحبنا وألقى نظرة على الجنود فأدهشه الحال الذي كانوا عليه وأبدى أسفه الشديد، وأمعن الجنود في التمثيل وكان مشهداً مؤلماً انفطر له قلب ذلك القائد الرؤوف، فقال: مساكين هؤلاء الجنود، خذهم إلى الوادي المجاور ليأخذوا راحتهم لمدة ثلاثة أيام، وها انا مرسل لكم ما تحتاجون إليه من الطعام بكمية وافرة، بارك الله فيك، إذهب يا ولدي واجتهد ان ترفه عنهم ما استطعت ولا تتأخر عن طلب ما يلزمك في سبيل راحتهم وانعاشهم. لما سمع الجنود ما قاله قائد الفرقة كاد بعضهم ان يستوي على قدميه فتنكشف الحيلة لكن الله أدركنا بلطفه وغادر القائد إلى الخيمة قبل ان ينفضح أمرنا. تابعنا سيرنا البطيء التمثيلي حتى بلغنا المكان المعين وهناك قضينا ثلاثة أيام أخرى ننعم براحة مرخصة لا تهريباً كسابقتها

ثم عدنا إلى مراكزنا في خطوط النار ونحن أكثر ما نكون استعدادا للحرب. مرَّ شهران ونحن في أخذ ورد مع العدو، تارة نهاجمه وطوراً يهاجمنا، وحالة الجنود تزداد بؤساً يوماً بعد يوم والملاريا تفتك بهم فيبعثون بالمرضى إلى مستشفى نقال وراء خطوط النار. أما أنا فكانت صحتي من القوة بحيث لم تفعل الملاريا فعلها مع ان جنودي جميعهم زاروا ذلك المشفى أكثر من مرة، ووددت لو أصاب بهذا المرض حتى أنعم بشيء من الراحة بضعة أيام ذلك لأني سئمت الحياة في تلك البقعة المحرقة والماء الكريه الرائحة والطعام الرديء والسهر ليلاً والعذاب نهاراً فقصدت الطبيب وأعلنت له إصابتي بالملاريا، فاذن لي بالرجوع إلى المشفى. عاينني الأطباء هناك فلم يجدوا أثر لذلك المرض، لكن لم يكن بد من استضافتي بضعة أيام لكشف ذلك المرض، تناولت في تلك المدة من الكينا ولقيت من شر مذاقها ما حبّب إليَ خطوط النار، لكنني في عشية اليوم الثالث سمعت حواراً على الطريق بين شخصين تردد فيه اسمي ثم سمعت صوت ابراهيم الخادم ينادي عبدالله أفندي هنا أخوك عثمان يبحث عنك فهرعت إلى الطريق ويدور في رأسي ألف خاطر، فشاهدت فعلاً أخي عثمان وبيده سلة فاكهة كبيرة وعلى رأسه الطربوش وهو الطربوش الوحيد في تلك الأصقاع فسألته من دون ان أسلم عليه ما الذي أتى به إلى هنا؟ وكيف اهتدى إليَ؟ وكيف تمكن من الوصول إلى ساحة الحرب، وأخي هذا يصغرني بخمس سنوات وعمره يومئذٍ اربعة عشر عاماً. لقد علمت انه حردان من البيت والأمور لا تجري كما يشتهي فسافر إلى الشام مع كميونات الدواب ثم ركب القطار إلى درعا فعمان من دون ان يدفع ثمن التذكرة وفي عمان صادفه جندياً متجهاً إلى مواقعنا فنقده ريالين وركب الدابة التي معه مع سلة الفاكهة إلى ان بلغ المستشفى الذي أقيم فيه على جانب الطريق، وهناك سأل أحد الجنود عن مركز عملي وكان ابراهيم لحسن حظي واقفاً هناك فعرف وانذرني بمجيئه أو بشّرني، قضى أخي تلك الليلة بجانبي في المستشفى وكنت طيلة الليل أفكر في هذه الزيارة المزعجة والتي لم تخطر على بالي وانتهى بي التفكير إلى ان استثمر قدوم أخي إلى ساحة الحرب، فقصدت في الصباح إلى أصحابي الأطباء وبعد ان قدمت لهم شيئاً من التفاح والعنب والإجاص فكانت هدية يسيل لها اللعاب في ذلك الظرف. طلبت إذنا لزيارة مقري في الجبهة ثم قصدت إلى قائد

الفوج مصطحباً أخي فوجدته يلعب الورق بمفرده كعادته في تمضية الوقت، وما ان شاهدنا حتى ضحك وقال: نعم عبدالله أفندي أظنك أتيت تطلب إذناً مني لتذهب إلى بيروت وأرجح أنك تريد ان تدعي ان أخاك هذا أتى خصيصاً ليخبرك ان أهلك جياع وان والدتك في خطر، أليس كذلك؟ لله درك ما أعظمك من قائد حكيم وما أكبر قلبك لقد تنبأت عن كل ما أردت عرضه عليك من أقوال الزور وقطعت عليَ الطريق فليس لي ما أقوله في حضرتك وانت تعلم شوقي إلى أهلي وحنيني إلى الديار وافترت شفتاه عن ابتسامة فيها كل معاني الرضا والعطف وأجاب إذهب إلى قائد الآلاي وزين له ما كان بودك ان تزينه لي فانا لا أملك حق الترخيص لضابط في ساحة الحرب على الرغم من اني من صميم فؤادي اود ان أقدم لك ما أستطيع من مساعدة فذهبت إلى قائد الآلاي فوجدته ممدداً على الأرض يقرأ في كتابه فحييته التحية العسكرية وسردت على مسمعه ما أوحاه الشيطان لي ما قد يرق له قلبه، وقلت له ان والدتي على فراش الموت وقد أرسلته ليأتِ بي اليها سيما أخوتي جياع ليس عندهم طعام ولا مال. ولما كان يعطف عليَ عطفاً خاصاً ألقى عليَ نظرة حزن وإشفاق وقال لي أنه يود من صميم قلبه لو يستطيع تحقيق رغبتي وانه عليَ ان أعود إلى قائد الفيلق وهذا لا يعرفني وسأعود حتماً من دون نتيجة. عندها تبسم وقال: إذا أعطاك قائد الفوج عثمان بك ترخيصاً فأنا لا أعارض بل أتجاهل الأمر كلياً. عندها تهللت أساريري وأيقنت أن الأمر قد انتهى فهرولت إلى عثمان بك ونقلت اليه ما قاله لي قائد الآلاي فأعلن إبتهاجه وأمر الكاتب ان يكتب ترخيصاً بالمدة التي اقترحها أنا وبعدما قلت ١٥ يوماً وكل اعتقادي أنني أسرفت في طلبي فأمر الكاتب ان يجعلها ١٥ يوماً عدا وقت الطريق وهذا لعمري انها مكرمة تسجل لهذا القائد السمح إذ ان مدة الطريق غير محدودة وباستطاعة المأذون أن يجعلها أشهراً. ولكني كنت أقدر التبعة التي يتحملها عثمان بك وهو الذي أسدى لي معروفاً يجب أن أقابله بمثله لذلك لم يخطر ببالي أن اتأخر يوماً واحداً عن المدة التي سجلتها على نفسي وهذا كان السبب في شقائي ١٥ يوماً لقيت فيها من العذاب والشقاء ما لم ألقاه طيلة حياتي العسكرية.

أعطاني عثمان بك ترخيصاً بنصف قنطار قمح وتذكرتين للقطار وبينما انا في كهف الكاتب انتظر الأوراق إذ به يطلب مني ان أشتري له من زحلة تنكة عرق ويعطيني ثمنها مقدماً

فرفضت وأعلنت له أني لا أشتري الخمر ولا أنقله فغضب وحاول إقناعي في تحليله وتحريمه من دون جدوى فثارت ثائرته وتفوه بشتائم بذيئة فرددتها له فنهض ليضربني وكان مع طوله الفارع أضعف مني قوة فأطبقت على خناقه بيدي اليسرى مسنداً رأسه إلى سقف الكهف المنخفض وجعلت أضربه باليد اليمنى وأخي يشهد هذا الصراع ولا حيلة له إلا الصراخ فسمع إمام الفوج هذا الصراخ فهرع إلى مصدر الصوت ورآنا نقتتل وما ان أمسك بالكاتب حتى تركتهما متماسكين وامتطيت جوادي وأجلست أخي ورائي مطلقاً العنان لأنجو من شر ذلك المجرم، فربما كان في هذا التصرف من قبلي سبباً في لحرماني من السفر إلى بلادي. قضينا أول ليلة في قرية يسكنها الجركس الذين ابعدتهم الدولة عن بلادهم لأسباب سياسية وأستضافنا مختار القرية وعند الصباح ودعت صاحب البيت وتابعت السير إلى عمان. في الطريق شاهدت أمامي على بعد مئتي متر تقريباً ثلاث بدو مسلحين بالبنادق وأعينهم مشدودة إلينا تنذر بالشر فتهيأ لي أنهم قطاع طرق فتوقفت عن المسير ولكنني خشيت ان يستضعفوننا ويفتكوا بنا فناديت على الخادم إبراهيم وكان يتبعني على مسافة قريبة وقلت له بالعربية بلّغ الخيالة ان يسرعوا فقد تأخرنا عن القطار وكررت كلامي مرات عدة وما ان سمع البدو هذه الكلمات حتى انسحبوا سالكين الطريق الجبلي وغابوا عن الأنظار. بلغنا عمان وركبنا القطار إلى درعا فدمشق وقضينا الليلة في أحد فنادقها وعند الصباح قصدنا إلى محطة البرامكة وأثناء انتظار القطار تمددت على أحد المقاعد وخرج أخي إلى الرصيف يتفرج على القطارات الرائحة والغادية وفيما أنا في سنة النوم إذ بأخي عثمان يناديني: ان أخويك محمد سعيد وعمر في القطار، كانت مفاجأة عظيمة، فاندفعت إلى القطار لأشاهد أخي محمد سعيد وقد لبس بذلة ضابط يحوم حول القاطرة التي حشر فيها الجنود وفي جملتهم أخي عمر. سلمت على محمد سعيد ثم طلبت من الرقيب المكلف أن يسمح لأخي عمر بالخروج من القاطرة للتسليم علينا فلم يمانع، وبعد تبادل التحيات وأطراف الحديث علمت انه كان مأذوناً فقد انتهت مدة الإذن فساقوه إلى دمشق لإحالته على إحدى القطع العسكرية، وان محمد سعيد رافقه بالقطار نفسه ليسعى في خلاصه والعودة به إلى بيروت وهو بحاجة إلى من يخلصه. لا تسل عن السرور الذي غمر قلب أخوي

لمشاهدتي وعثمان الفار وقد مضى عليهما أشهرا ولم يبلغهم خبر عني وقد اطمأنوا لوجودي معهم وانا ضابط حقيقي لا ضابط مزور مثل أخي محمد سعيد. وبعد هذا اللقاء المفاجئ اتجهت قلوبنا إلى الوالدة في البيت، وقد غاب عن أعينها أولادها الأربعة لا تعلم عنهما شيئاً، ووددنا لو نطير لنحمل لها خبر اجتماعنا وقرب عودتنا جميعاً. عندها أصدر أخي محمد سعيد أمره العسكري إلى عثمان قائلاً: اركب القطار إلى بيروت وبلغ الوالدة أننا بعد بضعة أيام نكون عندها، ولا يمنعك مانع من الوصول إلى بيروت بأسرع وقت واذا توقف القطار استأجر دابة أو عربة مهما كلفك الأمر فاذهب على قدميك حتى تصل إلى بيروت. ودعناه وتركنا أخي عمر بالقطار بعد ان تأكد لنا أنه ذاهب إلى المشفى العسكري للمعاينة، وقصدنا إلى ابن عم لنا عريق في الجندية وأساليب التملص من قيودها اسمه نبهان أو ابو عون وكان يسكن في محلة مئذنة الشحم وينعم بكثير من الرفاهية والدلال، اذ كان لصاحبة البيت بنات برسم الزواج، وابن عمنا معروف لديهم انه أعزب وميسور وفيه الكثير من المميزات المغرية. وفي ظرف كهذا لا تسل عن التدليل والمداراة لرجل أعزب مثله. وفور دخولنا عليه بادرنا بقوله لا تنادوني أبو عون بل نبهان فقط، ثم قام نحونا بواجبات الترحيب والتأهيل وعلى المائدة الغنية التي أعدها لنا فأخبرنا أنه يعيش عيشاً رغيداً في هذا البيت بوصفه شاباً عازباً برسم الزواج، فحكى لنا قصته وضحكنا لها كثيراً وذلك ان إحدى قريباته أتت دمشق في شغلٍ لها فزارته ونادته أبو عون ولما سمع أهل البيت هذا النداء تبدل موقفهم منه وكفوا عن مداراته. ولما فطن ابن عمي للأمر قام بجهود كثيرة لإقناعهم بأنه لم يكن متزوجاً وليس له ولد باسم عون لكن الأهل يلقبونه بأبي عون لأن إسم والده عون كما تقتضي التقاليد في بلادنا. ولا تسل عن الشتائم التي قذف بها تلك القريبة التي كادت تفضحه في ذلك الظرف الحرج، شتائم فيها كثير من المداعبة والطرافة فهو معروف بخفة دمه وظرفه في محيطه. نقلنا إلى ابن عمنا ما كنا نبغيه من هذه الزيارة فقام بسعي طويل حتى تمكن من الوصول إلى طبيب العينين العسكري فاتفق معه على أن ينقده أربع ليرات ذهبية عن كل شهر يعطيه لأخي عمر لقاء إعفاءه من الخدمة فقررنا شراء ثلاثة أشهر لقاء ١٢ ليرة ذهبية، وفي ثلاثة أيام جرت المعاينة وشهدناها بأنفسنا من الشباك وتأكد لدينا انه أعطى ثلاثة أشهر كما

جرى الإتفاق. عندها حزمنا أمرنا على العودة إلى بيروت، أنا وأخي محمد سعيد على ان يلحق بنا أخي عمر بعد انتهاء الإجراءات الشكلية. وكان الفرح عظيماً لبشرى عودتنا جميعاً بعد ان تفرق شملنا وخلا بيتنا من الرجال. فتحت الوالدة الكيس المغلق وأنفقت من المال على الطعام والولائم والصدقات وكان بيتنا يعج بالضيوف والمهنئين. فقضينا عشرة أيام من أجمل أيام حياتنا، انقضت المدة المقررة فأخذت أتهيأ للرحيل. أسفت والدتي وعاودتها الأحزان وتوسلت إليَ أن أمدد فرصتي يومين آخرين حتى أشاركهم أيام عيد الأضحى فأجبتها أني وعدت القائد الذي أسدى إليَ المعروف ومنحني هذه الفرصة وهو يحمل تبعتها فلا أستطيع النكث بعهدي. تزودت من الأطعمة المحفوظة والأغطية فملأت صندوقاً كبيراً يزن نحو الـ ٥٠ كلغ ثم ودعت الأهل وقصدت إلى محطة القطار لألقى أكثر أيام حياتي شقاءً وعذاباً. ذلك لأنني لم أذعن لنصيحة والدتي وهي التقية الورعة التي كان يصدق إلهامها وتتحقق نبؤاتها في أكثر الأحيان. لقد نصحت أخي مرة أن يؤجل سفره إلى دمشق يوماً آخر فأذعن لأمرها فكانت النتيجة ان تدهور القطار في سرغايا وقتل أكثر ركابه وجرح الباقون. ولو أني أجلت سفري يومين تحقيقاً لرغبتها وبقيت في البيت لوفرت على نفسي المشقة والخسائر، فقد عمّت أخبار إنسحاب الجيوش التركية من جميع البلاد بعد سفري بيومين.

المرحلة الأخيرة من مراحل الشقاء

ركبت قطار الشحن وجميع عرباته مقفلة إلا عربة الحطب المرتبطة وراء القاطرة فلم أجد مكاناً آوي اليها غيرها فألقيت بنفسي مع صندوقي الضخم فوق كوم الحطب، لما كان الوقّاد من أصحابي فقد أسدى إليَ معروفاً بأن أذن لي بالركوب معه، مخالفاً تعليمات إدارة السكة ووجدتني مضطراً إلى مساعدته بمده بالحطب من العربة كلما دعت الحاجة، فأصبحت بذلك مساعد الوقاد كان الأمر سهلاً لو وقف عند هذا الحد ولكن الشرر والوقود أخذ يتطاير بكثرة ويلطخ وجهي وثيابي فاضطررت أن أغطي نفسي بالبطانية طيلة الطريق، وأنكى من ذلك كله أن انتابتني نوبة الملاريا لأول مرة وكانت وطأتها شديدة عليَ فكانت ليلة لم يقض أحد مثلها لا قبلي ولا بعدي. لاقيت من الأهوال والمصاعب في سفري من دمشق إلى درعا فعمان فالسلط فالشونة والله أعلم به، ولما بلغت مقري قصدت فوراً إلى عثمان بك فحييته

فبادر بقوله: ما هذه العجلة لو انك قضيت أيام العيد مع أهلك يا ولدي لما تأثر الجيش بالقدر الذي تتصوره عندها تأكد لدي أنني كنت أحمقاً وملكياً أكثر من الملك، ولكن عزيت نفسي بقولي أنني عدت في الوقت المحدد براً بوعدي ومقابلة لمعروفكم، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ ثم قدمت له هديتي وهي سلة من الليمون الحامض وهذه لعمري أثمن هدية تقدم في وقت كهذا. حملها القائد يداعبها كأنها إبنته وأقبل الضباط للسلام عليّ وينال كل واحد منهم نصيبه(حبة واحدة) وكأنها جوهرة يا لها من هدية أثلجت قلوبهم وانطلقت ألسنتهم بالشكر والثناء. وما ان أسدل الليل ستاره حتى استدعانا عثمان بك وقال: اننا نخشى هجوماً من قبل الانكليز هذه الليلة فعليكم السهر وأخذ الإستعداد. قضينا الليل نراقب الحراس والمدافع والجنود وكذلك مضى النهار من دون أن يغمض لي جفن وعند منتصف الليل التالي ذهبت إلى كهفي لأنام ساعتين ولم أكد أغمض جفني حتى أتاني رسول يحمل أمراً من القيادة العامة فأشعلت السراج وقرأت ما نصه: عند وصول هذا الأمر إحضر مع السرية وجميع الأحمال إلى الطريق العام عند الجسر؟ . خرجت أوقظ الجنود، وكانوا أكثر من بحاجة للنوم والراحة، فاستنهضت هممهم وحمَلْتهم على إعداد السرية وتحْميل الأثقال وساعدتهم بنفسي على تحميلها وكان نصيبي من هذا العمل أكثر من نصيبهم مجتمعين، ثم سرنا بين الجبال حتى بلغنا الطريق العام عند النقطة المحددة لنا فوجدت ألوف الجنود واقفين على ذلك الطريق بصفوف متراصة باتجاه السلط تقدمنا نحوها فبلغناها قبل الفجر وهناك توقفنا بانتظار أوامر جديدة. رأيت رجال المدفعية يتعاونون على تخريب مدفعين من عيار ١٥٠ ملم وإسقاطها في الوادي عند مفترق السلط كي لا يستفيد منها العدو، وهنا تأكد لدينا أننا نقوم بحركة انسحاب شاملة. ان هذا الجيش المنسحب يتألف من ١٨ الآلاياً، ولما رأت القيادة ان الوقت لا يتسع لبلوغ عمان قبل ان يدركنا جيش الخيالة الاسترالي وعدده عشرة آلاف عمدت إلى التضحية بأحد الآلايات وتركه لمحاربة العدو (لإشغاله) مدة ١٢ ساعة ليؤمن طريق الانسحاب للجيش فوقع الاختيار على الآلاي المؤلف من ٣ أفواج ويضم ٧٠٠ جندي. تلقينا الأمر بالعودة خفافاً إلى حيث كنا إلى تل النمرين قرب الشونة وان نترك أثقالنا في رعاية الجيش، عندها طلبني عثمان بك وكان معه إمام الفوج



قوات خيالة(انزاك) انكليزية في مقدمها الفريق كوكس

فأسرّ الينا انه يريد طمر خزنة المال الخاصة بالفوج وفيها مقدار ألفي ليرة ذهبية على أن نأخذها في عودتنا لأنه كان يخشى أن تُفقد إذا هو أرسلها مع الأثقال، بعد ان كاد حبل النظام ان ينقطع. أخذت البغل الذي كان يحمل الخزنة بيدي وانزوينا به نحن الثلاثة في مكان بجانب الطريق من دون أن يشعر بنا أحد ونبشنا حفرة في نقطة تبعد خمسين متراً عن الطريق وهناك دفنّا الخزنة وجعل فوقها طبقة تراب لا يزيد سماكتها عن الشبر الواحد. والطريف في ذلك اني لم أذكر هذا العمل إلا سنة ١٩٤٣ أي بعد ٢٤ سنة من تاريخ دفنها، وقد حاولت الإهتداء إلى الموقع التقريبي لهذا الكنز في طريقي إلى القدس فلم تساعدني الذاكرة لطول عهد دفنها واعتقد انها لا تزال في مكانها حتى هذا التاريخ لأن هذا السر كان محصوراً بشخصي، فإمام الفوج وعثمان بك قتلا في موقعة جرت لنا مع الانكليز في الرمثا التي سيأتي الحديث عنها. رجعنا إلى حيث صدر الأمر وما ان ابتعدنا قليلاً حتى رأينا سرباً لطائرات العدو يرمي قنابله على الجيش المنسحب بجوار السلط، وكان هدفنا مؤاتياً بالقنابل فقتل منه عدد كبير وحمدنا الله اننا لم نكن معهم في تلك المجزرة على الرغم من اننا كنا

لسان الحال الجمعة ٩ تشرين الاول ١٩٣١

ذهب من بقايا الجيش التركي

١١٥ الف ليرة ذهبية في نهر الاردن

نقل الينا مخبرنا المحلي حادثاً هذا تفصيله :

في شهر ايلول من عام ١٩١٨ عندما جلا الجيش التركي عن فلسطين كان الضابط محمد مؤيد بك قومندان المنزل في نابلس قد تلقى امراً عاليا باتلاف ما بين يديه من المال فاحرق مقداراً من الورق التركي والقى في نهر الاردن بالقرب من بيسان ثلاثة وعشرين صندوقا يحتوي كل منها على خمسة الاف ليرة ذهبية

وفي شهر ايلول المنصرم من العام الحالي جاء القومندان المومأ اليه انفا من تركيا الى بيروت حيث له فيها اصدقاء كثيرون تعرف بهم خلال الحرب يوم كان قومندان محطة قبل نقله الى قومندانية المنزل في نابلس فاجتمع باحد اصدقائه السيد يوسف الخوام احد اصحاب الفنادق المعروفة بهذا الاسم في لبنان وسورية على اخراج هذه الصناديق المحتوية على ١١٥ الف ليرة ذهبية من قعر نهر الاردن حيث كان القاها

وعلى هذا الاتفاق عند الخواجه خوام تفاهما مع السيد ديمتري سلامه المدير العام لمحال شركة كوك في فلسطين ثم استحصلا من السلطة البريطانية المنتدبة في فلسطين على امتياز باخراج هذه الصناديق الذهبية من قعر نهر الاردن وفقا للشروط التي تجعل ما يستخرج من الكنوز مناصفة بين صاحب الكنز وحكومة الانتداب وعلى هذا توجها الى شرق الاردن مصحوبين بارشد بك حلل وباشروا العمل لتحويل مجرى النهر «نهر الاردن» عن مجراه الحالي لاخراج هذه الصناديق

. . . .

متوجهين إلى مجزرة أشد هولاً وأعظم خطراً. كنا نعلم حق العلم اننا سنقابل جيشاً هو من القوة وكثرة العدد ما يعرضنا إلى الموت كافة، تابعنا السير حتى وصلنا تل النمرين المشرف على السهول الممتدة بيننا وأريحا، نحن في حالة يرثى لها بسبب الجوع والسهر، أصدر القائد أمره بحفر الخنادق على رؤوس التلال استعداداً لمواجهة العدو. ظهرت خيالة العدو عند الظهيرة بالآلاف وكان منظرها رهيباً والغبار يملأ الفضاء، ولما علم القائد بهذا العدد الهائل أمر بإطلاق النار من خطنا، كنا نراقب قدوم الخيالة وقلوبنا تخفق من الخوف سيما ان الجنود وقفوا على حقيقة الواقع وعرف كل واحد منهم انه كان ضحية رخيصة يفتدي بها

الجيش رجاله وقادته وما ان اقتربت الخيالة إلى مدى ألف متر فتحنا النار وأجبرناهم إلى التراجع، ثم هم بدورهم قاموا بإطلاق النار علينا وبقيت هذه الحال حتى المغيب، عندها صدر الأمر بالإنسحاب فحملنا الرشاشات بسرعة البرق وسلكنا طريقاً وعراً بين الجبال قاصدين جرش وكان اعتقادنا أن العدو سيسلك الطريق المعبدة. كان معنا ٤ مدافع ألمانية جبلية يصحبها بضعة عشرة رجال ألمان، فلاقى هؤلاء العذاب ما لا حد له إذ كانوا يحملون المدافع على ظهورهم عندما كانت الدواب تعجز عن حملها أو جرّها صعوداً في دروب وعرة.



قوات(انزاك) انكليزية في السلط

عند منتصف الليل وجدنا أنفسنا قرب نهر يخترق بركة كبيرة تحيط بها الأشجار الباسقة وعلى مقربة منها بعض البيوت القروية. هنا أعطى القائد أمره بإستراحة قصيرة فخرَّ الجميع ممددين على الأرض وخفتت الأصوات إلا من شخير الأكارم بالجملة وقصدت إلى أحد تلك البيوت أطلب طعاماً فاشتريت شيئاً من الخبز والعسل وكان طعاماً شهياً وبعدها قذفت بنفسي على الأرض للنوم واعتقد أن شخيري طغى على الأصوات المتنافرة التي كانت

تتصاعد من شخير سبعمئة مقاتل غارقين في سبات عميق وقد تجمعوا إلى بعضهم كأنهم قطيع غنم. صحوت بعد ساعتين لأجد الكل نياماً لا حارس ولا ضابط، فنهضت أبحث عن القائد فأيقظته وبينت له سوء العاقبة اذا طال بنا المقام أكثر من ذلك، فدوّى صوت النفير منذراً بمتابعة السير، كنت أقدم جوادي إلى الذين اشتد بهم التعب من جنودي لأتجنب شرَّ الإغفاء على ظهر الجواد أو السقوط على الأرض. من هذه الموقعة مهزلة وأن تتم فصولها بأن يقوم بمحاولة هجوم منظم بجيش مؤلف من خمسة محاربين، إذ دعا إليه خمسة من الفدائيين جعل اثنين منهم على يمينه وسماهما الميمنة واثنان عن يساره وسماهما الميسرة وجعل من نفسه مع الجندي الخامس القلب ثم أخذ يصدر أوامره حسب التقليد الحربي، فتقدم الميمنة ثم الميسرة ثم القلب، فكنا نضحك لهذا التصرف الغريب ونسينا أننا في معركة لن ننجو منها فبين الدعابة والاستهزاء بالعدو تقدم جيش عثمان بك حتى غاب عن أنظارنا ونحن عند مواقعنا نطلق النار ونتلقى وابل الرصاص، وفي غمرة هذه المعمعة أتانا رسول قائد الآلاي الذي نجا بنفسه وأعطاني أمراً منه إلى عثمان بك فرجحت انه يأمره بالانسحاب ومتابعة السير، فقلت للرسول إذهب بنفسك وسلمه الأمر لأني لست مكلفاً بأن أعرّض جنودي لنقل رسالة انت مكلف بنقلها زحف الرسول على بطنه متجهاً إلى حيث عثمان بك موجود، وبعد نصف ساعة تقريباً عاد الرسول وهو يعاني من إصابة في كتفه وأخبرنا أنه تم تسليم الرسالة بيده لكن عثمان بك أجابه: بلّغ قائدك الأخرق أن أمره أتى بعد فوات الأوان ولا نصيب لنا إلا حفرة في باطن هذه الارض ولم يكد يبتعد عنا الرسول قليلاً حتى أصابته طلقات رشاش العدو وسقط ميتاً، والرسالة الموقعة لا زالت في يده. لقد أمعن العدو في تطويقنا فأصبحنا نقطة داخل نصف دائرة وغدا الرصاص يأتينا من الجانبين، وقد نفد منا الرصاص وقتل منا نحو ٤٠ رجلاً ولم يبقَ في صمودنا أي فائدة فأعطيت أمري بالانسحاب إلى القرية متسترين بتلك الروابي، وتبعنا جنود المشاة فتجمع من سلِم في ساحة القرية وعددنا يقارب المئتين بين جريح وصحيح. هرع رجال القرية وتجمعوا في تلك الساحة قربنا فشاهدنا على وجوههم امارات الضغينة وشهوة الانتقام، ولو انهم تبينوا ان الذخيرة قد نفذت منا لما احجموا عن ذبحنا حتى آخر جندي. شرعوا يجسّون نبضنا ليقفوا على

مدى قوتنا، فمدَّ أحدهم يده إلى بندقية جندي بقربه ومدَّ القروي الثاني يداه إلى حصان بجانبه وأخذوا يرقبون بعيونهم الفاحصة ردّ فعلنا، بدت علامات الضعف والخوف على وجوه الجنود وقد آلمني ما شاهدت وخشيت سوء العاقبة وتأكد لي أننا إذا لم نعمد إلى الحزم أفنونا بطرفة عين. عندها حلت عقدة لساني وانتابتني نوبة غضب للكرامة وعزة النفس فدعوت الضباط إليّ وقلت لهم أيها الرفاق نحن هنا في خطر داهم وأدهى من خطر الانكليز، فهؤلاء البدو يضمرون لنا حقداً وكراهية، وها هم يجسون نبضكم حتى اذا آنسوا منكم الضعف فتكوا بنا وأفنونا عن بكرة أبينا، فوكّلوا أمركم إلى أحدكم كي يتسلم القيادة ويصدر ما يراه مناسباً من التعليمات والاوامر لينقذنا من هذا الخطر المحدق ونحن نطيعه على السراء والضراء. عندها أعلن كبيرهم النقيب معمر بك وقائد إحدى سرايا المشاة: نحن نوكل قيادتنا إليك فأنت تجيد العربية والانكليزية ولا أحد أجدر منك بهذه المهمة الخطيرة في هذا الظرف، فأصدر اوامرك. عندها أعلنت للجنود قائلاً: أنا قائدكم وعليكم طاعتي وتنفيذ اوامري بحزم ومن دون تردد، وأنا أضمن لكم سلامتكم بإذن الله من شر الانكليز. ثم أصدرت الأمر: إملأوا البنادق فطغى صوت أقسام السلاح(المزاليج) كأنهم يملأون البنادق فعلاً، مع أن أحداً منهم لا يملك رصاصة واحدة، والأمر في الجندية ينفذ ولو صورياً من دون سؤال، ثم أمرت الرشاش ان يتخذ مواقعه على جدار مجاور يعلو متراً عن الأرض وأن يصوب الجميع بنادقهم ورشاشاتهم نحو البدو المنتشرين في الساحة. هنا وجم البدو وغشيتهم موجة من الذهول والحيرة فخاطبتهم باللغة العربية قائلاً: أيها العربان سأمهلكم دقيقة واحدة حتى تنصرفوا إلى بيوتكم وبعدها أصدر الأمر بإطلاق النار والويل لمن يتخلف ويبقى في الساحة، فاندفعوا كالموج العارم نحو بيوتهم يتدافعون وبطء البعض منهم وفي طرفة عين كانت الساحة خالية وارتفعت أصوات الهرج الممزوجة بالسخرية من تصرف البدو المضحك وعلت هتافات التقدير لهذا الفوز الذي احرزته فهرع الجنود يعلنون تقديرهم وطاعتهم ولم يستنكف الضباط عن إعلان إخلاصهم لي وتأييدهم ولما استوثقت من ذلك أمرتهم بالإنتظام أثنين اثنين والضباط في المقدمة فامتثلوا للأمر فرحين ثم أمرتهم بالسير إلى خارج القرية وقد قررت أن أقدم على خطوة، على عمل خطير وأنا أخشى أن لا

يتقبله الجنود أو البعض منهم، قررت الاستسلام بعد أن نفذت منا الذخيرة ولم يعد هناك ما يبرر المقاومة، ولما لم يكن لدينا قماشاً أبيض اللون إلا بطانية ردائي الذي أحمله على ساعدي، قلبت هذا الرداء حتى تظهر البطانية البيضاء وأخذت الوح به حتى برز من ناحية العدو فارسان وهما يقتربان بتؤدة وحذر، ولما أصبحنا على مسافة خمسين مترا أعطيا إشارة يطلبان بها طرح السلاح أرضاً، فطلبت إلى الجنود ان ينفذوا الأمر ولما اقتربا منا قلت لهما انني اتكلم الانكليزية فيمكننا ان نتفاهم بها فأظهروا ارتياحهما وتابعنا الطريق في حديث عن موقعة ذلك النهار والجنود تبدو الدهشة على وجوههم ممزوجة بكثير من الغبطة والطمأنينة فأنا أتكلم الانكليزية وقد ضمنت لهم بذلك حياتهم، سيما وقد رأوا الفارسين يضحكان ونتبادل الحديث معهم وكأننا نعرف بعضنا منذ زمن، بلغنا المقر الذي تتخذه الفرق وجلسنا على الأرض ننتظر الأوامر.



فارسان(انزاك) من القوات الانكليزية

شاهدنا أول ما شاهدنا معالف الخيل تنصب على إرتفاع متر بشكل نون والمياه الغزيرة تتدفق فيها من انبوب قطره ٧٥ ملم، ولما امتلأت المعالف أقبلت الخيل للسقاية، كل جندي يقود أربعة خيول فترتوي حتى شربت جميعها. هذه الفرقة من الاستراليين الأشداء المتمرسين والمكلفين بمطاردة جيشنا عن طريق جرش- الرمثا- درعا- دمشق. فيما أنا جالس مع الأسرى أتاني أحد الجنود يدعوني إلى مقابلة قائد الفرقة فتبعته وأدخلني صواناً فخماً حوى كل أسباب الرفاهية من ارائك وصحف وتلفون وراديو وقد جلس القائد وراء مكتبه ورحب بي وأجلسني بمقابلته. وسألني أأنت قائد هذه الشرذمة ؟ أجبته، كلا، بل أنا قائد سرية الرشاش فيها أما القائد بين الحياة والموت في البناء القريب منا، ما الذي حملكم على مقاتلتنا حتى سببتم قتل أربعين من جنودنا وأربعين من جنودكم؟ ولو أنكم استسلمتم قبل ذلك لوفرتم حياة هؤلاء المساكين. أجبته نحن انما قمنا بواجبنا ونفذنا الأوامر التي

أصدرتها قيادتنا. فسألني أين تعلمت اللغة الانكليزية؟ ولما علم انني تعلمتها في الجامعة الأميركية في بيروت وأنني بيروتي من أصل عربي، قال إذاً انت عربي واعتقد انهم جنّدوك بالإكراه. فأجبته انني عربي وانا تجندت في الجيش العثماني وهذا يضم أشتاتاً من الشعوب الخاضعة للدولة العثمانية وأنا بوصفي عثماني أقوم بواجبي كجندي لما يقوم غيري من الأتراك وبقية الشعوب. حسناً وهل ما يمنعك من الالتحاق بالجيش العربي؟ اني أعتقد أنهم بحاجة إلى أمثالك من ضباط الرشاش سيما وانت تتكلم اللغة الانكليزية، فهذه فرصة ثمينة لك. كلا يا حضرة القائد أنا لا استطيع ان أحارب الجيش بعد محاربتي في صفوفه وأخلصت له على الرغم من الآلام التي لقيتها فيه والشقاء الذي لاقيته في خدمته. قال إذاً أنت مكلف بالإشراف على جميع الأسرى وقد عينت الطبيب هذا، مشيراً إلى نقيب طبيب عند باب الصوان، ليكن إتصالك به بما له علاقة بطعام الأسرى ومعيشتهم ثم قدمني إلى الطبيب كما قدمه إليّ وصافحني ووجدت فيه الرجل الوقور الهادئ الذي كان وجهه ينم عن إنسانية رائعة وقلب كبير ثم سألني بعض الأسئلة وطلب مني الرجوع إليه في كل ما يتعلق بالأسرى وأوصاني أن أسمح لثلاثين من مرضى الأسرى بركوب العربات الضخمة التي تجرها الخيل وهي فارغة ويزيد عددها على المئة، فعجبت لهذا التصرف سيما وان هذه العربات فارغة ومن ضخامتها أنها تتسع لخمسين جندي، ولما شاهد استغرابي لهذا الأمر، نحن لا نستطيع ان نثقل العربات بالأحمال فالخيل تعبت وامامها مسيرة طويلة فاختر من الأسرى أشدهم مرضاً وأكثرهم تعباً ولا تزد على الثلاثين. لقد شهد رفاقي الأسرى دخولي صوان القيادة وحديثي مع الطبيب وعلموا انني أصبحت رئيسهم مدة الأسر، وهنا صار نفوذي أضعاف ما كان عليه قبلاً فالتف حولي الضباط وسعى كل واحد منهم التقرب مني ويحظى بعطفي أو يستأثر به من دون غيره وتوارى ثلاثة من الجنود كانوا قد تمردوا عليَ عشية المبيت في الرمثا فهاجموني وضربوني فاستولى عليهم الخوف والخجل فتهيأ لهم انني وجدت الفرصة المناسبة للانتقام منهم بعد ان صار أمرهم بيدي. عندها جمعت الأسرى وخاطبتهم قائلاً: نعم لقد أسندت قيادة العدو إليّ أمر طعامكم وشرابكم وانتقالكم وعلاجكم وجميع ما يتعلق براحتكم وتعلمون انني مطلق الصلاحية في كل ذلك، وربما خيل لبعضكم انني بحكم

هذه السلطة سأميز بين واحد وآخر بالمعاملة أو سانتقم من البعض الآخر. كلا ورب الكعبة فسوف أكون أرأف بكم من أمكم وأبيكم وسأعمل ما استطعت على تأمين قوتكم وراحتكم، ثم وجهت حديثي للذين اعتدوا عليَ وخاطبتهم قائلاً: لكم ان تخجلوا وليس عليكم ان تخافوا فلن انتقم منكم وانتم أسرى وفي ذمتي وليسمح لي باقي الجنود أن أميزكم ولو قليلاً حتى لا يتسرب الشك إلى نفوسكم وان أولي الضباط القليل من العناية والتميز لأخفف شيئاً من الفرق الذي انتهوا إليه من عنفوان السلطة إلى مذلة الأسر. أما الجنود الثلاثة فقصتهم طريفة تطلعنا على موقف الجنود من ضباطهم في ظروف الهزيمة عشية الليلة التي قضيناها في الرمثا طلبت إلى ضابط السرية الثانية ان يعيد إليَ خيمتي التي اقترضها مني فأجاب أن الجنود رفضوا تسليمها ومعلوم لديك ان الفوضى قد عمت الجنود بسبب الهزيمة التي نعاني ويلاتها فلم يعد لأحدنا نفوذ أو سلطة فغضبت لهذا الجواب الذي لم اك انتظره سيما وانا لا أزال قابضاً على ناحية جنودي لم أرَ من أحدهم أي ظاهرة للتمرد أو العصيان فقصدت إلى خيمة الضابط ورأيت على ما أبداه من تخاذل، فقال لي: إذهب بنفسك إذا شئت فتتجلى لك الحقيقة، فتوجهت إلى حيث يأوي الجنود وطلبت من العريف تسليم الخيمة فرفض بوقاحة وتفوه بكلمات نابية بوجهي وللضباط وللجيش فلم أر بد من صفع ذلك العريف فوقع أرضاً فارتد إليَ للانتقام وساعده اثنان من رفاقه واشتبكت معهم في صراع طويل، كلت وكالوا لي. ولكنني كنت من القوة بحيث ضربت الثلاثة وتركت على وجوههم آثار كدمات بارزة من اللطم، ومع ذلك فقد أصابني أحدهم على جبيني تركت أيضاً ندبة بارزة وبعد ان تدخل الضباط وفرّقوا بيننا وعدت إلى سريتي بخفي حنين وغطيت الجرح بالقلبق لكن جنودي الذين وصلهم خبر هذا الصراع أقبلوا عليَ ورفع الرقيب سليمان القلبق عن رأسي ليتبين الجرح في جبيني، وما أن شاهد الجنود الجرح هذا حتى هاجوا وماجوا وأعطى الرقيب سليمان أمراً إلى الجنود بتجهيز الرشاشات لمهاجمة السرية الباغية، فاندفع الجنود إلى رشاشاتهم يصرخون الانتقام الانتقام وصل الخبر إلى عثمان بك فأقبل عليَ مستغيثاً: آمان عبدالله أفندي أدرك جنودك ونجنا من مذبحة لا تبقِ ولا تذر. هرعت إلى الجنود وناديت الرقيب سليمان فأمرته بالعودة عن عمله الجهنمي هذا وأعلنت للجنود قائلاً: من كان يحبني

فليمتثل لأمري. وهنا هدأ الجنود وفي قلوبهم غصة وبكى الرقيب سليمان وهو يتمزق من الغيظ وعادت المياه إلى مجاريها فشكرني عثمان بك بعدما زاد يقينه بمحبة الجنود لي وعظيم إخلاصهم. هؤلاء الثلاثة أول من استرعى نظري بعد أن أصبح أمرهم في يدي فبحثت عنهم فكانوا متوارين حتى لا تقع عيني بأعينهم وقد وجدت لذة كبيرة في طلب الإحسان اليهم فبلغ هذا النوع من الانتقام في نفوسهم ان حاولوا تقبيل قدماي طالبين العفو عما بدر منهم. كان بين الضباط قائد السرية الثالثة كامي قاضي كوي وكان هذا صديقاً لي لتميزه ببعض الخصال وكنا على خلاف حول كلمة (خلط) كلما قلت له ان فلان جيد أو فلاناً صنع معروفاً، يجيبني ان هذا الفلان له غاية أو له هدف بدافع المنفعة وكل ما يدعيه من خير أو معرف فليس له وجود في قاموسه وان الشخص الطيب القلب ليس إلا جباناً أو مغفلاً، كان يردد كلمة خلط بمناسبة أو بغير مناسبة وعبثاً حاولت ان أقنعه بخطأه وهذا الضابط قررت ان أخصه بعنايتي لأبرهن له فساد نظريته لأني أجد لذة كبيرة في هذا النوع من المعاملة. وفيما نحن جلوس نتحدث ونراقب سقاية الخيل إذ بأحد الجنود يقبل عليَ قائلاً: لقد صعد البيت الذي لجأ إليه عثمان بك فوجدته في حالة النزاع وقد تهشمت ساقاه فهرعت مع بعض الضباط إلى ذلك البيت ووجدناه جثة على الأرض. ذهبت تواً إلى الطبيب الانكليزي وأخبرته عن وفاة قائد الفوج وطلبت منه السماح بدفنه فأبدى تأثره الشديد وبعد أن اطلع على أعمال البطولة التي قام بها في ساعاته الأخيرة. طلب إليَ أن أشرف على حفر قبر يتولى حفره ١٢ أسير يعملون على حفره بالتداول وحدد لي مقاس القبر (٢٠٠×٧٠×١٦٠). بعد ان تم الحفر حضر الطبيب وبيده مقياس للتأكد ولما لم يجد خطأ، طلب منا دفن الميت بحسب الطقس الاسلامي، فتقدمت وقرأت الفاتحة وردمنا التراب ووضعنا الحجارة حول القبر حسب تعليمات الطبيب ووضعنا قطعة خشب كتبنا عليها أسم الشهيد ورتبته العسكرية ونصبناها فوق الرأس ولما انتهينا من عملنا وقف الطبيب النقيب بخشوع واحترام ملقياً التحية العسكرية وانصرف. لقد ترك عمله هذا أطيب الأثر في نفوسنا وزادت محبته في قلوبنا أما الشهيد عثمان بك فقد سجل أروع قصة بطولية في تلك الموقعة، وضرب مثلاً في الشجاعة والإخلاص اللذين تميز بها أهل الأناضول، فهو من مدينة سيواس

العريقة بتركيبتها البعيدة عن الفساد والموبقات التي انتشرت في المدينة الحديثة وهو الضابط المثالي الذي قام بواجبه نحو جنوده ودولته حتى النفس الأخير من حياته. لقد هاجم الجيش الانكليزي العرم بطليعة من خمسة جنود جعل منها ميمنة وميسرة وقلباً مستخفاً بالموت وكان بوسعه ان يتوارى وراء رابية كما فعل غيره من الضباط وينجو من موت محدق لكنه تابع هجومه إلى ان بلغ بيتاً لشركة حصر التبغ قائماً وسط تلك السهول، فصعد الطابق الأعلى مع جنوده وأخذ يطلق النار على العدو فهاجمه العدو من كل الجهات وصدّهم بالقنابل اليدوية وقتل منهم عدداً كبيراً، أخيراً أصابته قذيفة محكمة فانفجرت داخل الغرفة التي كان فيها فهشمت ساقاه وحتى وهو مهشم الساقين أبى إلا ان يلقي على العدو ما تبقى معه من القنابل، واستلقى مريحاً ضميره، وقتل الجنود الأربعة معه إلا جندياً واحداً استسلم وضم إلينا أسيراً وهو الذي قصّ عليَ ما حصل مع القائد عثمان. لقد برّح بنا الجوع وكان الطبيب يعتذر عن تقديم الطعام للأسرى فهو يقول ليس لدينا زاد لكم لأن كل خيّال يحمل مؤونته الخاصة به لكل ثلاثة أيام ولا يعقل ان نأخذ من الخيال زاده لنقدمه اليكم ولكنا أرسلنا نطلب الطعام لكم على وجه السرعة. فقلت له اذا لم يكن باستطاعتكم إطعام الأسرى فاطلقوا سراحهم. أين القانون الدولي الذي يحتم عليكم إطعام الأسرى؟ أين العدالة البريطانية؟ فكان هذا يجيبني بقوله حقاً نحن مقصرون ولا حيلة لنا في ذلك. قضينا تلك الليلة في العراء فلا غطاء ولا رداء وقد ترك الجنود على الأرض كل ما كانوا يحملونه بطلب من الفارسين الوسيطين. ولما تركنا المكان تجمع رجال القرية حول كل ما تركناه واستولوا عليه غنيمة باردة. ولكن الاسترالي بعد ان تأكد له أن أهل الرمثا حملوا كل الأمتعة ولم يتركوا شيئاً على الأرض أمرهم باللحاق بالأسرى مع الأمتعة موفراً على الجنود الاتراك نقلها إلى المخيم بمسير نصف ساعة، تلك المسافة البعيدة لكنا فقدنا بذلك كل ما كنا ندخره من الأغطية والمعاطف العسكرية إلا معطفي الذي اتخذت من بطانته علم الاستسلام. نهضنا عند الصباح لنتابع السير إلى درعا فاخترت ثلاثين مريضاً ووزعتهم على العربات حسب تعليمات الطبيب وفي الطريق برز عدد آخر من المرضى أو المتعبين الذين لم يستطيعوا اللحاق بالقافلة والويل لمن يتأخر أو ينفصل عنا فالبدو يقتلونه لا محالة وقد شاهدنا في الطريق عدداً

من الجنود الأتراك القتلى بفعل البدو فانتفخت بطونهم وشوهت وجوههم، وكنا كلما مررنا بأحد هؤلاء نحمله على إحدى العربات ليجري دفنه بالمراسم الكاملة وذلك بناءً على أوامر الطبيب المشددة، لا بد من نقل الجنود المتأخرين إلى العربات ولو كان في ذلك مخالفة للأوامر من قبلي فقد رضيت أن أتحمل تبعة ذلك العمل مهما كانت النتيجة، فبلغ عدد الراكبين الستين في اليوم الأول. بلغنا المكان المقرر للمبيت فقصدت إلى الطبيب أسأله عن الطعام فقدم لي برميلين من الماء سعتهما معاً لا تزيد عن الخمسين ليتراً وقال خذ هذا الماء ووزعه على الأسرى واشرف على حفر القبور حسب التعليمات، وبعد عملية الدفن قم على معالجة المرضى بمساعدة الطبيب المعاون، وسأبذل جهدي لمشاركتكم العمل. طلبت إلى الجنود وقد أضناهم العطش فضلاً عن الجوع أن يقفوا بالقطار الآحادي وقدمت لكل جندي كفكيراً من الماء يشربه وينصرف وبعدها انصرفت إلى عملية دفن الموتى ثم عملية معالجة المرضى ولم أنم إلا في ساعة متأخرة من الليل. وهكذا كنت أقوم بأشق الأعمال وأسهر على راحة الأسرى وهم نيام لا همّ لأحدهم سوى نفسه. كنت أتحين الفرص لألبي دعوة الضباط إلى العشاء أو الغداء فأتناول الطعام إلى مائدتهم وأجيبهم على أسئلتهم العديدة إشباعاً لفضولهم وهنالك أسرار حربية ونتائج لأعمالهم العسكرية في خطوطنا مما كانوا يتلهفون على الاطلاع عليها ومثلاً على ذلك سألني أحدهم كيف أسرتم الجنود العشرة عند «القراقول» الأمامي، وفصّلت لهم ذلك وأتيتهم بالرقيب سليمان بطل تلك الموقعة التاريخية فأعجبوا به وقدموا له هدية من علب اللحم والبسكويت وسألوني عن الجسر الذي أطلقت مدفعيتهم قنابلها عليه طيلة ٩ أشهر ماذا فعل الله به؟ فأجبتهم انه ما زال قائماً ولم يصب بأذى، وسألوني عن موقعة الدردنيل وأثرها ونتائجها فقلت لهم لو ان أسطول الحلفاء ثبت يوماً واحداً أو بضع ساعات أخرى لاخترقه واستولى على استانبول، ذلك ان (جناقلعة) كانت الوحيدة التي بقيت تقاوم الأسطول وقد تعطلت جميع المدافع في هذه القلعة إلا مدفع واحد بقي يقاوم الأسطول ولديه ٧ قنابل فقط ، ويصدهم عن احتلال العاصمة، الاستراليين الذين كانوا يستمعون لي عضّوا على نواجذهم تحرقاً وندماً وقد كانوا ممن اشترك في معركة الدردنيل، ولأزيد في تلهفهم وتحرقهم أردفتُ قائلاً: ان الدولة العثمانية نقلت العاصمة إلى

بورصة استعداداً لإخلائها لأنها قطعت الأمل بالاحتفاظ بها كعاصمة للسلطنة. كنت في كل مرة أقوم من ولائم الضباط الاستراليين ومعي بعض المعلبات الغذائية لأقدمها للضباط الذين اشتد بهم الجوع وكانوا يقدمونها بسخاء وانا أقدمها بدوري إلى بعض الضباط وفي طليعتهم صديقي كامل بك المريض والبعض الآخر إلى الجنود الثلاثة أصحاب حادثة الرمثا. تابعنا السير في صبيحة اليوم الثالث وأصعدت في العربة أكثر من مئة وعند استراحة الظهيرة قدم لي ١٠ علب بسكويت زنة الواحدة ٥ كلغ ومقدار ٥٠ كلغ من التمر، ومثله بصل أحمر وطلب إليَ توزيعها على الجنود، المهمة شاقة فـ ٢٠٠ جندي لم يذوقوا الطعام منذ ثلاثة ايام وما قُدِّمَ هزيل ومثير للسخرية. وضعت الزاد في وسط السهل الذي اخترناه لعملية التوزيع وطلبت من الجنود ان يشكلوا طلائع من عشرة أفراد وعلى رأس كل طليعة ضابط أو رقيب وان تبعث كل طليعة جندي إلى مكان الزاد فجعلت من العلب العشرة ان توزع إلى عشرين حصة وقسمت التمر إلى عشرين حصة متساوية وكذلك فعلت بالبصل ثم طلبت إلى الجنود عن الطلائع العشرين ان يأخذ حصة طليعته وهناك مسؤول الطليعة يقسمها بدوره على الجنود العشرة وينتظر أوامري وعلى كل ضابط أنهى عملية التقسيم ان يرفع يده وأحضر بنفسي إلى طليعته أراقب الحصص وأتأكد من تساويها ثم أطلب إليهم ان يقسموها بحسب النظام العسكري. وذلك في أن يدير أحدهم ظهره والثاني ان يشير إلى واحدة من الحصص ويسأل: هذه لمن؟ وهذه لمن؟ حتى يحصل على حقه راضياً شاكراً. ولما تم التوزيع العادل أعطيت إشارة الأكل فانهالوا عليه من دون وعي والتهموه بطرفة عين وهكذا أتى الجنود على الزاد من دون أن يخطر ببالهم انهم لن يفوزوا بطعام غير الذي أصابوه اليوم بقية المدة التي سيقضوها في الأسر. أما أنا ولو أن طعامي كان مؤمناً بالدعوات التي كنت أتلقاها من الضباط صباحاً وظهراً ومساءً لكنني لم أكن استمرء الطعام وجنودي جياع، لذا كنت وقحاً في طلب الأطعمة المجمدة(المحفوظة) من الضباط لأوزعها على الأسرى.



آلاف الأسرى الأتراك في العراء

في اليوم الرابع بينما أنا أمشي بجوار إحدى العربات إذ دعاني السائق إلى الركوب بجانبه وغايته التحدث إليّ بشؤون المعارك السابقة شأن ضباطه فلبيت الدعوة وجلست بجانبه وفيما نحن بالحديث برز من وراءنا الطبيب على جواده الأدهم الضخم فأخذنا أنا وهو نختلس النظرات التي انطوت على كثير من المعاني حتى أصبح بمحاذاتنا فتبادلنا التحية وقرأت في وجهه آيات الدهشة والاستغراب، فجعلت أفكر في ما عليَ اتخاذه لتبرير الركوب في العربة وعند بلوغ المخيم قصدت إليه كعادتي لاستلام الماء والعلاج والزاد اذا كان هناك من زاد، وما أن وقعت العين على العين حتى بادرني بالسؤال: ما هو العدد الذي حددته بالركوب في العربات؟ أجبت ثلاثون. حسن وما هو عدد الراكبين اليوم؟ مئة وثلاثون. حسن، ولماذا سمحت بتجاوز العدد المقرر؟ أجبت لأني اقتنعت بعجزهم عن المشي بسبب التعب والجوع والعطش فآثرت انقاذهم متحملاً تبعة هذه المخالفة، سيما والمخالفة التي يقوم بها جيشكم بتجويع الأسرى أشد فظاعة، حسن هل أنت منهوك لا تستطيع المشي؟ كلا. ولماذا سمحت لنفسك بالركوب وكان الأجدى بك أن تعطي مكانك لأحد الأسرى المتعبين، نعم ركبت وانا أسمح لنفسي بالركوب مرتاح الضمير فأنا اليوم



طابور الأسرى يعبر درعا باتجاه دمشق

أحافظ على صحتي وراحتي لهؤلاء الأسرى وليس لنفسي، انكم تشاهدون ما أقوم به من أعمال وما أبذله من جهود بالتخفيف عن هؤلاء البؤساء، فأنا لا أركب لأنني تعب وانما أركب حتى لا أتعب فاحتفظ بقواي لأعمل مدة ساعتين قبل نهوضهم من النوم وثلاث ساعات بعد ان ينام جميعهم، خمس ساعات كل يوم في الدفن والتمريض وتوزيع الماء وتلبية الأوامر الصادرة منكم والضباط الآخرين واذا شئتم أقيلوني من هذه الوظيفة وانا مستعد ان أمشي كما يمشي رفاقي الأسرى، وهنا أفتر ثغر الطبيب عن ابتسامة فيها كل معاني الرضا والاقتناع وقال: لك الحق ان تركب وان تسمح لمن تشاء بالركوب فشكراً ومعذرة. يا له من طبيب انساني كبير القلب راجح العقل بعيد النظر، لقد أدرك بثاقب نظره أنني لم أك أقل منه رحمة وانسانية وتضحية فمنحني ثقته وأولاني عطفه، فتفانينا على التعاون بالأخذ

بناصر الأسرى ما استطعنا إليه سبيلا. في عشية اليوم الخامس بلغنا أرضاً فسيحة تحيط بها البساتين من جهاتها الأربعة، فحططنا الرحال وافترشنا الأرض والتحفنا السماء ونمت كعادتي مع الصديق كامي قاضي كوي لأشاركه بالمعطف الوحيد الذي أحتفظ به من دون بقية الأسرى، وكان المرض قد أشتد به على الرغم من العناية التي أخصه بها. كنت واثقاً أن أحداً من الأسرى لن يغمض له جفن لشدة الجوع وفيما أنا مضطجع أفكر في ما آل إليه أمرنا وفي وسيلة أنجو منها من الأسر إذ بأحد الضباط يقدم عليَ ويخبرني بأن حول مكاننا توجد بساتين كثيرة مزروعة فاكهة منوعة فهل أذنت لنا أن نجمع بعض هذه الفاكهة لنسد بها بعض جوعنا؟ أعجبتني الفكرة وذهبت إلى الضابط الاسترالي المسؤول عنا وعرضت عليه الأمر، فقال إفعل ما بدا لك من دون ان يكون لي علم بذلك ومعنى ذلك ان أتحمل التبعة وحدي، فقبلت وطلبت أربع ضباط شباب واتفقنا على خطة محكمة لغزو البساتين، فتوجه كل منهم في جهة مصطحباً معه جنديين ووعاء لجمع الفاكهة وما هي إلا مدة قصيرة حتى وجدت قرب مضجعي أربع كومات من الفاكهة من عنب ورمان وقثاء ولما رأيت تبين لي أننا بجوار داريا المشهورة بنوع خاص من العنب واننا أصبحنا على مسافة قريبة من دمشق. قمت على توزيع هذه الغنيمة بين الأسرى فأتوا عليها بلمح البصر. عند الصباح استدعاني الضابط الاسترالي المكلف بنا فتأكد لدي أن أصحاب البساتين قد شكوا أمر السرقة إلى القيادة وانها طلبتني لتأدية الحساب، فذهبت إليه تتنازعني الهواجس المزعجة وما أن شاهدني حتى أخذ يضحك مشيراً إلى الجنود الأسرى وقد جلسوا القرفصاء حول سياج البساتين وقد عمل الإسهال عمله بهم فضحكت معه واطمأن بالي إلى النتيجة الطيبة التي انتهينا اليها. أرسل بعض رجال أركان الحرب في طلبي وعرضوا عليَ خريطة مفصلة عن الجبال الواقعة بين الزبداني وقرية عنجر عند أول سهل البقاع، وقد ظهر لي على هذه الخريطة طريقاً للدواب أعرفها، كنت اجتزتها عام ١٩١٣ في رحلة كشفية قمنا بها سيراً إلى دمشق. ولما سألني أحدهم اذا كنت أعرف تلك الطريق. أجبت انني أعرفها وقد سلكتها مرة. ثم سألوني عن الينابيع الموجودة فيها، فتبين لي أنهم يسألون عن الماء لإرواء الخيل وانهم عازمون على



إرواء الخيل وهم في طريقهم إلى دمشق

المرور بخيلهم إلى رياق عبر ذلك الطريق تجنباً لقنابل الطيارات الالمانية، فخشيت أن يقرروا المرور منه إن أنا أكدت لهم وجود الماء وبالتالي إصطحابي معهم وأنا عازم على الفرار من دمشق والخلاص من الأسر فأجبتهم أن لا أثر للماء في ذلك الدرب وهناك عين ماء من الزبداني وقفنا ساعة كاملة عندها لتشرب فرقتنا الكشفية وعددها لا يزيد عن الأربعين لحظتها شكروني وانصرفوا ثم علمت بعد ذلك أنهم أخذوا الطريق العام ونجوت من قبضتهم.



ضباط وجنود انكليز طليعة القوات في طريقهم إلى دمشق

تابعنا المسير وبلغنا الساحة الواسعة عند محطة القدم لنجد آلاف أسرى الجنود الأتراك مشردين في أرجائها، فجلسنا ننتظر تحت حراسة الهنود السيخ ذوي اللحى المجدولة، وقد ضاعت سترتي فوجدتني أسيراً عادياً مع هؤلاء الأجلاف الذين لا يفهمون غير الضرب بعقب البندقية. بعد فترة يسيرة اكتشفت ان هؤلاء الهنود كانوا يفهمون اللغة الفرنسية، فقد سبق لهم ان اشتركوا في معارك الجبهة الغربية الفرنسية- الألمانية فتحدثت إليهم بالفرنسية وكانت دهشتهم كبيرة ان يجدوا من بين الأسرى من يخاطبهم بالفرنسية وهم يعرفون منها بضعة كلمات معدودة يتلفظونها بطريقة مشوهة مضحكة، آنست منهم هذا الزهو بمعرفة اللغة الفرنسية فامتدحت ذكاءهم وعبقريتهم فتمكنت أواصر الصداقة بيني وبينهم وأصبحوا يميزونني عن بقية الأسرى، عندها أفهمت الحراس ان الأسرى جياع لم يذوقوا الطعام منذ أيام عدة فتأثر صاحبنا ونادى أحد باعة الكعك فأخذ منه الفرش وقذف به إلى الأسرى المتحلقين حوله فتخاطفوه والتهموه بنهم ثم نادى الهندي بائع الخبز وحمل فرش الخبز وقذف به إلى الأسرى ثم نادى ثانياً وثالثاً بائع جبن بائع دخان بائع خيار إلى أن تزودوا جميعهم بم يكفيهم من طعام وفاكهة ودخان وقد شاهدت بعضهم ينادي سكاير للبيع وخبز للبيع. فأثلج فؤادي وكان منظراً من أجمل المناظر التي شاهدتها في حياتي العسكرية.



اختراق أحد أزقة دمشق بالأسرى

الفرار من الأسر والعودة إلى البيت

جلسنا أرضاً بحراسة هؤلاء الجنود ذوي اللحى المجدولة ننتظر مصيرنا بينما أنا كذلك إذ بصديق لي قديم اسمه رفيق عزيز أوغلو، فتعارفنا بالإشارة وطلبت منه أن يأتيني بطربوش أستعين به على الفرار، فأحضره بلمح البصر لكنني لم أكتفِ بالطربوش وطلبت إلى أحد الحراس ان يسمح لنا بإملاء المطرات من ماء الفيجه وأفهمته أني أعرف مكانها

عند أول شارع الميدان وبعد مراجعة العريف جمعت عشرة أسرى فأتوا بمطراتهم ومطرات رفاقهم فذهبنا مع الحارس فأخذوا يملأون المطرات والحارس لاهٍ عني فانتهزت الفرصة وتحدثت إلى صاحب المحل المجاور للماء وكان من أهل الميدان المعروفين بالشهامة والكرم والتضحية وقلت له انني من بيروت عازم على الفرار من الأسر فهل أنت مستعد لمساعدتي في هذه المغامرة؟ فأعلن استعداده الكلي وطلب إليّ ان أنفصل عن الصف أثناء مرور الأسرى من شارع الميدان وهو يتعهدني بعد ذلك. هي تبدو سخيفة ان أطمئن إلى هذا التدبير الأخرق، ان أنفصل أولاً ثم هو يقوم بما تبقى، ولم يدر في خلدي انني بإنفصالي أو فراري أقوم بالقسم الأعظم من تلك المغامرة الخطرة، لكن هذا شدد من عزيمتي ووضع حدّاً للتردد الذي استولى عليّ. عدت إلى مكاني فوجدت المرضى ينفصلون عن بقية الأسرى ليركبوا العربات إلى المستشفى عندها ودعت صديقي كامي قاضي كوي وأعطيته الرداء، وهو نصف حياتي فأبى ان يأخذه: أنت بحاجة إليه أكثر مني فأنا في غنى عنه بالمستشفى، فقلت له بل أنت أحوج إليه لأنك مريض وأنا لله الحمد بصحة جيدة. عندها إغرورقت عيناه بالدمع وقال إني بعد الذي شهدته من معروفك وكرمك تراجعت عن رأيي وأصبحت أعتقد انه في الدنيا ما يسمونه معروفاً وما يسمونه إنسانية وما يسمونه نبلاً، ولست أرى بأساً إذا محوت كلمة «خلط» من قاموسي إلى الأبد، فاستودعك الله وأتمنى لك العودة إلى بلدك سالماً. ولا أرى بأساً اذا ذكرت أنني لدى زيارتي الأولى بعد الحرب إلى استانبول عام ١٩٣١. بحثت عن هذا الرجل في قاضي كوي واهتديت إليه فاستقبلني استقبال الفاتحين وأكرمني أكثر مما يكرم الأخ أخاه حتى انه قال على مسمع أهله وجيرانه الذين اجتمعوا على مائدة أقامها على شرفي: أنا لا أملك ما أقدمه لك لقاء معروفك ولكنني أملك ثلاثة أولاد فاختر لك واحداً منهم وليشهد هؤلاء الحضور أنني اتنازل عنه راضياً شاكراً. بعد أن غادرونا المرضى نظَّمونا في صفوف من خمسة جنود ويتقدم كل وحدة ضباطها، وكان عددنا يزيد على الخمسة آلاف أسير. مشينا في طريق الميدان باتجاه المرجة وعن اليمين والشمال سارت الخيالة لحراستنا

والمسافة بين الفارس والذي أمامه بطول رمح الفارس الذي يحمله فتبين لي استحالة الفرار، سيما وقد هددني بعض رفاقي الضباط بالوشاية بي بعد ان علموا بما كنت عازماً عليه وتبينوا مدى الخسارة التي ستلحق بهم اذا انا تركتهم ونجوت بنفسي؛ تدبير لم أك انتظره من الذين أخلصت لهم وخدمتهم وخففت عنهم فهم آثروا الوشاية بي وتعريضي للعقاب الشديد حتى يحتفظوا بي لأنفسهم، فكنت في ذلك كالعصفور يسلبه الانسان حريته ويضعه في القفص لينعم بصوته الشجي. تحرك الركب ومشيت بخطوات يائسة وتراءت لي المصاعب التي تنتظرني إلى حيفا مشياً فالاسكندرية بحراً فالمعتقل الرهيب والله يعلم مدى الإقامة فيه، ومرت بخاطري نصيحة والدتي وندمت على تصرفي الأرعن حينذاك، وقلت لنفسي لو أنني نزلت عند رغبتها وأجلت السفر يومين آخرين لوفرت على نفسي عذاب الأسر وويلاته. وما هي إلا فترة حتى تصاعد الغبار بصورة هائلة حتى اني لم أعد أشاهد الفارس الذي على يميني فعاودتني عزيمة الفرار وبعد هنيهات من التردد تسللت من بين الجوادين قاصداً إلى المقبرة ووقفت وراء دكان على الشارع انتظر نتيجة هذه المغامرة والخوف يعصف بي، واذا بي أسمع صراخ ولد ينذرني بأن الهندي يلحق بي فكنت تجدني وأنا أركض بين القبور بوثبة واحدة أتجاوز ثلاثة قبور أو إثنين ويقيني ان الفارس لا يستطيع اللحاق بي فوق القبور، ولما اجتزت المقبرة دخلت أحد الأزقة أعدو كالمجنون تارة أسلك يميني وطوراً شمالي لأضلل الفارس الذي توهمت أنه يتعقبني، ثم انتهيت إلى باب عند نهاية الزقاق فطرقته ففتحت لي إمرأة عجوز تبين لي من حديثها أنها تركية، فقلت لها أنا فار من الأسر فهل تأويني عندك لفترة من الوقت ريثما ينصرف الهندي الذي يلحق بي؟ فرحبت بي وادخلتني إلى قبو بناء لطلبي زيادة في الحيطة وفتحت بابه ورميت بنفسي على أكياس الحطب متهالكاً أعاني نوبة ملاريا كانت كامنة في جسدي طيلة أيام الأسر، وهذه أعجوبة من عجائب الدهر ولطف من الله فالنوبات لها مواعيدها لا تتأخر ولا تتقدم، وكانت الملاريا قد انتابتني قبل الأسر من النوع الشديد الذي يفتك بصاحبه كل ٣٦ ساعة أما هذه المرة فقد تأخرت أسبوعين عن موعدها فانتظرتني

إلى ان وصلت إلى مكان أمين(تساوي أسبوع الانسحاب مع الجيش العثماني وأسبوع الأسر مع الجيش الأسترالي) هاجمتني من دون رحمة وصبّت عليَ جام غضبها، فقضيت بضع ساعات فوق الحطب أقاسي آلامها حتى شاء ربك وانفرجت الأزمة، فتنفست الصعداء وعاد إليَ صوابي فطلبت صاحبة البيت وكانت قلقة عليَ مما أصابني لا تعرف ما تفعل لتخفف عني، فهي طيبة القلب رقيقة الشعور، فعرضت عليَ المساعدة التي أطلبها، فسألتها ان ترسل بطلب بائع الحبوب قرب الفيجه وما هي إلا بضع دقائق حتى حضر وبادرني بلهفة: إلى أين ذهبت وانا بانتظارك، لقد آلمني أنني لم أحظَ بك مع أني وقفت بباب المقبرة انتظر قدومك، فاخبرته بما جرى لي واعتذرت عن التقصير الذي بدا مني. طلب مني أن أصحبه إلى بيته فنزعت سترتي العسكرية والقلبق والسيف فتركتها عند المرأة العجوز وسرت معه بالسروال العسكري والجزمة ولما كنت أخشى ان يكشفني أحد الجنود الاستراليين الذين يعرفونني أردت التخلص من بقية ملابسي العسكرية وصادفت صبي فران فسألته ان يبادلني جزمتي بمشايته البالية فتردد الصبي فنهره الرجل قائلاً: أيها الأحمق خذ الجزمة وانج بنفسك قبل ان يبدل الرجل رأيه، فترك المشاية وأخذ الجزمة وفرَّ مسرعاً لا يلوي على شيء، وصلنا البيت وأدخلني الرجل الحمام المعد قبل بضعة ساعات فاغتسلت واعطاني ملابس داخلية وقنبازاً من ملبوسه فتدلى شبراً على الأرض ثم خرجت إلى الدار لأجد مائدة غنية بانتظاري فهويت عليها وتناولت عشاءًا شهياً من أصناف المحشي والمكدوس وأشهى المآكل الدمشقية التي اشتهر بها أهل الميدان بشكل خاص وبعد ان تناولت الحلوى والفاكهة والقهوة العربية شكرت لصاحب البيت شهامته وكرمه واستأذنت بالرحيل فألح عليَ بالبقاء عنده لكني أصريت على الرحيل وأخبرته ان لي بيتاً في المدينة أفّضل المبيت فيه كما أني أفضل اجتياز الطريق ليلاً للتستر، وبعد أن خرجت من البيت وضعت على رأسي منديلاً يغطي القسم الأعظم من وجهي زيادةً في التخفي وتابعت السير بالقنباز والمشاية الأثرية حتى بلغت بيت صديق لي اسمه(ز.ق) وكان بيته عبارة عن غرفة واحدة يسكنه بمفرده، ولما فتح لي الباب



أهل دمشق خرجوا يتفرجون على القوات الانكليزية وأسراهم الأتراك وفتكوا بمئات الأسرى انتقاما لسنوات الظلم

بدت على وجهه إمارات الشك والتردد واستقبلني ببرودة لم أتوقعها من رفيق الصبا وزميل لي من المدرسة وطلبت منه ان يسمح لي بالمبيت لهذه الليلة وكان جوابه والله ليس عندي فراش غير الذي على سريري فاجبته لا بأس أنام على الأرض، ولما دخلت الغرفة رفعت الأغطية عن فراشه فوجدت فراشين على سريره ومن دون تردد جذبت إحداهما إلى الأرض قائلاً: بوسعك ان تقضي هذه الليلة على فراش واحد أيها الصديق العزيز وتهالكت على الفراش ثم طلبت إليه أن يأتيني بفنجان شاي كنت بحاجة ماسة له فاعتذر ان السكر غير موجود قلت لا بأس فإني أشربه من دون سكر أنا لا أستطيع أن أجزم بأن صاحبي هذا كان مجرداً من الانسانية ولكني اعتقد انه بعدما رآني بثياب مزرية ووجهي الشاحب المنهوك حسبني من المجرمين أو من المدمنين أو المقامرين وقد أخنى عليَّ الدهر وقادتني ظروفي إلى بيته بعدما ضاقت البيوت وطردني أهلي وأصحابي، قضينا تلك الليلة ولم يغمض

لأحدنا جفن فأنا يؤرقني الألم وهو يؤرقه الخوف من المتشرد الذي هبط عليه في تلك الليلة المشؤومة، وأظن انه في كل دقيقة كان ينتظر ان أقوم إليه وأذبحه وأسطو على المال في تلك الغرفة، طلع الصباح وتركت الصديق الحميم من دون أن أودعه فقصدت إلى خان الخليل حيث مخزن صديقنا السيد خليل اللبابيدي وكانت تربطني به صداقة كشفية وكان أول تاجر انخرط في سلك الكشفية وقد رافقنا في رحلاتنا إلى صيدا ودمشق واستانبول وكان هائماً بالكشفية ومبادئها النبيلة ومؤمناً برسالتها الإنسانية لقيته جالساً على مقعده عند باب مخزنه الكبير فحييته فرد التحية محملقاً في وجهي كمن يريد ان يتبين الزائر الغريب، وما هي إلا لحظة حتى عرفني ونهض على طوله ويصرخ عبدالله، أهذا أنت؟ يا ولد أحضر عربة إلى الباب ثم أجلسني وسألني عما حلّ بي؟ فقصصت عليه قصتي بإيجاز ولم حضرت العربة ركبنا إلى بيته ولما وصلنا طلب من زوجته الفاضلة إعداد الفراش لي، فأويت إليه ولم أعي ما جرى لي بعد ذلك مدة ثلاثة أيام بلياليها. نهضت من النوم لأجد الأدوية المنوعة وأدوات كثيرة تستخدم في معالجة الملاريا، وتبين لي مما شاهدته ان القوم بذلوا جهداً وسهروا كثيراً لإسعافي والتخفيف عني وفي غمرة هذه الحيرة والدهشة دخل عليَ السيد خليل اللبابيدي والغبطة تملأ جوانبه، فهنأني بالسلامة وقصّ عليَ ما جرى وأخبرني أني قضيت ثلاثة أيام في الفراش فاقد الرشد تنتابني أعراض الملاريا الشديدة والأطباء يبذلون جهودهم لإنقاذي من الغيبوبة التي أنا فيها، وانه واولاده وزوجته كانوا يقومون على تمريضي فينزع عني الثياب المبللة بالعرق ويغسل جسدي بالإسفنج والماء الفاتر فيعطيني العلاج واللبن ويتناوبون السهر عليَ لأنني كنت عند شدة النوبة أنهض وأصدر الأوامر الحربية، افتح النار على ٥٠٠ متر، بدّل ماء الرشاش، إلى السلاح، تنكبوا الرشاش قطعاً، ازحفوا، اركضوا. من الأوامر التي لا يعرفها إلا من كان عسكرياً. لذلك لم أشك في صدق قوله وهو لا يفقه لها معنى حين رددها. لقد استولى علي الخجل عندما عرفت كم كنت سبباً في إرهاق هذا البيت، وقدرت لأصحابه معروفهم وحسن صنيعهم، ثم فكرت ببيتي واشتد حنيني إلى الأهل والديار وطلبت إلى ابو إبراهيم أن يسهل لي أمر السفر إلى بيروت فأخبرني ان السفر إلى بيروت يكاد ان يكون مستحيلاً فالقطار الحديد قصفه الألمان عند ضهر البيدر كما نسفوا الطريق

العام وفي الشام لا توجد دواب يمكن استخدامها إلى بيروت، على كل هيا بنا إلى السوق لأشتري لك الملابس اللازمة، بذلة جوخ جاهزة وقميص وربطة وطربوش وحذاء وجوارب وغيرها. وقد علمنا ان هناك عربات تجرها الدواب كبيرة مستطيلة ومغطاة بخيمة من الخام تسمى «كارو» وهذه تحمل أكياس الطحين إلى بيروت الجائعة، وان بين الطحين وسقف العربة المقوس فراغ يسمح للإنسان ان يبلغه زحفاً ويمكن ان يملأ هذا الفراغ بين ١٠-١٢ راكباً بشرط ان يتراصوا كالسردين في العلبة، واجرة الراكب على هذه الحال المزرية ١٢ ريالاً أي ما يساوي ليرتين انكليزيتين. لم اتردد في حجز مكان لي في أول عربة تسافر إلى بيروت وانا الذي اعتدت الزحف على البطن والنوم على الحجارة والفحم والحطب، فدفع ابو ابراهيم المبلغ وودعته وسارت بنا العربة. كان بين الركاب العشرة السيد عبدالحليم اللاذقي أحد رفاق صفي في دار العلوم في بيروت، اما الباقون فلم أكن أعرف أحداً منهم. غادرت دمشق والنار لا تزال مشتعلة في العنابر الأميرية فقد شاهدنا اللهب منذ اندلاعها من الكسوة ونحن أسرى، تركنا الضواحي مبللة بدماء الجنود الأتراك والألمان الذين ذبحهم الغوغاء بقصد السلب والنهب وجنود الجيش العربي بالكفية والعقال يجوبون الأسواق ويبادلون الجنود الانكليز التحية، أليسوا من حلفائهم وشاركوا في فتح المدينة التاريخية العظيمة ولو أتوا متأخرين!؟ تركت الشام والقوم يهللون للحرية التي قيل لهم انهم سينعمون بها وتابعت «الكارو» سيرها البطيء وكان عليها ان تقضي ثلاثة أيام بلياليها وعليَ أن أقضي هذه المدة الطويلة ممدداً فوق أكياس الدقيق لا أستطيع رفع رأسي، لكن الله أراد ان يخفف عني هذه البلية فنمت ولم أعِ إلا فترات قصيرة أتزود بالطعام أو الماء. مرت هذه المدة وكأنها بضع ساعات وما أن أطلت العربة على بيروت حتى غمرني الفرح ودبّ في جسمي النشاط وعللت نفسي بمفاجأة والدتي واخوتي بعودتي، بعد ان قطعوا الأمل حسب ظني من هذه العودة وقد اتتهم لا شك أنباء الهزيمة التي مني بها جيشنا فهم يعتقدون أنني قتلت أو وقعت أسيراً، نزلت من العربة «كارو» وركبت الترام إلى رأس بيروت ولما اقتربت من البيت شاهدني الجيران في الطابق الأرضي فرحبوا بي ترحيباً عادياً كما يرحب الصديق بصديق له غاب عنه مدة اسبوعين فقط، فصعدت السلم تتنازعني شتى الأخبار وقلبي يخفق لهذه المفاجأة، وإذ بصوت من أسفل السلم هاك المفتاح ان أهلك ذهبوا إلى بيت عمك الحاج

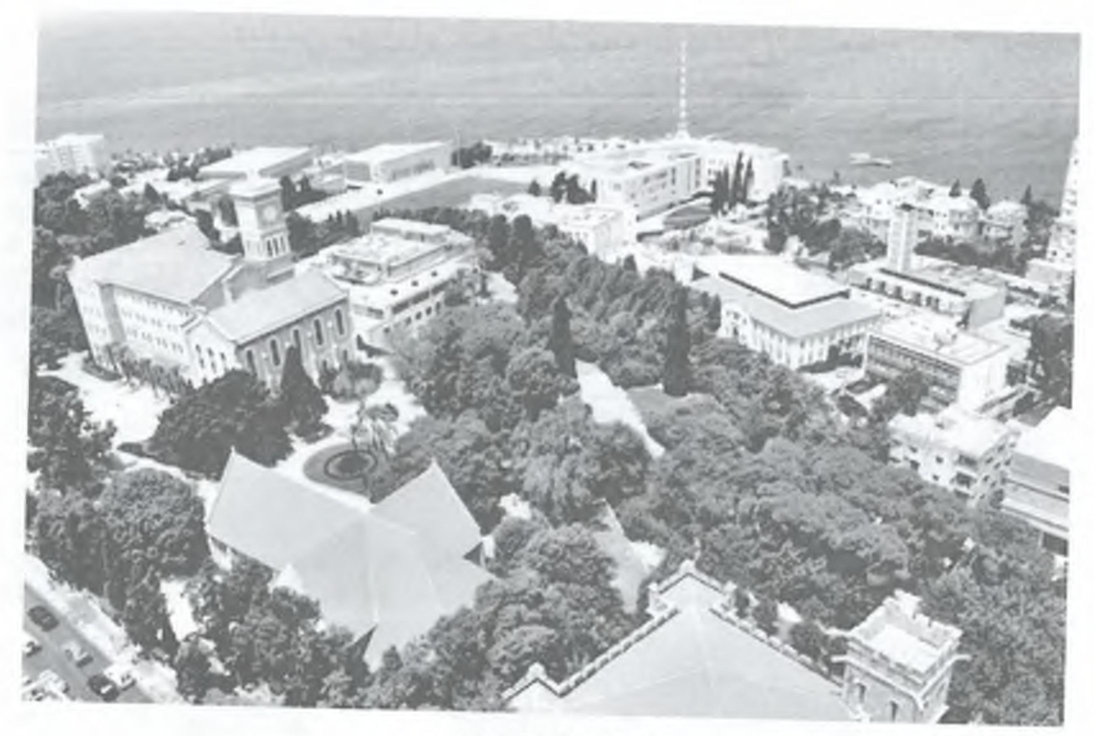
عبدالله. يا للعجب والدتي واخوتي خرجوا للسهرة وانا بحكم المفقود؟ انني لا شك في حلم، أو انهم قصدوا عمي في مهمة خطيرة، دخلت البيت واغتسلت، ولبست ثياب السهرة والعصا بيدي وتوجهت إلى بيت عمي وكان على رابية رأس بيروت المطلة على الروشة ولما علم القوم بحضوري هرعوا وسلموا علي وبادرتني الوالدة بقولها كنا ننتظرك يوماً بعد يوم وقد تركنا لك المفتاح عند الجيران وكان ما توقعناه وكنت أفضل أن تبعث بطلبنا لنقوم بالواجب. ولما سألتهم عن سبب هذا الإطمئنان أجابوا بأن إبراهيم المدور أخبرهم عن وجودي في دمشق، لقد شاهدني بالقنباز يوم كنت قاصداً بيت اللبابيدي صباحاً، فأخبرهم واطمئن بالهم، فخابت أحلامي وكان اللقاء بارداً على عكس ما توقعت. قضيت معهم السهرة وحدثتهم عما جرى لي في الأسبوعين المشؤومين وما لاقيته من ألوان العذاب وما تعرضت له من أخطار فحمدنا الله تعالى ان جمع شملنا وعادت الحياة إلى طبيعتها. دخلت الجامعة



أحد أقسام الجامعة قبل ١٨٩٠

في صف الفرشمن متأخراً اسبوعين وأخي محمد سعيد كان قد سبقني ان تسجل في الصف نفسه عند ابتداء العام الدراسي وما يجدر ذكره انني وأخي كنا قد تقدمنا لدخول هذا الصف في أيلول ١٩١٤ ورغم أننا نجحنا بتفوق، لم يوافق رئيس الدائرة العلمية الأستاذ «داي» أن يقبلني في ذلك الصف لأني لم أبلغ سن ١٦ يوم ذاك فاضطررت للعمل في محلنا التجاري

ريثما أبلغ السن القانونية، وترك أخي محمد سعيد بعد شهر من ذلك التاريخ لإضطراره للعمل في محلنا أيضاً بسبب أن أخي وشريكه ابراهيم المدور أُخذا إلى الجندية وضاعت أربعة سنوات من عمرنا ولو أننا تابعنا الدراسة الجامعية مدة الحرب لكنا تخرجنا في حزيران ١٩١٨ بدرجة بكالوريوس وعلى الرغم من هذا التأخير وجدنا معنا الكثير من رفاقنا في مدرسة دار العلوم هم في الجامعة يتابعون التحصيل العلمي في صف الفرشمن وعدد قليل في صف الصوفومور وبعد تحصيل دام ثلاث سنوات في الجامعة الأميركية وكان أسمها يومذاك (الكلية السورية الإنجيلية ورئيسها بالوكالة الأستاذ نيقولا) قرر أخي محمد سعيد السفر إلى بوسطن لتحصيل علم هندسة الميكانيك في تكنولوجي يونفرسيتي، فاضطررت ان أكتفي بالشهادة التجارية والعمل في التجارة لأقدم له نفقات تعلمه في أميركا. ولقد اتفقنا على ان يتمم أخي تحصيله وأقوم في العمل وأقدم النفقات اللازمة وعندما ينهي تحصيله ويعود إلى الوطن أسافر أنا ويقوم هو بالعمل ويقدم لي النفقات اللازمة، لكن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن، إذ إن أخي بعد أن نال شهادة الهندسة وتهيأ لشهادة الدكتوراه عاجلته المنية في نيويورك بعد ان خلّد ذكرى رائعة بأخلاقه العظيمة ونبوغه الطاغي فانهارت بذلك خططنا لبناء مستقبل زاهر على أساس التعاون وبوفاة أخي عمر بعد سنة من ذلك التاريخ قطعت كل أمل في متابعة التحصيل واضطررت إلى تحمل أعباء ذلك البيت وبالتالي العمل في بيروت قضيت عشر سنوات أقوم بمهمة الناظر العام ووكيل المدير في الكلية الاسلامية وسبع سنوات مديراً لمدرسة ابو بكر الصديق المقاصدية حتى أطلّت الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩.



الجامعة الاميركية اليوم

دبابيس سوق ابو النصر في سبعينات القرن الـ ٢٠



من قدامى التجار



من سوق بيروت



تنوعت مبيعات الدكان



جانب من سوق ابو النصر قبل سنة ١٩٧٥



من سوق ابو النصر قبل سنة ١٩٧٥



سوق ابو النصر سنة ١٩٧٥ قبل تدميره



في استانبول رفاق السلاح لعبدالله دبوس



عبدالله دبوس وسط مجموعة الكشاف المسلم والى جانبه بالطربوش الدكتور بشير القصار سنة ١٩٣٠



مؤسس ومنشئ حزب النجادة القائد عبدالله دبوس يتقدم أكثر من ١٠٠٠٠ عضو ونصير بين مشاة وخيالة
تحت شعارات وطنية غير طائفية سنة ١٩٥٤



في منطقة عين المريسة بيت دبوس مع كبر العائلة وتكاثر أفرادها كبر حجمه وخصائصه وأحاطت به الأبنية الحديثة قبل الهدم والمحاصة في ٢٨ ايلول ٢٠١٠

(من تصوير أسامة كلاب)



البيت قبل هدم نصفه ٢٨ ايلول ٢٠١٠ (تصوير أسامة كلاب)



ما تبقى من بيت دبوس حصة لوريث حفيد ٢٧ كانون اول ٢٠١٧
سبحان الدايم (تصوير المحقق)

كلمة ختام حول إصدار مذكرات المرحوم عبدالله دبوس الضابط في الجيش العثماني والتي لم يسبق لها ان طبعت ونشرت، والتي حصلت عليها مخطوطة مع نسخة محررة على آلة كاتبة بإشراف ابنته سميرة التي كانت وزعت أمثالها على أفراد عائلته واقربائه، وقمت بعملية مقارنة بنسخ أخرى لمطابقتها والتأكد مع المخطوطة.

من المراجع الأساسية التي عوَّلت عليها لإخراج هذه المذكرات إلى النور خلال مدة العمل هو الاتصال بأقاربه لإستيضاحهم عن تساؤلات كثيرة ولنستطيع ان نحيط ببيئته ونشأته ولنكتب عنه كلمة تعريف وتقديمه للقارئ وانا أحاول الحصول ولو على معلومة بسطر واحد أو سطرين أو صورة لصاحب المذكرات. انما للتاريخ فقط أذكر ان كثيرا من أبناء العائلات تجهد وتحافظ بأمانة على ما كتبه الآباء والأجداد وهو محل مفاخرة لديهم. وكنت موضع ترحيب من عائلة دبوس الكرام، ساعدني على جمع المعلومات (وثائق+ صور) حفيده السيد محمد علي دبوس وابن أخيه السيد عبدالمجيد دبوس ولهما الشكر الجزيل. والدكتور محمد خير القاضي أمدني بمعلومات وصور أغنت وساعدت على توضيح موقع وتاريخ المرحوم عبدالله دبوس ودوره في تطوير وتنمية جمعية الكشاف المسلم مدة ٤٠ سنة والتربوي والتعليمي، ليطل على العمل السياسي (القومي العربي والوطني) بإنشاء حزب النجادة .

وكان للأستاذ عبداللطيف فاخوري بمقدمته التي أضاءت على بيروتية آل دبوس وعن عائلات رأس بيروت إجتماعياً وثقافياً في بداية القرن العشرين وهو صاحب عشرات الكتب والمؤلفات عن بيروت وأهاليها وورودها وحتى عن مسارهم اليومي بأفراحهم ومناسباتهم وأحوالهم. ما أغنى قراءة المذكرات وتوجهها.

وملاحظات الأستاذ فواز الطرابلسي التاريخية السياسية الاجتماعية الاقتصادية التي تستعيد للمذكرات تاريخيتها والتفاعلات السياسية (الاعيب الدول الكبرى) مع أوضاع المنطقة إزاء طموحات أهلها ومقوماتهم وواقعهم المعيش وأثر المعاهدات والاتفاقيات في استحداث كيانات سياسية تعتمد أساطير بتسميات مستجدة من فرفطة كيانات سياسية تاريخية.

وأيضاً وقد يقول أحدهم ولم الحاجة إلى مذكرات؟ فيما انا أجد ان ما كتبه المرحوم عبدالله دبوس يعتبر مرجعا غنيا يضاف إلى المكتبة العربية ومصدراً هاماً لتأريخ تلك الحقبة ويؤكد مصداقية ما كتبه معاصرون له مثل الضابط الطرابلسي المرحوم عبدالفتاح ابو النصر اليافي والكسرواني المرحوم بشارة جرجس البواري وانما المواقف لذلك العصر هي نفسها والأطراف أو الظروف هي نفسها. وان تقاطعت اهداف أو التقت اتجاهاتها أو تنافرت. ما يدل على صدقية أصحابها.

وربما تساءل صامت ولم العودة إلى طبعها ونشرها، وربما أحدهم يعترض على نشرها.

على كلٍ هذه المذكرات قد تضاف كأحد المصادر الرئيسة للكتابة التاريخية عن حقبة، عن حدث، فكيف وكتابها شهود عيان. إلى هذا وجدت انه من الضروري أيضا ولأهمية محتويات المذكرات ودورها ان أصدر مذكرات من عاصروه وان لم يلتقيهم.

يصدر لنا بالتوازي مع مذكرات دبوس مذكرات لضابط طرابلسي المرحوم عبد الفتاح أبو النصر اليافي ومذكرات للمرحوم بشارة جرجس البواري من جونيه، المذكرات الثلاث تغطيان سنوات الحرب ١٩١٨/ ١٠١٩ كل من موقعه ومن تجربته.

لماذا المذكرات؟

لدى الكتابة التاريخية تشكل المذكرات شاهداً رئيساً يستشهد بها لدحض أو تأييد موقف ما، رأي، حدث، موقف، فيدعم وتضاف إلى المصادر التاريخية التي يعتد بها بحسب شهرة صاحبها وصدقيته وموقعه السياسي أو الاجتماعي والثقافي وفاعليته أو قربه من المواضيع التي تطرقت اليها مذكراته. فالأحداث والنقاط التي بحثها أو شملتها مذكرات عبدالله دبوس وكان هو مشاركا فيها، لم يكتبها نقلاً عن وعن وعن بل هو عاشها، فالمذكرات أي منها قد يكون مصدراً ووثيقة تقدم صورة محلية لأحد أشكال العمل السياسي أو الاجتماعي أو العسكري أو الرعوي وقد اندمجت فيها الشخصية (الذات) والموضوع في الوقت الذي تنوعت الأدوار وتوزعت المهام ازاء الحاجات والمتطلبات من الذين وجدوا انفسهم يتصدون لتلبيتها بأدوار اضطلعوا بها.

وأجادوها صاغرين غير مخيرين ولكن بشجاعة ونبل وسمو ومتعة. انعكست فيها تطلعاتهم واسلوبهم وتبريرات تنفيذها. وبينت ماجريات الأحداث يومذاك صحة أفعالهم أو خطأها وكيف هم في أثنائها زُيِّنت لهم أو استنبطوا حلولها. على الرغم من الصراعات والانانيات وضعف النفس وتغلب الشهوات التي ظهرت هنا أو هناك عند البعض. إلا ان الرجولة والنزاهة كانتا في غالب الاحيان حاسمتين وفاعلتين.

راهنوا على جدوى المساعدات من الصديق والحليف. والتقت طموحات اللبنانيين المهاجرين مع طموحات اللبنانيين المقيمين. وهي عبرت عن الواقع السياسي المحلي والتشتت الروحي والثقافي وليس السياسي وحده، والضياع امام أي وطن نريد أو استسلام لفرنسا الأم الحنون التي تطعمنا مما تطبخه، وتكتب لنا مستقبلنا. عن اي وطن وكيان نسعى؟ وطن تابع ام وطن مستقل. فالانتماءات الثقافية الدينية والاجتماعية ستطغى على اختيار

الهدف وتجيب عن اي استفسار سبب هذا الاختيار اذا ما غمض فهمها نعود إلى المنطلقات الاجتماعية والدوافع الفكرية-الثقافية التي هي خلف كل اختيار والدافع في تبني المواقف والاتجاهات. وهذا الكلام يسري على المذكرات الثلاث الجاري إصدارها لمعايشتها الأحداث نفسها والعصر .

قصيدة (الجسر) للشاعر خليل حاوي ١٩١٩-١٩٨٢

وكفاني أنَّ لي أطفالَ أترابي
ولي في حُبِّهم خمرٌ وزادْ
مِن حصادِ الحَقلِ عندي ما كفاني
وكفاني أنَّ لي عيدَ الحصادْ
أنَّ لي عيدًا وعيدْ
كُلَّما ضَوَّأَ في القَريةِ مصباحٌ جديدْ
غَيرَ أنّي ما حملتُ الحب للموتى
طيوبًا، ذهبًا، خمرًا، كنوزْ
طفلُهُم يُولدُ خفَّاشًا عجوزْ
أينَ مَنْ يُفني ويُحيي ويُعيدْ
يتولّى خَلْقَه طفلاً جديدْ
غَسْلَهُ بالزيتِ والكبريت
مِن نَتنِ الصديدْ
أينَ مَن يُفْني ويُحيي ويُعيد
يَتَولّى خَلْقَ فرخ النسرِ
مِن نَسلِ العَبيدْ
أنكرَ الطفلُ أباه، أُمَّهُ
ليسَ فيه منهُما شبْهٌ بَعيدْ
ما لَهُ يَنْشَقُّ فينا البَيْتُ بَيْتَينِ
وَيَجري البَحرُ ما بَيْنَ جديدٍ وعتيقْ
صرخةٌ، تقطيعُ أرحامٍ
وتَمزيقُ عُروقْ
كَيفَ نَبقي تحتَ سَقفٍ واحدٍ
وبحارٌ بيننا.. سورٌ
وصَحراءُ رمادٍ باردٍ وجليد

ومتى نظفرُ مِن قيدٍ وسجْنِ
ومتى، ربَّاهُ، نشتدُّ ونبني
بِيَدينا بَيتنا الحُرَّ الجَديدْ
يَعبرونَ الجِسرَ في الصبحِ خفافًا
أَضلُعي امتَدَّتْ لَهُم جِسْرًا وطيدْ
مِن كُهوفِ الشرقِ، مِن مُستنْقعِ الشَرقِ
إلى الشَّرقِ الجديدْ
أَضْلُعي امْتَدَّتْ لَهُم جِسرًا وطيدْ
سوفَ يَمضونَ وتَبْقى
صَنَمًا خلَّفَهُ الكهَّانُ للريحِ
التي تُوسِعُهُ جَلْدًا وَحرْقًا
فارغَ الكَفَّيْن، مصلوبًا، وحيدْ
في ليالى الثَّلْجِ والأُفقُ رمادٌ
ورمادُ النارِ، والخبزُ رمادْ
جامِدَ الدَّمْعَةِ في لَيْلِ السهادْ
ويوافيكَ مع الصبحِ البريدْ:
صَفحَةُ الأخبارِ.. كم تجترّ ما فيها
تُفَلِّيها.. تُعيدْ..!
سوفَ يَمضونَ وتبقى
فارغَ الكَفَّيْن، مصلوبًا، وحيدْ
بومةُ التاريخِ مِنِّي ما تُريدْ؟
في صَناديقِي كُنوزٌ لا تَبيدْ
فرحي في كُلِّ ما أَطعَمتُ
مِن جَوهرِ عُمْري
فَرَحُ الأيدي التي أَعْطَتْ وإيمانٌ وذِكرى
إنَّ لي جَمْرًا وخَمْرًا
إنَّ لي أطفالَ أترابي ولي في حُبِّهم خَمْرٌ وزادْ
مِن حصادِ الحَقْلِ عندي ما كفاني
وكفاني أنَّ لي عيدَ الحصادْ
يا مَعادَ الثلجِ لَن أَخْشاكَ لي خَمْرٌ وجَمْرٌ للمَعادْ

فهرس صور مذكرات عبدالله دبوس

المحتويات



لا عجب أن يبدل الجندي في السنة الواحدة رأياً برأي وعاطفة بعاطفة. فالجندي حرّم على نفسه أو حُرّمت عليه كل متعة من متع الدنيا، فلا نزهة ولا راحة ولا حظ له في النوم العميق ولا الطعام الهنيء والفراش الوثير واللباس النظيف.

يمكن القول إن صاحب المذكرات حين يتحدث عن نفسه، فهو يتحدث عن كل نفس ويصف شعور كل واحد وعواطفه؛ فالحرب تجعل الناس مختلفين وهم متشابهون، ومتشابهين وهم مختلفون. تقول الحق، الحياة، القوة، الكتب، حقوق الإنسان وحريته، وتقول الحياة شهوة التسلط وغريزة السيطرة ونزعة الاستغلال. والذين يساقون إلى الحرب لا يعرفون دسائس السياسة ولا التزاحم على الرئاسة، فلا تسألوا هذه الحرب عما صنعته بحقوق الإنسان، واسألوا التاريخ عما صنعته في المجتمعات.

منيت المجتمعات العربية بعامة وبيروت بخاصة بضروب من الحروب والنكبات لو أنزلت على جبل شامخ لتصدّع، ولو أصاب غيرها معشار ما أصابها لدرست حضارتها وعفت رسومها.

يخيل لمن يقرأ المذكرات أن صاحبها مغرم بأن يورد بالتفصيل حوادث يومياته، لا يدع شاردة ولا واردة، ما يسوء منها وما يسرّ، ما يبعث القلق وما يوحي بالطمأنينة، ولكنه التاريخ المعيش ممن عايشه وتلظى بناره، على عكس المنظرين والمحللين والمعقبين والمراسلين. ويلفت النظر أنّ صاحب المذكرات لم يدع فيها فراغاً كالذي عرفناه لدى كتبة التاريخ، أي المؤرخين عن بعد من ورود عبارة "بياض في الأصل"؛ فمذكراته لا بياض فيها وهي تغني عن القراءة بين السطور.

لم يشهد عصر من العصور صداماً كالذي شهدته الحرب العالمية الأولى وشقيقتها الثانية، وليس في الحرب ما يبعث على الفخر، فالحروب كلها مصيبة وبلاء. طغت الحرب الشاملة على كل شيء، وملكت على الشعوب أهواءهم ومشاعرهم وأفكارهم كافة حتى لم يبق من كان في معزل عنها أو سلم من شرها. فإذا كانت للحروب قواعد وأعراف أخلاقية نظرية إلا أنه لم يكن للمحارب في الواقع أن يتحرج من إثم أو يتعفف عن جرم، فما الحرب إلا القتل والحرق والهدم والنهب.


ISBN 978-9953-71-565-0

9 789953 715650